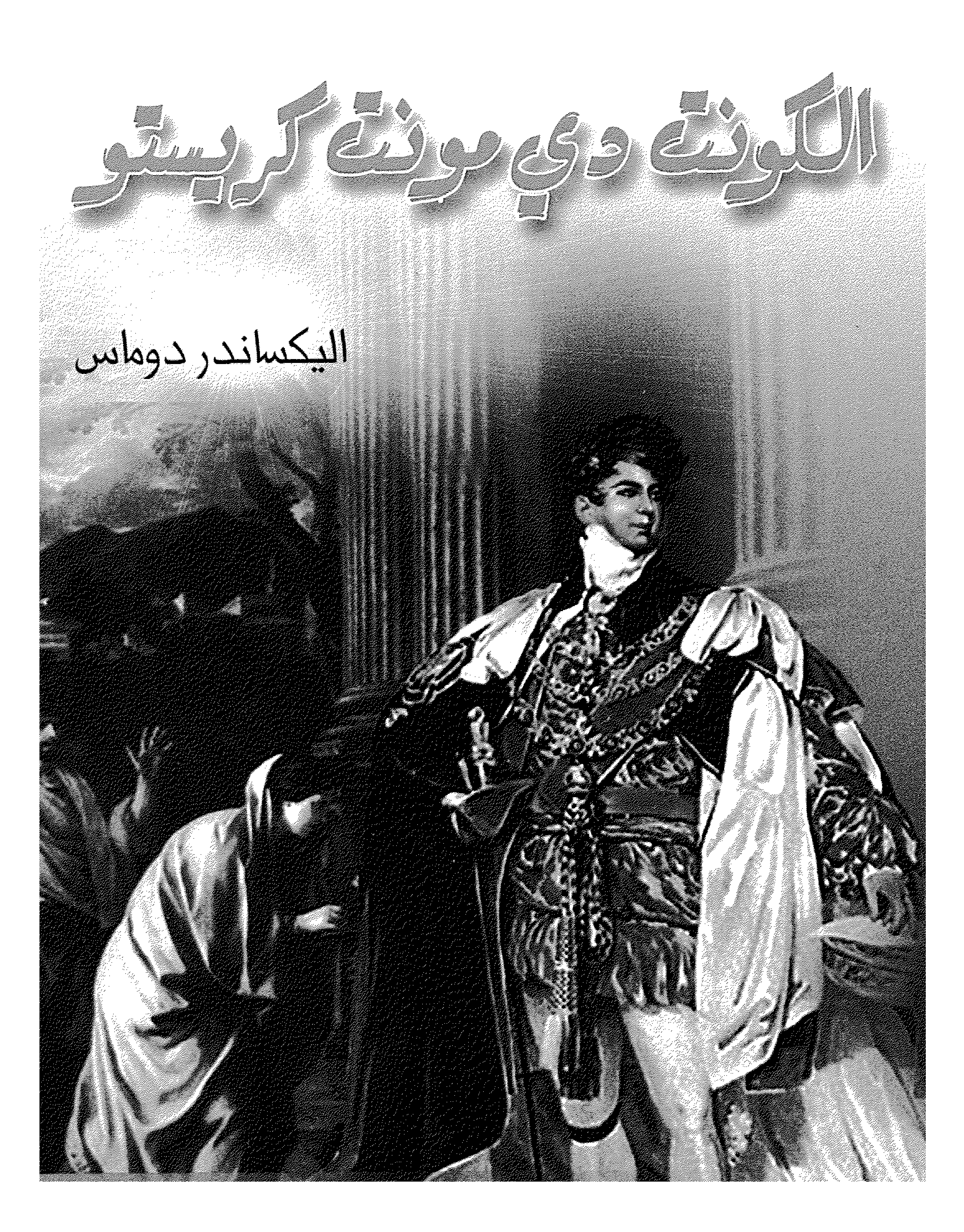
روائع القصص العالمية

الكونت دي مونت كريستو

اليكساندر دوماس







الكونت دي مونت كريستو



الكونت دي مونت كريستو

الاسكندر دوماس

ترجمة

د. فؤاد فريد

دار الشـــرق العـــربـي
بيروت ـ لبنان ـ ص. ب ـ ٦٩١٨/ ١١
حلـب ـ سـوريـة ـ ص. ب ـ ٤١٥

مؤلف الرواية

لقبوه «بالكبير» تمييزاً له من ابنه الذي يحمل اسمه نفسه «اسكندر دوماس». ولقد ولد سنة ١٨٠٢ في قرية فرنسية تدعى «فيلير ـ كوتريه» وقضى بها أعوامه الأولى خاملا، ثم انتقل إلى باريس وعمل في مكتبة دوق أورليتز، ثم اتصل بالبارون «تايلور» ومن طريقه عرف وكيل نيابة اسمه «فيلناف» كان قبل الثورة الفرنسية يكتب في كثير من الصحف، فاتخذه أستاذاً ومرشداً.

و يعد اسكندر دوماس الكبير أكثر الكتاب الروائيين انتاجاً، وقد ترجمت رواياته إلى أكثر اللغات الحية، ومن أشهرها رواية «الكونت دي مونت كريستو».

واشتهر طول حياته بالاسراف الشديد، حتى لقد حجز الدائنون على متاعه أكثر من مرة برغم كثرة ما كان يربحه من مؤلفاته. على أنه مع ذلك كان دائم الفكاهة والابتسام، لا يبالي ما يقع من الأزمات المالية، و يتلقاها بالسخرية التي كانت من لوازمه.

وقد روى ابنه أنه قال له يوماً: «إنك يا أبي كأنما ترمي أموالك من النافذة». فأجابه: «لا بأس!.. فهناك من يلتقطونها!». وقال لصديق له

عاتبه على اسرافه: «كيف أكون مسرفاً مع أنني جئت إلى باريس وليس معي سوى قطعة ذهبية واحدة ما زلت محتفظاً بها حتى الآن؟!»

وطلب إليه يوماً أن يساهم في التبرع بنفقات جنازة أحد المحضرين، فتبرع بضعف المبلغ المطلوب قائلا: «هذا لكي تدفنوا اثنين من المحضرين بدلا من واحد!».

وذهب ذات ليلة إلى مسرح الكوميدي فرانسيز لمشاهدة تمثيلية شعرية لصديقه «اسكندر سوميه». وهناك رأى أحد النظارة نائماً فلفت إليه نظر المؤلف مداعباً. ثم حدث في الليلة التالية أن كانا في المسرح يشاهدان تمثيلية له هو، فلفت سوميه نظره إلى متفرج نائم في المكان نفسه فأجابه قائلا: «هذا الشخص هو نفسه الذي رأيناه أمس لم يستيقظ بعد!».

الربان الشاب

في يوم ٢٤ فبراير سنة ١٨١٥ سجل فنار «نوتردام دي لاجارد» اقتراب السفينة «فرعون» من الميناء قادمة من أزمير، فتريستا، فنابولي.. وحين دارت السفينة حول جزيرة «قصر إيف» خرج قائدها إلى ظهرها، وسرعان ما امتلأت أرصفة «سان جرمان» بالمتفرجين. ولم ينتظر أحدهم وصول السفينة إلى الميناء، فقفز إلى زورق صغير وانطلق به إلى عرض البحر للقائها هناك.

وكان على ظهر «فرعون» شاب يقف إلى جوار قائدها فلم يكد يلمح راكب الزورق حتى ترك موقفه ومضى مسرعاً إلى حاجز السفينة حيث أطل منه ملوحاً بقبعته في صمت.

كان شاباً وسيماً، طويل القامة نحيفها، تتراوح سنه بين الثامنة عشرة والعشرين، ذا عينين سوداوين وشعر فاحم في لون جناحي الغراب.. وفي هيئته العامة ما يدل بوضوح على الهدوء والعزم المألوفين في الرجال الذين تمرسوا بالاخطار منذ نعومة أظفارهم.

وصاح به الرجل الذي في الزورق وهو يدنو من السفينة:
ـ أهذا أنت يا ادمون؟ ماذا جرى؟ ما سبب هذه الكآبة التي تبدو عليك؟!

فأجاب الشاب: «لقد أصبنا بخطب جلل يا مسيو موريل. فقد فقدنا عند (سيفيتا فيشيا) قائدنا الشجاع الكابتن ليكلير. مات متأثراً بالحمى المخية، وكان منظر احتضاره رهيباً يفتت الأكباد.. والآن حتى تصعد إلى

السطح سوف تجد في خدمتك مسيو دانجلر العامل المنوط به شحن السفينة، وسوف يتكفل بكل ما تريد!».

وأمسك المسيو موريل، وهو صاحب السفينة، بالحبل الذي دلي إليه، ثم تسلقه إلى ظهرها.

وكان دانجلر شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره، ذا وجه منفر.. وكان مكروهاً من البحارة بقدر ما كان ادمون دانتيس محبوباً منهم.. فلما رأى صاحب السفينة ابتدره قائلا:

ـ هل سمعت يا مسيو موريل بالخطب الذي وقع؟ لقد كان القبطان ليكلير التعس بحاراً من الطراز الأول، وهذا ما أهله لأن يضطلع بقيادة سفينة تابعة لمؤسسة لها مكانتها مثل مؤسسة «موريل وولده»!

فقال له المسيو موريل وهو يرمق ادمون دانتيس بنظرة ذات معنى:

ـ هذا صحيح، ويلوح لي أيضاً أن صديقنا ادمون ـ نائب القبطان ـ يفهم تلك التبعة جيداً!

فقال دانجلر وهو يحدج زميله ادمون بنظرة تفيض بالكراهية:

ـ نعم يا سيدي، ولهذا لم يكد القبطان يلفظ نفسه الأخير حتى تولى هو القيادة دون أن يستشير أحداً، ثم مكث بالسفينة يوماً ونصف يوم في جزيرة (ألبا) بدلا من القدوم إلى مارسيليا مباشرة!

وهنا قال دانتيس مبرراً موقفه: «ألتمس المعذرة يا مسيو موريل.. وعلى أية حال فالسفينة الآن تلقي مراسيها، وأنا في انتظار ما تأمر به!».

فقال موريل: «لست أريد إلا أن أعرف لماذا توقفتم في جزيرة ألبا؟».

فأجاب دانتيس: «كان ذلك استجابة لآخر تعليمات القبطان ليكلير، فقد أعطاني وهو يحتضر طرداً صغيراً كي أوصله إلى المارشل برتران!».

ـ لقد فعلت الصواب يا دانتيس بتنفيذك وصية القبطان ليكلير والتوقف في ألبا، ولو أن ذلك قد يجلب عليك المتاعب فيما لو علمت السلطات أنك قد حملت طرداً إلى الماريشال!

ـ وكيف يجلب ذلك علي المتاعب يا سيدي، وأنا لم أعرف شيئاً عن محتو يات الطرد الذي حملته؟

هل لك أن تأتي لتناول العشاء معنا؟

ـ شكراً لك يا سيدي على هذا الشرف الذي تسبغه علي، لكني أرجو التفضل باعفائي من هذه الدعوة.. إن زيارتي الأولى ينبغي أن تكون لأبي.

ـ إذن فسوف ننتظرك بعد أن تفرغ من زيارة أبيك.

واحمر وجه الضابط الشاب، ثم قال وهو يغالب حياءه:

ـ مرة أخرى أرى نفسي مجبراً على الاعتذار يا مسيو موريل، فبعد الفراغ من هذه الزيارة تبقى أمامي زيارة أخرى أنا في أشد الشوق إلى القيام بها!

فابتسم صاحب السفينة وقال: «أنت على حق يا دانتيس.. إن هناك من تترقب وصولك بلهفة لا تقل عن لهفة أبيك.. وأعني بها «مرسيديس» الحسناء!».

وهنا ازداد احمرار وجه دانتيس وقال في تلعثم: «أشكرك يا سيدي، ولهذه المناسبة أرجو أن تسمح لي باجازة لبضعة أسابيع».

فقال له المسيو موريل: «إذن أنت تعتزم اتمام زواجكما؟».

فأومأ موافقاً وقال: «وسنسافر بعد ذلك إلى باريس».

فقال المسيو موريل: «حسناً!.. لك الاجازة التي تريدها يا دانتيس على أن تعود بعد ثلاثة أشهر».

ثم ربت كتف الشاب واستطرد قائلا:

ـ إن «فرعون» لا تستطيع أن تبحر بغير قبطانها!

فضغط الشاب يد صاحب السفينة وقال وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفرط تأثره: «آه مسيو موريل! إنني أشكرك باسم أبي. واسم مرسيديس!».

وشد المسيو موريل على يد الشاب مهنئاً ومودعاً، وقال له:

ـ إنك شاب كفؤ طيب القلب ولن أعوقك عن الذهاب الآن، ولتصحبك السلامة!

وعلى أثر ذلك مضى دانتيس إلى شارع (دي نواي) في حي (لاكانابيير).. وهناك دخل منزلا صغيراً إلى يسار ممر (دي ميان). وصعد سلمه المعتم عدواً إلى الطابق الرابع، حيث تمثل أمام باب نصف مفتوح، يرى الناظر خلاله جميع محتو يات الحجرة التي يفضي إليها.

وهناك في تلك الحجرة كان يجلس والد دانتيس، فما كاد يلمح ابنه حتى أطلق صيحة فرح، ثم خف إلى استقباله واحتضنه مرتجفاً من شدة الانفعال. ولحظ الشاب شحوب وجه أبيه فسأله في انزعاج: «ماذا بك يا أبي العزيز؟ هل أنت مريض؟ أين تحتفظ بنبيذك؟».

فأجاب الشيخ المسن: «لا فائدة من الانكار يا بني.. لم يعد عندي نبيذ!».

فتساءل دانتيس وقد شحب وجهه: «ماذا؟ ليس عندك نبيذ؟ هل كنت في حاجة إلى نقود يا أبي؟.. لقد أعطيتك مائتي فرنك حين رحلت منذ ثلاثة أشهر!».

ـ نعم، هذا صحيح يا ادمون، لكنك نسيت الدين الصغير الذي كان علينا لجارنا «كادروس» الخياط.. لقد ذكرني به وأنذرني إن لم أدفعه بأن يطالب به المسيو موريل.. وهكذا خشيت أن يصيبك الرجل بأذى فدفعت له دينه!.

فقال دانتيس متعجباً: «دفعت كل الدين الذي في ذمتي لكادروس، دفعت مائة وأربعين فرنكاً؟!».

فتمتم الأب المسن موافقاً، بينما واصل دانتيس كلامه قائلا:
– إذن فقد عشت ثلاثة أشهر بستين فرنكاً؟! إن هذا ليحزنني كثيراً يا أبي!

وسكت الشاب فجأة إذ سمع وقع خطى شخص قادم، ثم ظهر «كادروس» عند الباب، وكان شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره تحيط بوجهه لحية سوداء، وفي يده قطعة من القماش يتهيأ لحياكتها. ولم يكد يلمح دانتيس حتى ابتدره قائلا: «أهذا أنت يا ادمون؟.. إنك فيما سمعت مستمتع بالحظوة عند المسيو موريل في هذه الأيام. لكنك أخطأت برفض دعوته إلى العشاء، فلكي يصير المرء قبطاناً ينبغي أن يتقرب بالزلفى إلى رؤسائه».

فأجابه دانتيس: «أرجو أن أصير قبطاناً بغير هذه الوسيلة!».

فقال كادروس: «إن أصدقاءك القدامى جميعاً على أية حال ستسرهم هذه الترقية وأنا أعرف يقيناً من سيكون أشدهم سروراً!»

فالتفت الأب الشيخ إلى الخياط متسائلا: «أتعني مرسيدس؟».

وسارع ابنه إلى الاجابة قائلا: «نعم يا أبي العزيز، ولهذا أرجو أن تأذن لي في أن أذهب لزيارة أسرتها الآن».

فقال أبوه على الفور: «هذا واجب يسرني أن تؤديه يا بني العزيز، فلتبارك السماء لك في زوجتك كما باركت لي فيك!».

ثم عانق الفتى أباه وأومأ إلى كادوس برأسه.. وغادر المسكن.. بينما مضى كادروس بعد لحظة ليلحق بصديقه البحار «دانجلر»، الذي كان في انتظاره، فابتدره هذا قائلا: «هيه؟ هل أشار إلى أمله في أن يعين قبطاناً؟».

فأجاب كادروس: «لقد تكلم عن هذا الأمر كما لو كان شيئاً مقرراً!».

فغمغم دانجلر: «لو كان للانسان أن يختار، لآثر الغبي أن يظل حيث هو، بل لآثر أن يهبط درجة عن مرتبته الحالية!».

ولما سأله كادروس عما يعنيه، أجاب قائلا:
ـ لا شيء! كنت أحدث نفسي!

ثم تنهد واستطرد قائلا: «هل ما يزال يحب تلك الفتاة التي تنتمي إلى عشيرة كاتالان..؟».

فقال كادروس: «نعم، إنه ما زال يحبها بكل مشاعره.. ولكن إذا لم أكن مخطئاً فسوف تثور عاصفة في ذلك الحي.. فما من مرة رأيت فيها مرسيدس تأتي إلى المدينة إلا كان معها شاب أسمر طو يل القامة، مفتول العضلات، فاحم العينين، تبدو عليه الشراسة.. وهي تدعوه بابن العم!»

فسأله دانجر: «متى يذهب دانتيس لزيارة فتاته؟».

فأجاب: «لقد انطلق لأداء هذه المهمة قبل أن أحضر إليك مباشرة!».

فقال له: «إذن.. يحسن أن نمضي الآن إلى هناك لنجلس في حانة (لاريزرف) حيث نشرب قدحاً من نبيذ (مالقا) وننتظر ما يجد من الانباء!».

اتهام خطير

كانت القرية التي تقطنها عشيرة «كاتالان» تقع على بعد مائة خطوة من الحانة التي جلس فيها دانجلر وصديقه كادروس يحتسيان النبيذ، وكانت هذه العشيرة الغامضة قد هاجرت منذ زمن بعيد من وطنها الأصلي «اسبانيا» واستقرت في تلك البقعة من الأرض الشبيهة باللسان الممتد في البحر. وقد لبث القوم حوالي ثلاثة قرون أو أربعة لا يختلطون بأهل مرسيليا، وانما يتزاوجون فيما بينهم و يحافظون على تقاليد بلادهم الأصلية ولغتها وزيها.

وفي بيت من بيوت تلك القرية، كانت تجلس شابة حسناء ذات شعر فاحم كالكهرمان الأسود، وعينين مثل عيني الغزال. وقد أسندت ظهرها إلى الجدار.. وعلى قيد ثلاث خطوات منها جلس على مقعد هناك شاب طو يل في العشرين أو الثانية والعشرين من عمره، وأخذ يحدجها بنظرات ملؤها القلق والحيرة.. ثم قال لها:

ـ ها هو ذا عيد الفصح قد اقترب مرة أخرى يا مرسيدس، فماذا ترين في مسألة زواجنا؟

فقالت له الفتاة: «لقد أجبت عن هذا السؤال مائة مرة يا فرناند، وما زلت أؤكد لك أني أحبك كأخ، وأرجو ألا تسألني أكثر من هذا الحب الأخوي، لأن قلبي ملك لآخر أنت تعرفه وهو «ادمون دانتيس!»».

وهنا حدق فرناند في وجه الفتاة ثم سألها وهو يصر بأسنانه: «وإذا فرضنا أنه مات فماذا يكون رأيك؟».

فقالت: «إذا مات ادمون فاني أموت أيضاً!».

وفي تلك اللحظة هتف صوت طروب من الخارج:
«مرسيدس!.. مرسيدس!».

فصاحت الفتاة وقد تورد وجهها غبطة وكاد الحب يجعلها تقفز من مكانها: «آه، هذا هو!».

وعندئذ اندفع فرناند إلى الخارج وقد شحب وجهه وارتجفت أوصاله!.. وهتف يحدث نفسه وهو يعدو و يشد شعر رأسه كالمجنون «أوه، من يخلصني من هذا الرجل؟ يا لي من تعس!».

وفيما هو كذلك سمع صوتا يناديه: «فرناند! فرناند! إلى أين تعدو هكذا؟».

فتوقف الشاب فجأة ونظر حواليه، فرأى كادروس جالساً مع دانجلر إلى منضدة تحت تكعيبة خشبية خارج الحانة المجاورة للمنزل.

وقال كادروس وهو يومىء إلى صديقه: «أترى يا دانجلر؟.. إن فرناند شاب شجاع طيب من عشيرة كاتالان، وهو يحب فتاة تدعى مرسيدس.. ولكن يبدو أن هذه الفتاة تحب نائب قبطان السفينة فرعون!».

فقال فرناند: «إن الأمر يكاد يدفعني إلى هاو ية اليأس».

فقال له كادروس: «لماذا تستسلم لليأس بدلا من أن تفكر في حل لمشكلتك. لم أكن أعتقد أن هذا دأب عشيرتك؟!».

فزفر فرناند زفرة حرى وقال:
ـ إني على استعداد لأن أطعن خطيبها ذاك بسكين، لكنها أكدت لي أنها لو وقع له أي مكروه فستقتل نفسها!

وهنا قال دانجلر: «هناك حل ناجع لا يقل أثره عن أثر موت ذلك الخطيب.. لو أن جدران السجن مثلا حالت بين ادمون ومرسيدس، لأدى هذا إلى انفصالهما ومنع زواجهما.. وهكذا ترى أن لا حاجة بك إلى قتله!».

فتنهد فرناند مرة أخرى وقال: «ومن لي بالوسيلة التي تكفل إلقاء دانتيس في غياهب السجن؟ هل لديك هذه الوسيلة؟».

فقال: «يخيل إلي أنه بعد رحلة كالتي قام بها أخيراً، وعرج فيها على جزيرة (ألبا) يمكن بسهولة أن تزج به السلطات الملكية في السجن بتهمة أنه من أتباع بونابرت!».

ثم كتب دانجلر بيسراه السطور التالية، وقرأها بعده فرناند بصوت هامس:

«من صديق للعرش والدين إلى فخامة النائب العام لصاحب الجلالة الملك.. إن من يدعى ادمون دانتيس، نائب قبطان السفينة (فرعون) وصل هذا الصباح قادماً من أزمير بعد أن مر بنابولي وبورتو فيراجو. وقد عهد إليه (مورا) في مهمة حمل خطاب إلى الغاصب (نابوليون بونابرت).. كما عهد إليه هذا الغاصب حين اجتمع به في حمل رسالة منه إلى جماعة من أنصاره ذوي الخطر في باريس.. وسوف تجدون الدليل الذي يثبت هذه الجريمة عند القبض عليه، لأن خطاب الغاصب ما زال عنده، أو عند أبيه، إن لم يكن في غرفته الخاصة بالسفينة!».

فهتف فرناند متحمساً: «حسناً!.. سأشي أنا به إلى السلطات الملكية».

فقال دانجلر مقاطعاً: «كلا!.. لو قررنا اتخاذ هذه الخطوة لكان الأفضل أن نأخذ هذه الريشة ـ كما أفعل الآن ـ ونغمسها في هذا الحبر، ثم نكتب الاتهام الذي نتفق عليه باليد اليسرى، كيلا يعلم أحد بأن لنا يداً في الأمر!».

ثم قال دانجلر معقباً: «هذا عظيم!. والآن يبدو انتقامك معقولاً، فهو لا يمكن أن يرتد إليك. وما علينا الآن إلا أن نغلف هذا الخطاب،

ثم نكتب على المظروف (إلى النائب العام لصاحب الجلالة) وبذلك ينتهي كل شيء!».

وما أتم دانجلر عبارته حتى كان قد انتهى في الوقت نفسه من كتابة العنوان.. بينما قال كادروس مؤكداً: «نعم، وبذلك ينتهي كل شيء!». وكان هذا قد استطاع باجهاد قواه الذهنية إلى آخر ما تحتمل أن يتابع عبارات الخطاب أثناء تلاوة فرناند إياه و يفهم مدى فظاعة النتائج التي قد يفضي إليها الاتهام.. فعاد يكرر قول صديقه دانجلر: «نعم! بذلك ينتهي كل شيء! لكنها تكون فعلة دنيئة تجلب العار!».

ثم مد الرجل يده محاولا انتزاع الخطاب من يد دانجلر، فلم يمكنه هذا من الوصول إليه وقال له وهو يبعد الخطاب من متناول يده: «إن الأمر مزاح، وإني لأول من يحزن إذا وقع أي مكروه لصديقنا الهمام دانتيس! وعلى هذا فها أنذا أمزقه وأقذف به إلى الأرض بين المهملات والقاذورات!».

ثم نهض دانجلر بعد أن ألقى الخطاب في ركن من أركان الحانة، وأخذ طريقه ومعه صديقه كادروس عائدين من حيث جاءا. وبعد أن مشيا خطوات التفت دانجلر إلى الخلف فرأى فرناند يلتقط الخطاب و يضعه في جيبه ثم يمضي نحو المدينة!

زفاف إلى السجن

أعدت العدة في اليوم التالي لزفاف مرسيدس إلى دانتيس، وهناك في الطابق الثاني من حانة القرية التي اجتمع فيها المتآمرون في اليوم السابق، امتلأت الشرفة بالمدعوين إلى المأدبة قبل أن يحين الموعد المحدد لها بساعة كاملة.. وكانوا خليطاً من بحارة السفينة «فرعون» زملاء دانتيس، ولفيف من خاصة أصدقائه، وقد ارتدى الجميع أحسن ثيابهم.

وحينما لاح موكب العروسين هبط المسيو موريل ليستقبله، إمعاناً في تكريم القبطان الجديد، في أسعد مناسبات حياته، وتبعه جمع من الجنود والبحارة، وكانوا قد علموا منه بنبأ اختيار «دانتيس» قبطاناً للسفينة فرعون خلفاً للقبطان ليكلير، فتضاعفت فرحتهم بهذا الاختيار.

وحين بلغت العروس منتصف المائدة الكبرى وقفت والتفتت إلى أبيها قائلة: «أرجو أن تتكرم يا أبي بالجلوس إلى يميني». ثم أومأت إلى فرناند بابتسامة لطيفة وقالت: «أما عن يساري فسأجلس ذلك الذي طالما كان بمثابة أخ لي!».

وكأنما أثارت عبارتها وابتسامتها اللواعج الكامنة في صدر الفتى فشحب وجهه على أثر ذلك شحوباً مخيفاً وتقلصت شفتاه، وبدا في منتهى الاضطراب!

وهناك في الجانب الآخر من المائدة كان دانتيس بدوره يتولى معاونة ضيوفه الممتازين على الجلوس، فأجلس المسيو موريل إلى يمينه،

ودانجلر إلى يساره.. ثم أومأ إلى بقية المدعو ين فجلسوا حيثما راق لهم أن يجلسوا.

وفيما هم يأكلون قال دانتيس يخاطبهم:

ـ أي أصدقائي الأعزاء.. يسرني أن أخبركم أننا بفضل نفوذ المسيو موريل حصلنا على إذن بالتجاوز عن المهلة القانونية المشروطة لعقد القران، وعلى هذا سوف ينتظرنا عمدة مارسيليا في الساعة الثانية والنصف في قاعة البلدية. أي بعد حوالي ساعة، ولن تمضي ساعة أخرى حتى يتم الزواج. وفي صباح غد أسافر إلى باريس لانجاز المهمة الموكولة إلي، وسوف أعود إلى هنا في أول مارس، وفي اليوم التالي أقيم المأدبة الحقيقية للزواج، حيث يسعدني أن أدعوكم جميعاً إليها منذ الآن!

وبعد حين سمع صوت مرسيدس العذب وهي تقول:

ـ هلا تحركنا؟ لقد دقت الساعة الثانية، ولم يبق إلا ربع ساعة على موعد الذهاب إلى البلدية!

وفي تلك اللحظة سمعت على الباب ثلاث طرقات.. وصاح صوت عال من الخارج: «افتحوا باسم القانون!».

ثم فتح الباب، ودخل منه محقق من وكلاء النائب العام، يتبعه عدد من الجنود، وصاح المحقق على الفور:

ـ ادمون دانتيس، إنني أقبض عليك باسم القانون!. وسوف تعلن بالاسباب التي دعت إلى ذلك في بداية التحقيق!

وساد القاعة على أثر ذلك سكون رهيب، ثم هبط دانتيس السلم خلف المحقق يتبعهما الجنود.. وكانت أمام الباب عربة استقلها برفقة المحقق واثنين من الحراس.. ثم درجت بهم العربة عائدة إلى مارسيليا.

وصاح المسيو موريل ببقية المدعوين قائلا:



« ووقف الاثنان تفصل بينهما ثلاث خطوات »

ـ انتظروني هنا جميعاً، سأهرع إلى مارسيليا ثم أعود لأنبئكم بالخبر اليقين عن تطور الأمور.

وفي الوقت نفسه كان القاء القبض على دانتيس موضع تعليقات مختلفة اللهجة من جانب بعض المدعوين، فقال أحدهم يسأل دانجلر: «وما رأيك في هذا الحادث؟».

فأجاب دانجلر: «أعتقد أن دانتيس لا بد قد اتهم بتهريب مادة تافهة من المواد الممنوع دخولها إلى هذه البلاد».

وهنا قال والد الشاب في صوت متهدج: «الآن تذكرت.. لقد ذكر لي ابني المسكين أمس أنه أحضر لي صندوقاً صغيراً من البن وآخر من التبغ!». وأخيراً هتف واحد من المدعوين كان مطلا من الشرفة:
ـ أخبار طيبة!. أخبار طيبة!.. هذا هو المسيو موريل قد عاد. لا شك الآن أننا سنسمع منه نبأ الافراج عن صديقنا دانتيس!

وهرعت مرسيدس والوالد الشيخ ليستقبلا صاحب السفينة عند الباب ويستطلعا منه الأنباء.. لكن هذا خاطب الحاضرين بقوله في لهجة جادة: «إن الأمر قد اتخذ اتجاهاً أخطر مما كنت أظن أيها الأصدقاء.. إن دانتيس متهم بانتمائه إلى حزب بونابرت!».

في الوقت الذي جرت فيه تلك الأحداث المتلاحقة في مأدبة زفاف مرسيدس إلى دانتيس، كانت هناك في أحد القصور الارستقراطية الواقعة في شارع «جران كور» تجاه نافورة «ميدوزا» حفلة زفاف أخرى، يشهدها جمع من صفوة المجتمع الرفيع في مرسيليا.

وفي هذه الحفلة نهض رجل مسن يحلي صدره بصليب «سان لويس»، مقترحاً شرب نخب صحة الملك لويس الثامن عشر. ولم يكن ذلك الشيخ سوى المركيز دي سانت ميران. وكانت المركيزة زوجته امرأة ذات وجه عبوس ومظهر مترف جليل، برغم الخمسين سنة التي انصرمت من عمرها.. فقالت معلقة:

ـ أه. لو كان أولئك الثوريون هنا الآن لما استطاعوا إلا أن يعترف بأن الملك هو حقاً راعينا «لو يس المحبوب» بينما غاصبهم التعس كان دائما وسوف يكون في كل حين عبقريهم الشرير «نابليون اللعين».. ألست على حق يا مسيو فيلفور؟

والتفت هذا إلى المركيزة حين سمعها تذكر اسمه وقال في هدوء:
ـ أسألك المعذرة يا سيدتي، إنني في الواقع، وأعتذر مرة أخرى عن ذلك. لم أكن أتتبع النقاش!

وهنا قالت «رينيه دي سانت ميران» وهي شابة حسناء يكلل هامتها تاج من الشعر الكستنائي الجميل وتزين وجهها عينان كأنهما تسبحان في بللور سائل:
ـ لا بأس يا أمي العزيزة.. لقد كنت أنا المسئولة عن شغل انتباه المسيو دي فيلفور بحيث لم أدعه يصغي إلى حديثك.. والآن يا مسيو دي فيلفور. دعني أذكرك بأن أمي تخاطبك!

وعلى اثر ذلك عادت الأم تكرر رأيها فقالت: «كنت أقول يا فيلفور أن أنصار بونابرت ليس لهم حماستنا وتفانينا في الاخلاص».

فقال الشاب: «إن لهم مع ذلك ما يعتبر عوضاً عن هذه الصفات الرائعة، وأعني بذلك تعصبهم لسيدهم إلى أقصى حد.. إن نابليون يكاد يكون معبود أتباعه، وليس هذا لأنه زعيم ومشرع للقوانين فقط، بل لأنه نموذج مجسم للمساواة!».

ـ هل تعلم يا فيلفور أنك تتكلم بلهجة ثورية مخيفة؟ لكني أعذرك! فمن المستحيل أن ننتظر من ابن الجيروندي أن يكون معصوماً من آثار الخميرة القديمة!».

وعندئذ اصطبغ وجه فيلفور بحمرة القرمز، ثم أجاب محدثته قائلا «صحيح يا سيدتي إن أبي كان من أنصار الجيروندييين. لكنه لم يكن بين أولئك الذين صوتوا طالبين إعدام الملك. أما عن نفسي فقد وضعت

جانباً كل اعتبار، حتى اسم أبي، وتنصلت من مبادئه السياسية. لقد كان ـ بل يحتمل أنه ما زال حتى الآن من أتباع بونابرت، وهو يسمي نفسه (نوارتييه).. أما أنا فعلى العكس منه ملكي متحمس، وقد خلعت على نفسي لقب دي فيلفور.. وعلى كل حال فلندع مخلفات الوباء الثوري حتى تذهب وتزول من تلقاء نفسها!».

فأجابته المركيزة: «من صميم قلبي أرجو أن ينسى الماضي إلى الأبد. وكل ما أطلبه أن يكون دي فيلفور في المستقبل حازماً لا يلين في مبادئه السياسية. ولتثق بأنه لو وقع في يدك أي شخص متآمر على الحكومة فان واجبك يقضي بأن تعاقبه عقاباً صارماً، ولا سيما أنك معروف بالانتماء إلى أسرة كانت من أنصار الجيرونديين!».

فقال فيلفور: «إنني يا سيدتي، بحكم مهنتي والزمن الذي نعيش فيه، مضطر إلى أن أكون صارماً. لقد توليت توجيه محاكمات علنية عدة بنجاح تام، وأوقعت بالمعتدين العقاب الذي يستحقونه، لكننا لم نقض على الخطر بعد!».

وهنا هتفت حسناء شابة، هي ابنة الكونت سالفيو والصديقة الحميمة للآنسة دي سانت ميران:

ـ أواه! بربك يا مسيو دي فيلفور حاول عقد بعض المحاكمات الكبيرة أثناء وجودنا في مارسيليا، فاني لم أدخل محكمة في حياتي، و يقال أنها متعة مسلية!

فأجاب الشاب: «نعم إنها تكون مسلية بلا شك، إذا اعتبرنا مشاهدة مآسي الحياة تسلية!. وعلى كل حال كوني على ثقة من أنه لو سنحت أية فرصة قريبة فلن أتردد في دعوتك لكي تحضري إحدى المحاكمات!

وفي هذه اللحظة دخل خادم وهمس في أذن فيلفور، فنهض هذا معتذراً من مغادرة القاعة قليلا، لعمل طارىء، ثم عاد بعد لحظات متهلل الوجه، وقال رداً على استفسار من الآنسة دي سانت ميران:

ـ لقد دعيت لتولي التحقيق في مسألة خطيرة قد تنتهي على يد الجلاد، وإذا صحت المعلومات التي تلقيتها فان هناك مؤامرة «بونابرتية»، وسأقرأ لكم الخطاب الذي حوى الاتهام.

ثم تلا عليهم الرسالة التي أعدها دانجلر وكادروس وفرناند في حانة القرية، متهمين فيها ادمون دانتيس بالمرور على جزيرة (ألبا) حيث يقيم نابليون منفياً، وتوصيل رسالة إليه!.. ولم يكد فيلفور يفرغ من القراءة حتى هتفت الفتاة «رينيه» مصفقة وهي ترنو لخطيبها في لهفة واشفاق:

ـ أوه يا فيلفور، كن رحيماً في يوم خطبتنا هذا!

فأجابها مبتسماً: «إرضاء لك يا عزيزتي رينيه، أعدك بأن أظهر كل التسامح الذي في طاقتي، ولكن إذا كانت التهمة ثابتة على هذا المتآمر البونابرتي فينبغي أن تأذني لي في أن أقدم رأسه للمقصلة!».

وغادر فيلفور المكان على الفور قاصداً إلى بيته، الملحق بقصر العدالة، وهناك جلس إلى مكتبه مكتئباً.. وبعد لحظة أدخل عليه دانتيس، وقال في هدوء رداً على سؤال المحقق: «اسمي ادمون دانتيس».

ـ هل خدمت في عهد الغاصب؟

ـ كنت على وشك الانخراط في سلك البحرية الملكية حين سقط بونابرت.

وعندئذ خاطبه فيلفور وهو يخرج الخطاب من جيبه و يعرضه عليه: «سيدي، هل تعرف لك أعداء؟».

فأجابه هذا بعد أن قرأ الخطاب، وقد غامت على وجهه سحابة قاتمة: «كلا يا سيدي! لست أعرف هذا الخط».

ثم أضاف وهو ينظر إلى المحقق نظرة امتنان:

ـ إنه لمن حسن حظي أن يحقق معي رجل مثلك، فهذا الخطاب لا يصدر إلا من عدو حاسد!

فقال له فيلفور: «الآن حدثني بصراحة، حديث الرجل إلى رجل يهتم بأمره: «أي نصيب من الحقيقة في الاتهام الوارد في هذا الخطاب المجهول المصدر؟».

فأجاب دانتيس: «لا شيء البتة!. سأروي لك الوقائع على حقيقتها.. عندما غادرنا نابولي أصيب القبطان ليكلير بحمى مخية. وفي نهاية اليوم الثالث إذ أحس بدنو أجله استدعاني وقال لي: (يا عزيزي دانتيس، أقسم أمامي لتؤدين المهمة التي سأكلفك بها.. إن قيادة السفينة سوف تؤول إليك بعد موتي، بوصفك نائبي، وأنا أريد منك أن تعرج بالسفينة على جزيرة ألبا، وأن تهبط إلى البر في ميناء (بورتو فيراجو) ثم تسأل عن مكان الماريشال الأكبر وتسلمه هذا الخطاب، وإذا أعطاك رداً عليه خطاباً آخر فلتحمله إلى حيث يطلب منك.. ولتتذكر دائماً أن رغبات الانسان المحتضر مقدسة، علاوة على أن الرغبات الأخيرة الصادرة إلى بحار من رئيسه تعتبر بمثابة الأمر!).. وهكذا أبحرت إلى جزيرة ألبا، وهناك أمرت جميع البحارة بالبقاء على ظهر السفينة ونزلت وحدي إلى البر، وسلمت الرسالة للماريشال الأكبر، فزودني برسالة لأحملها إلى شخص في باريس!».

فقال فيللفور على الفور: «إذا كنت قد ارتكبت ذنبا فهو ذنب عدم الحيطة، الذي جعلك تطيع أوامر رئيسك.. فلتهمل أمر الخطاب الذي أحضرته من ألبا، وعدني بشرفك أن تحضر متى استدعيناك، والآن اذهب إلى أصدقائك!».

فتساءل دانتيس فرحاً: «إذن فأنا مطلق السراح يا سيدي؟».

فقال فيللفور: «نعم، ولكن أعطني ذلك الخطاب أولا!».

فأجاب: «لقد أخذوه مني حين فتشوني، وها أنذا أراه ضمن الأوراق التي أمامك!».

ثم تناول دانتيس قبعته وقفازيه وهم بالخروج، لكن المحقق استوقفه قائلا: «انتظر دقيقة.. إلى من كتب الخطاب؟».

فقال: «إلى مسيو نوارتييه، بشارع كوك هيرون بباريس!».

ولو أن صاعقة سقطت في الحجرة، لما كان ذهول فيللفور أشد منه لدى سماعه هذا الاسم.. فقد شحب وجهه شحوباً مخيفاً، ثم سأل محدثه: «هل أطلعت أحدا على هذا الخطاب؟».

فأجاب: «كلا يا سيدي!. وأقسم بشرفي!

ـ أليس لك علم بشيء مما فيه؟

ـ كلا.: وأقسم بشرفي يا سيدي!

وغمغم فيللفور محدثاً نفسه: «آه لو علم محتو يات هذا الخطاب، وأن نوارتييه هو والدي، إذن لهلكت!».

ثم أضاف محدثاً دانتيس: «لم يعد في وسعي يا سيدي ـ كما كنت أؤمل ـ أن أطلق سراحك فورا، لكني سأجاهد كي أجعل مدة اعتقالك أقصر ما يمكن، ذلك لأن التهمة الرئيسية ضدك هي هذا الخطاب، وسترى الآن ما أنا صانع به».

ثم اقترب من المدفأة، وألقى الخطاب في النار، وانتظر حتى احترق عن آخره، ثم قال مستطرداً: «ها أنت ذا ترى أني أحرقت الخطاب.. وسوف أحجزك حتى المساء في قصر العدالة، فاذا استجوبك أحد غيري فقل له ما ذكرته لي ولكن حذار أن تشير بحرف إلى هذا الخطاب، وثق بأنك إن أطعت هذه التعليمات فلا ضير عليك قط!».

فتنهد دانتيس وقال: «اطمئن يا سيدي، لن أشير إليه بحرف!».

وإذ ذاك دق فيللفور الجرس، فلما ظهر أحد الجنود على الباب همس في أذنه ببضع كلمات.. ثم قال يخاطب دانتيس: «اتبعه».. ولم يكد الباب يغلق بعد انصرافهما حتى ألقى فيللفور بنفسه متهالكاً على مقعده وراح في شبه اغماء. فلما أفاق راح يحدث نفسه قائلا: «لو كان النائب العام موجوداً في مارسيليا اليوم لهلكت، ولدمر هذا الخطاب اللعين كل آمالي.. أواه يا أبي، إلى متى يظل ماضيك يعرقل مستقبلي ونجاحي؟».

وفجأة أضاء وجهه خاطر مباغت ورفت على فمه ابتسامة، وتحجرت عيناه من الانهماك في التفكير، وقال يحدث نفسه: «هذا يكفي!. من هذا الخطاب الذي كان سيقضي علي سوف أجمع ثروة من الملك!.. والآن إلى العمل الذي في يدي!».

أما دانتيس فقد خرج يتوسط حامية حراسه إلى حيث كانت عربة تنتظر في الخارج فصعد سلمها وجلس بين اثنين من جنود البوليس، بينما جلس في مواجهتهم جنديان آخران.. ثم بدأت المركبة سيرها فوق الطريق المرصوف بالاحجار.. وحين وقفت آخر الأمر طلب الحراس منه أن يهبط. وتقدمه بعضهم إلى رصيف يفضي إلى البحر فأركبوه قارباً انطلق بهم في الماء تدفعه مجاديف أربعة من البحارة!

وتساءل دانتيس: «إلى أين تأخذونني؟».

ولم يتلق أي جواب، لكنه حين تطلع حواليه وقعت عينيه على الصخرة السوداء الكئيبة التي يقوم عليها سجن قصر «إيف».. وبدت له القلعة الموحشة التي كانت مادة لأبشع الأساطير المخيفة خلال أكثر من ثلاثمائة عام!..

وأحس دانتيس كأنه في حلم، وهو يصعد سلم القلعة، ثم حين أغلق الباب الضخم بينه وبين عالم الأحرار.. بل أنه لم يتنبه وهو داخل حتى إلى المحيط، ذلك الحاجز الرهيب الذي ينظر إليه المسجونون نظرة

يأس بالغة.. وقاده حارس إلى زنزانة تكاد تقع تحت مستوى الأرض، وكانت جدرانها العارية المبللة ببخار البحر كأنها مشربة بالدموع، يضيئها مصباح خافت الضوء موضوع فوق كرسي صغير بغير ظهر. وخاطبه الحارس قائلا: «هذه غرفتك التي ستقضي فيها الليلة.. فالوقت متأخر، وحاكم السجن نائم، وقد ينقلك غداً إلى غرفة أخرى.. وإليك طعامك من الخبز والماء، وهو كل ما يستطيع السجين أن يطمع فيه. طابت ليلتك!».

وبقي دانتيس وحيداً في الظلمة والسكون، يحس كأن أشباحاً وظلالا تتنفس على جبهته الملتهبة.. وعند ظهور أول طلائع الفجر عاد إليه السجان يحمل أمراً بترك السجين حيث هو.. فوجد دانتيس واقفاً في الوضع الذي تركه فيه أول الليل، وكأنما تحول إلى تمثال جامد، وقد تقرحت أجفانه من البكاء.. لقد قضى الليلة واقفاً بلا نوم!..

واقترب السجان منه فلم يبد على دانتيس أنه تنبه إلى اقترابه.. ثم سأله هذا: «ألم تنم؟».

فقال: «لست أدري!».

فسأله: «أأنت جائع؟». فكرر الاجابة نفسها. وحينئذ سأله الحارس: «ألا تريد شيئاً؟». فلما أجاب بأنه يريد أن يرى الحاكم!.. هز السجان كتفيه وغادر المكان صامتاً بعد أن أغلق باب الزنزانة كما كان.

وعندئذ انفجر دانتيس باكياً، ثم ألقى نفسه على الأرض وراح يسائل نفسه: «أية جريمة ارتكبتها حتى أعاقب على هذه الصورة؟».

وانقضى اليوم على هذا المنوال.. لم يكد يذوق طعاماً، وإنما راح يدور في الزنزانة كالوحش الحبيس، و يلوم نفسه على أنه جلس ساكناً مستسلماً في الزورق أثناء نقله إلى السجن، في حين كان يستطيع أن يقفز إلى البحر فيبلغ الشاطىء بفضل براعته المشهود بها في السباحة..

وهناك يخفي نفسه حتى تصل أية سفينة فيستقلها هارباً إلى اسبانيا أو إيطاليا، حيث يلحق به أبوه ومرسيديس.

ولن يحيره التفكير في الوسيلة التي يكسب بها عيشه هناك، فالبحارة الأفذاذ أمثاله يجدون ترحيباً حيثما حلوا، وهو يتقن الايطالية والاسبانية كأبنائها!

وكان يجن ندماً على أنه وثق بوعد فيلفور، فألقى بنفسه في حنق فوق القش المفروش على أرض الزنزانة وأغمض عينيه لعله ينام!

وفي الصباح التالي دخل عليه السجان بصحبة جاويش وأربعة من الجنود، وقال السجان لهم على الفور: «هيا.. لقد أمر حاكم السجن بنقل هذا السجين إلى الطابق الأسفل، ليودع مع أمثاله من المجانين هناك!».

وأمسك الحراس بدانتيس، فتبعهم مستسلماً، وبعد أن هبط خمس عشرة درجة من السلم، فتح أمامه باب قبو معتم، ثم ألقى فيه وحده وأغلق الباب كما كان!

وتقدم دانتيس ماداً ذراعيه في الظلام الحالك حتى لمس الجدار، فارتمى إلى جواره يائساً وحدث نفسه قائلا: «حقاً.. لقد صدق السجان.. إن الخيط الذي يفصلني عن الجنون المطبق صار الآن أوهى من خيط العنكبوت!».

بارقة أمل

كان قد انقضى عام على استرداد الملك لويس الثامن عشر عرشه بعد هزيمة نابليون في معركة ووترلو.

وذهب المفتش العام للسجون ليزور قصر «إيف».. وسمع دانتيس وهو في زنزانته بقبو ذلك السجن جلبة الاستعداد لزيارة المفتش العام فأدرك أن ثمة شيئاً غير عادي يجري في عالم الأحياء، وإن لم يدرك كنهه بالضبط!

وهبط الزائر السلم إلى الطابق الأسفل، المظلم الموحش، فليم يملك أن هتف: «أوه!. من يستطيع أن يعيش هنا؟».

فأجابه حاكم السجن الذي يرافقه: «يعيش هنا متآمر خطير، لدينا تعليمات مشددة بأن نراقبه بمنتهى الدقة والصرامة، لجرأته وشدة بأسه، وانه الآن لأشبه بمجنون، ولن يمضي عام آخر حتى يكون جنونه قد اكتمل!.. وفي الزنزانة السفلى التي سنهبط إليها بسلم آخر لا يزيد طوله على عشرين قدماً يوجد راهب سجيناً كان يرأس أحد الأحزاب الايطالية. وهو هنا منذ سنة ١٨١١، وقد جن بعد سنتين من دخوله السجن، وهو يضحك أحياناً و يبكي أحياناً.. وقد نحل جسمه في البداية، ثم بدأ الآن يمتلىء و يصير بديناً. ولعله يروقك أن تراه، فان جنونه مسل إلى حد كبير!».

وفيما كان دانتيس مستلقياً في ركن من القبو سمع وقع خطى بالباب، ثم صوت المفتاح يدار في القفل، فهب واقفاً متربصاً، وما كاد المفتش يدخل حتى هتف يخاطبه في ضراعة تثير الاشفاق: «أريد أن أعرف أية جريمة ارتكبتها؟. أريد أن أحاكم، فاذا ثبتت ادانتي أعدم رمياً بالرصاص، وإلا أطلق سراحي..».

فأجابه المفتش: «سوف نرى..».

ثم التفت إلى الحاكم وهمس قائلا: «إن حالة هذا المسكين تفتت قلبي، و يجب أن تعرض على الأدلة التي تثبت جريمته!».

وخرج المفتش وأغلق الباب من جديد، ولكن بقي مع دانتيس في زنزانته هذه المرة رفيق جديد هو الأمل الذي بعثته في نفسه كلمات المفتش العام.

وسأل حاكم السجن ضيفه المفتش: «هل تريد الاطلاع على السجل أولا أم تتابع الجولة لزيارة القبو الآخر؟ إن الراهب السجين الذي فيه يتخيل أنه يملك كنزاً هائلا. وقد عرض في العام الأول أن يدفع مليون فرنك مقابل الافراج عنه، وفي العام التالي عرض مليونين.. وهكذا دواليك. وهو الآن في عامه الخامس، وسوف يعرض عليك خمسة ملايين!».

وهناك في وسط ذلك القبو رأى الزائران شيخاً لا تكاد أسماله البالية تغطي جسده. ولم يتحرك حين سمع جلبة الداخلين بل استمر مشغولا بأعماله الحسابية الخاصة بكنزه، حتى إذا أضاءت المشاعل القبو رفع رأسه وحدق قليلا في الزائرين ثم أسرع في لف غطاء الفراش حول جسمه!

وسأله المفتش: «ماذا تريد يا سيدي؟».

فأجاب: «سيدي، أنا الراهب فاريا، ولدت في روما وعملت عشرين عاماً سكرتيراً للكاردينال سبادا، وقد اعتقلت سنة ١٨١١ لسبب لا أعلمه. ومنذ ذلك التاريخ وأنا أطلب الافراج عني، تارة من الحكومة الفرنسية وتارة من الحكومة الايطالية.. وإني مستعد لأن أدفع في مقابل الافراج عني خمسة ملايين من الجنيهات!».

فأجابه المفتش: «يا سيدي العزيز، إن الحكومة غنية وليست في حاجة إلى ملايينك، فاحتفظ بها حتى يفرج عنك!».

فقال الراهب السجين: «إذا لم يفرج عني وبقيت هنا حتى أموت، فسوف يضيع الكنز. إني أعرض عليك ستة ملايين، وسأقنع بالباقي في مقابل أن ترد إلي حريتي.. إني لست مجنوناً، والكنز الذي أتحدث عنه موجود حقاً، وأنا على استعداد لأن أوقع على تعهد بالارشاد إلى مكانه، فاذا لم تجدوه فأعيدوني إلى هنا.. ولست أطلب أكثر من ذلك!».

فقال المفتش: «إنها خطة بارعة، فلو طلب جميع السجناء ذلك لأتيحت لهم فرصة رائعة للفرار!».

ثم خرج الزائر ومرافقوه، وأغلق السجان الباب دون السجين!

ووفى المفتش بوعده لدانتيس، ففحص سجله، ووجد فيه هذه العبارة: «بونابرتي عنيف شديد الخطر، قام بدور إيجابي في فرار الغاصب من ألبا..!» ولم يستطع المفتش إزاء هذه التهمة إلا أن يكتب على هامش السجل معلقاً: «لا شيء يمكن عمله في أمره!».

في نهاية العام التالي وصل إلى السجن حاكم جديد، وكان عسيراً عليه أن يعرف المسجونين بأسمائهم لأن عددهم يزيد على الخمسين، فصار يرمز إلى كل برقم زنزانته. وكان رقم القبو الذي يعيش فيه ادمون دانتيس ٣٤.. وفي الوقت الذي بلغ فيه اليأس بالسجين الشاب غايته حتى دفعه إلى التفكير في الانتحار، فوجىء ذات ليلة بسماع صوت أجوف صادر من وراء الجدار الذي ينام إلى جواره، وكأنه صوت آلة حديدية تدق الاحجار.. فحدث نفسه قائلا: «لا شك في أن هناك سجيناً آخر يحاول الفرار، آه لو استطعت مساعدته!».

ومضى ادمون إلى ركن قبوه فتناول حجراً ودق به الجدار ثم انتظر قليلا فلما لم يسمع شيئاً أفعم قلبه بالأمل في نجاح مساعدته لذلك السجين زميله المجهول. ونهض فنقل فراشه من مكانه وأخذ يبحث عن شيء يثقب به الجدار حتى ينتزع حجراً منه، ولكنه لم يجد ما يصلح لذلك غير آنية شرابه، على أن يحطمها و يستخدم قطعة مدببة منها في الغرض المطلوب!

وكان أمامه الليل كله يعمل أثناءه، برغم أن الظلام كان يعوقه إلى حد ما.. وحين وجد الجدار شديد الصلابة أعاد الفراش إلى مكانه ليخفي آثار المحاولة وآثر الانتظار إلى الصباح.. أما زميله فقد دأب على عمله طيلة الليل.

ولما أشرق النهار وجاء السجان إلى دانتيس بالطعام، أخبره بأن الآنية وقعت فانكسرت.. فما كان من هذا إلا أن ذهب لاحضار أخرى دون أن يعنى بجميع شظايا الآنية المكسورة..!

وبعد ثلاثة أيام نجح دانتيس، بفضل مراعاته منتهى الحذر، في إزالة طبقة الأسمنت التي تكسو الجدار والكشف عن حجر كبير وراءها.. وصار عليه أن يحفر حول الحجر حتى يستطيع اقتلاعه من مكانه. ولكن بماذا يحفر؟.. إن الآنية الخزفية تعجز عن ذلك. وهنا خطر له أن يضع الآنية الحديدية التي يحضر له فيها السجان الحساء أمام الباب بحيث يدوسها هذا بقدمه حين يدخل لأخذ الصحاف الفارغة، فتنكسر!.. فلما تم له ذلك وفق الخطة التي رسمها طلب إلى الحارس أن يدع بقايا الآنية المكسورة إلى الصباح، وصادف هذا الطلب هوى من نفس السجان الكسول فقبل!

وكاد دانتيس يجن فرحاً.. فلما خرج زحزح الفراش من مكانه وأهوى بمقبض الآنية المدبب على جوانب الحجر.. فلم تمض ساعة حتى أمكن اقتلاعه من مكانه، وانفتحت في الجدار ثغرة سعتها قدم مكعب ونصف قدم.. وإذ ذاك أخذ دانتيس المخلفات التي نتجت عن ثقب الجدار ودفنها في شقوق الجدران.. ثم أعاد فراشه إلى مكانه ليخفي آثار فعلته ونام قرير العين!

وبعد مجهود مماثل دام بضع ليال، فوجيء دانتيس في ذات ليلة بسماع صوت كأنه صادر من تحت الأرض، فوقف شعر رأسه دهشة واجفالا.. ثم قال له صاحب الصوت: «لا تحفر أكثر من ذلك. ولكن قل لي فقط ما ارتفاع ثغرتك؟».

فهمس قائلا: «إنها في مستوى أرض الحجرة!».

ـ وعلام يفتح باب حجرتك؟

ـ على ممر يؤدي إلى فناء السجن!

ـ أعتقد أن الجدار الذي تثقبه هو جدار السجن الخارجي، فلتتوقف عن العمل حتى أتصل بك. أنا السجين رقم ٢٧. وسأتصل بك غداً..!

وفي الصباح التالي سمع دانتيس ثلاث طرقات.. فركع على ركبتيه وراح ينصت. ثم قال له ذلك السجين:
ـ هل خرج سجانك؟

ـ نعم، وهو لن يعود قبل المساء. ومن ثم فأمامنا اثنتا عشرة ساعة للعمل.

وبعد لحظة انهار الجزء من الأرض الذي كان دانتيس متكئاً عليه بيديه، بينما كان رأسه في الثغرة.. فارتد إلى الخلف في الوقت الذي هوت فيه كتلة من الأحجار والأرض فاختفت في حفرة انفتحت تحت الثغرة التي فتحها هو.. ثم من أعماق هذا الممر رأى رأس رجل يبرز أولا ثم يتبعه جسمه.. وإذا السجين رقم ٢٧ قد صار معه في زنزانته!

وأخذ دانتيس زميله السجين بين ذراعيه معانقاً، بل كاد يحمله نحو النافذة كي يرى ملامح وجهه.. كان رجلا ضئيل الجسم، أبيض شعره من الآلام، ذا عين نافذة تكاد تكون مدفونة خلف حاجبه الأغبر الغزير. وكانت له لحية طويلة تصل إلى صدره. أما وجهه النحيل وخطوط ملامحه الجسورة فتنم عن رجل ألف أن يستخدم قواه الذهنية أكثر من الجسمية.

وعلم دانتيس من زميله أنه انتزع بعض «شناكل» سريره كي يستعين بها على حفر الطريق الذي سلكه من زنزانته إلى زنزانة جاره، وطوله نحو خمسين قدماً.

فهتف دانتيس، شبه مذعور: «خمسون قدماً؟».

ـ نعم، هي المسافة بين حجرتك وحجرتي. ولكني لسوء الحظ أخطأت تبين اتجاه الطريق الذي حفرته، بسبب نقص الأدوات الهندسية اللازمة.. فبدلا من أن ينتهي بي إلى الجدار الخارجي المطل على البحر، قادني إلى الممر الذي تنفتح عليه حجرتك. وهكذا ذهب جهدي كله هباء، فان الممر يطل على فناء مزدحم بالجنود!

فقال دانتيس: «هذا صحيح، لكن الممر الذي تتحدث عنه لا يحد غير جانب واحد من زنزانتي. وهناك ثلاثة جوانت أخرى، فهل تعرف شيئاً عن موقعها؟».

ـ هذا الجانب ينتهي إلى الصخر الصلب.. وهناك جانب آخر ينتهي عند الجزء الأسفل من مسكن حاكم السجن، ولو نقبناه لوصلنا إلى زنزانات مغلقة. أما الجانب الرابع والأخير من زنزانتك فهو يطل على مكان مفتوح يمر فيه الحراس بلا انقطاع، و يسهرون على حراسته ليل نهار.. ومن هذا تتبين الاستحالة المطلقة في الفرار عن طريق زنزانتك؟

وبعد أن قضى السجينان فترة يتشاوران في تأمل عميق، هتف دانتيس فجأة: «لقد وجدت ما كنت تبحث عنه.. إن الممر الذي سلكته من زنزانتك يمتد هنا في اتجاه الرواق الآخر، ولا يرتفع عنه أكثر من ١٥ قدماً. وإذن ينبغي أن نثقب جدار الممر لفتح ثغرة جانبية في منتصفه.. وفي هذه المرة ستضع خططك بحيث تجيء أقرب إلى الصواب، فسوف نهبط في الرواق الذي وصفته، فنقتل الحارس الذي يحرسه ونلوذ بالفرار!».

ـ لحظة واحدة يا صديقي العزيز.. لقد جعلت دأبي حتى الآن أن أعلن الحرب ضد الظروف، لا البشر.. لم أجد بأساً أو خطيئة ما في أن أثقب جداراً أو أحطم درجة من سلم، ولكني لا أستطيع اقناع نفسي بسهولة بأن أثقب قلباً حياً أو أنتزع حياة.. فتعال زرني في زنزانتي يا

صديقي العزيز وسوف أريك عملا أدبياً كاملا، هو ثمرة أفكاري وتأملاتي طيلة حياتي!

ــ على أي شيء كتبت مؤلفك هذا؟

ــ على قميص من قمصاني. لقد اخترعت تركيباً يجعل التيل مثل ورق البرشمان في نعومته وسهولة الكتابة عليه.

ــ ولكن، مم صنعت الحبر الذي كتبت به؟

ــ كانت في زنزانتي يوماً ما مدفأة، تغطيها طبقة كثيفة من «الهباب»، فأخذت قليلا منه وأذبته في جزء من النبيذ الذي كانوا يحضرونه إلي كل يوم أحد. وأؤكد لك أن الحبر الذي نتج من هذا الخليط لا يضارع. لكني في المسائل والملاحظات الهامة كنت أخز أصبعي بإبرة وأكتب بدمي ذاته.. اتبعني!

ومضى الراهب يتبعه زميله عبر الممر تحت الأرض حتى وصلا دون صعوبة تذكر إلى نهاية الممشى الذي يفضي إلى زنزانة الراهب. وهناك في تلك البقعة كان الممر يزداد ضيقاً حتى لا يسمح بمرور أحد منه إلا إذا زحف علي يديه وركبتيه!

وأخيراً بلغا قبو الراهب، فأخرج من أحد المخابىء ثلاث اسطوانات من التيل مكتوبة كلها، وقال لدانتيس:

ــ هاك المؤلف كاملا.. لقد كتبت كلمة «النهاية» في آخر الصفحة الثامنة والستين منذ نحو أسبوع، فلو خرجت يوماً من هذا السجن ووجدت في إيطاليا ناشراً له الجرأة على نشر ما كتبت، فان سمعتي الأدبية تكون قد توطدت نهائياً.

ثم عرض الراهب على دانتيس «الريشة» التي كان يستخدمها في الكتابة، وهي عصا صغيرة طولها ست بوصات، ربط في طرفها غضروف مأخوذ من رأس سمكة وقد دبب طرفه وشق مثل الريشة العادية.. فقال له دانتيس:

ـ الشيء الذي يحيرني هو كيف تعمل في ظلام الليل؟

فأجابه فاريا: «لقد فصلت الشحم من اللحم الذي يجيئني في الطعام، وصهرته فنتج عنه زيت للوقود، ثم صنعت لي مصباحاً صغيراً من قطعتين من الصوان وقطعة من الكتان المحروق. أما الثقاب فقد اضطرني تدبير أمره إلى التظاهر بأني مصاب بمرض جلدي، ثم طلبت قليلا من مادة الكبريت لهذا الغرض، فجلبوها لي.. إنك لم تر بعد شيئاً من أفانيني!».

ثم أزاح الفراش من مكانه فظهرت خلف أحد الاحجار ثغرة في داخلها سلم من الحبال طوله يتراوح بين خمسة وعشرين متراً وثلاثين متراً. وقد وجده دانتيس من المتانة بحيث يتحمل أي ثقل!.. فسأل زميله الراهب: «كيف صنعتها؟».

فأجاب فاريا: «صنعتها من أقمصتي التي مزقتها!».

ثم سد الراهب الثغرة بالحجر وأعاد الفراش إلى مكانه وقال:
ـ من الذي يستفيد من اختفائك؟.. إن الأمر واضح كالشمس، لكن بساطتك وطيبة قلبك قد أخفيا الحقائق عليك. والآن قل لي، هل كان دانجلر يعرف فرناند؟

ـ لا.. بل نعم! فالآن تذكرت أنني رأيتهما جالسين معاً في الليلة السابقة للزفاف، وكان دانجلر يمزح في مرح بينما بدا فرناند شاحباً قلقاً. ولست أدري كيف لم أفكر في هذا الأمر من قبل؟ إني لأذكر الآن جيداً أنه كان أمامهما على المنضدة حبر وريشة وورق!. يا للأنذال القساة القلوب!

ـ هل ثمة شيء آخر أستطيع أن أعينك على كشفه؟

ـ نعم، أريدك أن تعلل لي سبب القائي في السجن دون محاكمة أو تحقيق!

ـ هذا شيء آخر!.. إلى من كان ذلك الخطاب الذي أعطي لك في «ألبا» موجهاً؟

ـ إلى مسيو نوارتييه رقم ١٣ شارع كوك هيرون بباريس.

ـ نوارتييه، نوارتييه؟ كنت أعرف شخصاً بهذا الاسم من الجيرونديين أثناء الثورة.. وماذا كان اسم المحقق الذي استجوبك؟

ـ دي فيللفور!

وعندئذ أغرق الراهب في الضحك وقال: «كيف هذا؟. ألا تستطيع استنتاج شخصية نوارتييه هذا، بعد أن حرص المحقق على اخفاء اسمه؟. إنه أبوه!»ـ.

ولو أن صاعقة سقطت على دانتيس، لما كان أشد فزعاً منه لدى سماع هذه العبارة!. وومض في ذهنه ضوء خاطف مباغت أضاء وأوضح كل ملابسات الموقف التي كانت غارقة في الظلام!

وحين عاد إلى زنزانته ارتمى على فراشه، حيث وجده الحارس حين دخل عليه في المساء محملقاً في الفضاء صامتاً، بلا حراك.. لقد انتهى من تفكيره وتأملاته الطويلة إلى قرار مخيف أقسم لينفذنه ما وجد إلى ذلك سبيلا!

وأخيراً أفاق دانتيس من شروده على صوت فاريا، الذي جاء على أثر خروج سجانه ليدعوه إلى مشاركته عشاءه.. فقال له: «ينبغي أن تعلمني بعض ما تعلم.. على الأقل حتى لا تمل صحبتي!.. وأنا أعدك بألا أشير بكلمة واحدة بعد ذلك إلى الفرار من السجن!»ـ.

فأجابه الراهب العلامة متأوهاً: «إن المعارف البشرية يا بني محدودة داخل دائرة ضيقة، فاذا علمتك الرياضيات والعلوم الطبيعية

والتاريخ واللغات الثلاث أو الأربع التي أتقنها فسوف تضارعني في العلم.. وهذا يستغرق حوالي عامين!».

فهتف دانتيس: «عامين فقط؟ أتعتقد أن عامين يكفيان لاستيعاب كل هذه العلوم؟».

وفي تلك الأمسية وضع السجينان برنامجاً للدراسة، وفي اليوم التالي بدآ تنفيذه!

سر الكنز المفقود

في نهاية ذلك العام كان دانتيس ـ بفضل ما تعلمه ـ قد صار وكأنه خلق من جديد!. لكنه لاحظ أن فاريا يزداد كل يوم كآبة ووجوماً، وكأن فكرة ما لا تفتأ تلح عليه وتطارده.. وذات يوم سمعه يقول في شرود: «آه، لو لم يكن هناك ذلك الحارس الديدبان!».

فسأله متلطفاً: «هل فكرت في وسيلة لاسترداد حريتنا؟».

فقال: «نعم، ولكن هل أنت قوي البنية؟».

فتناول الشاب أزميل الراهب وثناه بيديه حتى صار كهيئة حدوة الحصان، ثم عاد فقوم اعوجاج الازميل حتى عاد كما كان!

وبدا الاغتباط في وجه الراهب الحزين، ثم قال له:
ـ هل تعدني بألا تصيب الحارس بأذى، إلا عند الضرورة القصوى؟
ـ أعدك بشرفي!
ـ إذن نستطيع أن نشرع في تنفيذ خطة الهرب، وسوف تستغرق منا حوالي عام!

وأخذ الراهب يشرح لدانتيس خطته، وهي تلخص في حفر نفق تحت الممر الموصل بين زنزانتيهما، بالطريقة التي تحفر بها المناجم، ثم الخروج من نافذة قريبة إلى جدار السجن الخارجي، ثم الهبوط إلى البحر بواسطة الحبل الذي فتله الراهب وجعل منه سلماً.

وفي اليوم نفسه بدأ السجينان حفر النفق، بالنشاط الذي توافر لهما بعد طول الراحة، مدفوعين بآمالهما في الحرية والخلاص.. ولم يكن

يعوق عملهما غير حرص كل منهما على العودة إلى زنزانته في الموعد المناسب قبل زيارة السجان النهارية أو الليلية..!

وانقضى عام.. وفي نهاية الشهر الخامس عشر تم حفر النفق، وصار السجينان يسمعان بوضوح صدى خطوات الديدبان وهو يروح و يجيء فوق رأسيهما.. ولم يبق أمامهما غير انتظار حلول ليلة حالكة الظلام كي ينفذا خطة الفرار!

وفي ذات ليلة سمع دانتيس صوت الراهب يناديه في حشرجة تنم عن ألم شديد، وكان قد تركه في زنزانته هو، فخف إليه على عجل، ليجده واقفاً في وسط المكان، شاحباً شحوب الموتى، وقد تصبب جبينه عرقاً وتقلصت يداه، وما كاد يراه حتى ابتدره قائلا:

ـ أصغ إلى ما سأقوله بعناية.. إني مصاب بنوبة من نوبات مرض رهيب قاتل، وقد أصابتني النوبة الأولى منه في العام السابق لاعتقالي، وليس لها غير علاج واحد.. فأسرع بربك إلى زنزانتي واخلع إحدى قوائم السرير، تجد في داخلها قارورة صغيرة مملؤة إلى نصفها بسائل أحمر.. أحضرها إلي بسرعة.. أو فلتأخذني أنا إلى فراشي لئلا يفاجئني الحراس غائباً عن زنزانتي. خذني قبل أن أفقد ما بقي لي من قوة على جر ساقي!

وحين أرقد دانتيس رفيقه على فراشه قال له هذا وهو يرتجف: «شكراً لك!. إني أوشك أن أصاب بنوبة كالصرع، وحين تبلغ حدتها قد تراني راقداً بلا حراك كالميت، أو قد تزداد النوبة شدة فتسبب لي تشنجات مخيفة، فاذا حدث ذلك فاحرص على ألا تبلغ صرخاتي مسامع أحد، وإلا فرقوا بيننا إلى الأبد وأحبطوا كل خططنا. وحين يبرد جسدي و يسكن كالجثة الهامدة، فعندئذ ـ وليس قبل ذلك ـ افتح فمي عنوة بسكين أو نحوها، واسكب في حلقي ثماني قطرات أو عشراً من السائل الذي في القنينة، وبذلك قد أشفى من نوبتي!».

فتساءل دانتيس في لهجة المفجوع: «قد تشفى؟».

وفجأة صاح فاريا: «النجدة.. النجدة.. إني أموت..».

وبلغ من عنف النوبة أن المسكين عجز عن اتمام عبارته، وراح جسده يهتز هزات مخيفة وتنطلق منه صرخات مروعة كتمها دانتيس بوضع الغطاء فوق رأسه.. واستمرت النوبة ساعتين، استرد المريض في نهايتها هدوءه وسكن جسمه كالميت.. وانتظر دانتيس حتى زالت منه كل علائم الحياة ثم فتح فمه عنوة وسكب قطرات السائل في حلقه.. وانقضت ساعة والمريض لا يبدي بادرة من بوادر العودة إلى الحياة!.. وأخيراً صعد إلى خديه لون باهت، وارتد الوعي إلى مقلتي العين، وبذل الراهب محاولة متخاذلة للتحرك.. وحين استرد قدرته على الكلام قال:

ـ إن النوبة الماضية لم تدم أكثر من نصف ساعة، وقد أفقت منها دون معاونة أحد.. أما الآن فاني عاجز عن تحريك ساقي اليمنى أو ذراعي، ورأسي ثقيل، مما يدل على حدوث نزيف دموي في المخ.. وأغلب الظن أن النوبة الثالثة سوف تقضي علي أو تخلفني مشلولا مدى الحياة. بل أن هذه النوبة التي انقضت قد حكمت علي بالبقاء رهن السجن بقية عمري، فقد شلت ذراعي نهائياً.. أرفعها واحكم بنفسك إذا كنت مخطئاً.

ورفع الشاب ذراع الراهب فلما سقطت من تلقاء نفسها بحكم ثقلها، قال له في أسى: «إذن فسوف أبقى أنا أيضاً!». ثم مسح بيده في رفق رأس الراهب المريض وأضاف قائلا: «أقسم بكل ما هو مقدس أن لا أتركك ما دمت على قيد الحياة!».

فنظر فاريا إلى صديقه الشاب نظرة شغف وقرأ في وجهه توكيداً لاخلاصه المكين، فغمغم وهو يمد إليه يده:
ـ أشكرك، وأقبل ما تعد به.. ولكن لما كنت لن أستطيع مغادرة هذا المكان، فلا مناص من سد الثغرة التي في نهاية النفق، خشية أن تنهار الأرض عندها بمضي المدة فيكتشف أمر ما دبرنا و يفصل بيننا مدى

الحياة.. فامض وأتم هذه المهمة، ولا تحضر إلي غداً إلا بعد أن يخرج السجان من عندي.. فان لدي أمراً على أعظم درجة من الأهمية أود الافضاء به إليك!

وحين عاد دانتيس في صباح اليوم التالي وجد فاريا جالساً وقد بدت عليه الراحة، وفي يده اليسرى ورقة لوح له بها قائلا:
ـ أنظر إلى هذه الورقة يا صديقي!.. إن في وسعي أن أعترف لك الآن ـ بعد أن ثبت لي وفاؤك ـ بأن فيها مفتاح كنزي الذي يخصك نصفه منذ اليوم!. لا تحسبني مخبولا، فهذا الكنز موجود فعلا يا دانتيس، ولئن لم يتح لي أن أظفر به فسوف يتاح لك ذلك. والآن اقرأ هذه الورقة!

وكانت الورقة تحوى هذه الكلمات..

«في هذا اليوم، الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٤٩٨، دعيت إلى العشاء عند صاحب القداسة البابا الكسندر السادس.. وخشية أن يطمع قداسته في أن يغدو وارثي، وأن يدخر لي مصير الكردينال كابرارا والكردينال بنتيفوجليو اللذين قتلا بالسم، أعلن هنا لابن أخي «جيدو سبادا» وريثي الوحيد أني دفنت في مكان يعرفه هو وقد زاره معي، وأعني به كهوف جزيرة مونت كريستو الصغيرة، كل ما أملك من المال والذهب والجواهر والأحجار الكريمة، وهي ثروة تقدر بنحو مليونين من الريالات الرومانية. و يستطيع أن يجدها إذا رفع الصخرة العشرين من الأخدود الصغير الواقع إلى الشرق على امتداد خط مستقيم. ولهذه الكهوف فتحتان، والكنز يوجد في الزاو ية البعيدة من ثانيتها، وهذا الكنز أتركه بأكمله له باعتباره وريثي الوحيد!..
قيصر سبادا»

وانتظر الراهب حتى أتم دانتيس قراءة الورقة ثم قال له:
ـ هذه هي وصية الكردينال سبادا التي عين فيها مكان كنز الأسرة الذي حاول البابا الكسندر السادس اغتصابه بقتل الكردينال. على أن

هذا الكنز لم يعثر عليه أحد. وقد كنت أنا سكرتير الكردينال سبادا، وهو آخر من حملوا هذا الاسم، وبعد موته اكتشفت هذه الورقة بين طيات كتاب صلوات خلفه لي. وقبل أن أصل إلى جزيرة مونت كريستو لأبحث عن الكنز، اعتقلت!.. فلو أننا هربنا يوماً معاً، فسيكون لك نصف هذا الكنز. أما إذا مت هنا وهربت أنت وحدك فانه يكون لك بأكمله!

وتساءل دانتيس متلعثماً: «ولكن.. ألم يعد للكنز ورثة شرعيون في العالم غيرها؟».

فقال فاريا: «كلا! لقد انقرضت أسرة سبادا، علاوة لى أن الكردينال الأخير منهم جعلني وريثه الشرعي.. فلو أننا وضعنا أيدينا على الكنز ففي وسعنا الاستمتاع به دون أدنى وخز من ضمير.. وهو يساوي بعملتنا الحالية نحو ثلاثة عشر مليون ريال!».

وخيل إلى دانتيس أنه في حلم، فتأرجح برهة بين الفرح وعدم التصديق.. بينما استطرد فاريا: «لقد كتمت عنك قصة هذا الكنز حتى الآن كي أختبر خلقك، ثم أفاجئك بها.. ولو كنا قد هربنا قبل أن تصيبني النوبة لقدتك بنفسي إلى جزيرة مونت كريستو، فأنا أعدك بمثابة ابن لي، وقد أرسلك الله إلي كي تواسيني في الوقت الذي لم يعد في استطاعتي أن أكون حراً، ولا والداً».

ثم مد فاريا ذراعه السليمة إلى دانتيس فأخذها الشاب بين يديه وانخرط في البكاء!

ولم يكن الراهب يعرف جزيرة مونت كريستو، لكن دانتيس كان يعرفها، فقد طالما مر بها. وهي تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من «بيانوزا»، بين جزيرة كورسيكا وجزيرة ألبا. وقد كانت الجزيرة ـ وما تزال ـ مهجورة تماماً، وهي صخرة مخروطية الشكل تبدو كأنما قد قذفت بها قوة بركانية من جوف المحيط. وقد رسم دانتيس خريطة

تقريبية للجزيرة، وأدلى إليه فاريا ببضع نصائح تتعلق بطريقة البحث عن الكنز.

ولكن، كأنما شاء القدر أن يحرم المسجونين من فرصتهما الأخيرة. فقد أعادت سلطات السجن بناء الجناح المطل على البحر، لأنه كان قد تهدم في كثير من المواضع، وسدت بكتل ضخمة من الاحجار تلك الثغرة التي أغلقها دانتيس مؤقتاً بناء على نصيحة الراهب.. وهكذا قام سد جديد منيع يهدم كل آمال السجينين في الفرار!

الميت الهارب

استيقظ دانتيس من نومه فجأة على صوت نداء صادر من زنزانة فاريا زميله الراهب السجين، فسارع إليه منزعجاً، وعلى ضوء المصباح الصغير هناك رآه شاحب الوجه غائر العينين متشبثاً بقوائم السرير، وقد تقلصت قسماته بتلك الاعراض المخيفة التي ظهرت عليه في النوبة السابقة!

وقال له فاريا بصوت خائر: «وا أسفاه يا صديقي!.. إن النوبة الفظيعة تعاودني، ولن يمضي ربع ساعة حتى أكون ساكناً كالجثة الهادمة.. فافعل ما فعلته في المرة السابقة، ولكن لا تطل الانتظار.. فاذا رأيت بعد أن تسكب في حلقي اثنتي عشرة قطرة، بدلا من عشر، أنني لا أفيق.. فاسكب بقية محتو يات القارورة أيضاً في فمي!».

وأخذ دانتيس صديقه المريض بين ذراعيه وأرقده على الفراش.. وانتابت الراهب على الأثر تشنجات عنيفة، فرفع رأسه بمجهود أخير وهمس له: «مونت كريستو، لا تنس مونت كريستو!».

وحين قدر دانتيس أن اللحظة المناسبة لاسعاف صديقه قد حانت، فتح فكيه وسكب بينهما اثنتي عشرة قطرة ثم انتظر. وكانت القارورة تحوى بعد ذلك ضعف هذا القدر. وانقضى نصف ساعة دون أن يحدث أي تغيير في حالة المريض فوضع فم القنينة بين شفتي الراهب القرمزيتين وسكب ما فيها في حلقه!.. فأحدث الدواء أثراً مؤقتاً هز كيان المريض هزاً عنيفاً ثم عاد جسده إلى سكونه الأول، وظلت عيناه مفتوحتين.. وشيئاً فشيئاً سرت فيه برودة الموت، وضعف نبضه تدريجاً حتى وقف آخر الأمر!

وكان موعد مرور السجان قد اقترب، فأطفأ دانتيس المصباح وأخفاه بعناية ثم خرج إلى الممر السري وأغلق الثغرة بالحجر بكل ما وسعه من اتقان.. وحين وصل إلى زنزانته لم يلبث أن سمع جلبة السجان وهو يكتشف موت السجين، ثم أصوات الحاكم وطبيب السجن والحراس، وكان الحاكم يقول: «إنه سوف يدفن الليلة بكل تكريم في أحدث غرارة نجدها هنا!».

ثم سمعت خطوات أخرى، وضجيج أعقبه تحريك سرير الميت، وأصوات مختلفة مختلطة.. وبعد حين هدأ كل شيء وعاد سكون الموت يخيم على السجن.. فتسلل دانتيس إلى الممر، وإذ أيقن من خلو زنزانة صديقه من أي إنسان رفع الحجر في حذر ودلف إليها!

كانت الجثة قد وضعت في كفنها داخل غرارة من الخيش، استعداداً لالقائها في البحر.

وإذ رأى دانتيس ذلك المنظر الذي يعده للفراق الأبدي عن صديقه الذي كان سلواه الوحيدة في سجنه، عاودته فكرة الانتحار التي كانت تراوده من قبل، فراح يذرع المكان جيئة وذهاباً.. وفجأة وقف إلى جوار الفراش جامداً، وغمغم:

ــ يا إلهي! ما الذي أوحى إلي بهذه الفكرة؟. أهي من وحيك؟ لكن ما دام أحداً غير الموتى لا يخرج حراً من هذا المكان، فلآخذ مكان الميت!

ولم يتمهل ليتدبر هذا القرار اليائس، بل جذب الجثة من الغرارة وحملها عبر النفق إلى زنزانته هو، حيث وضعها فوق فراشه، ولف رأسها بالغطاء الذي يتدثر به أثناء نومه.. ثم قبل جبين صديقه الوفي التعس وأدار رأسه نحو الحائط كي يحسبه السجان نائماً حين يدخل في الزيارة التالية، ومرق عائداً إلى الممر حاملا معه إبرة وخيطاً وسكيناً!

وحين بلغ زنزانة الراهب دلف إلى داخل الجوال واتخذ الوضع الذي كانت عليه الجثة ثم خاط الغرارة من الداخل كما كانت!

وانقضى الليل على هذه الحال، دون أن يحضر أحد. وفي الساعة السابعة من الصباح بدأ عذاب دانتيس الحقيقي!. ولم تستطع يده التي وضعها فوق قلبه أن تخفف من عنف ضرباته الشديدة، بينما راح يمسح بيده الأخرى قطرات العرق المتصبب على وجهه. ومن وقت لآخر كانت تسري في جسمه قشعريرة باردة تعصر قلبه، حتى خيل إليه أنه سوف يموت.. وأخيراً سمع صدى خطوات تدنو، فتذرع بكل ما بقي له من شجاعة وحبس أنفاسه!.. ثم فتح الباب، ودخل منه رجلان، بينما وقف ثالث عند الباب يحمل مصباحاً بلغ ضياؤه الخافت عين الشاب عبر الغرارة السميكة.. وحمله كلا الرجلين من طرفي الغرارة، وسمع أحدهما يقول للآخر:

ـ إنها ثقيلة هذه الجثة مع أن صاحبها كان عجوزاً نحيل الجسم!.

فأجابه زميله: «يقولون أن وزن العظام يزداد بمقدار نصف رطل كل عام!».

ثم سارت القافلة يتقدمها حامل المصباح، فصعد رجالها السلم المؤدي من القبو إلى الطابق الأول.. وفجأة أحس دانتيس هواء البحر الرطب المنعش يصدم جبهته.. ثم وضعه حاملاه وهو في الغرارة على حاجز، وثبتا ثقلا حديدياً بقدميه في عنف كاد يرغمه على أن يصرخ من الألم!.. ثم عادا فحملاه واستأنفا السير حتى سمع اصطفاق أمواج البحر وهي تصدم الصخور التي يقوم عليها بناء السجن.. ثم قال أحد الحمالين: «يا لها من ليلة باردة، لا تناسب الغوص في البحر!».. فأجابه الثاني: «إن الراهب سوف يصاب بالبلل!».

ثم انفجر كلاهما ضاحكين في وحشية! فوقف شعر رأس الشاب من الفزع!. وعاد الأول يقول: «ها قد وصلنا أخيراً». فاعترض زميله قائلا:

«بل لنصعد بضع درجات أيضاً، فلعلك تذكر أن الميت الذي ألقيناه آخر مرة قد اصطدم بالصخور، فاتهمنا الحاكم بالاهمال..!».

ثم صعدا خمس درجات أو ستا، وتوقفا أخيراً.. وأحس دانتيس أيديهما تؤرجحه ذهاباً وجيئة تأهباً لالقائه في اليم، وسمع أحدهما يقول: «واحد.. اثنين.. ثلاثة!».. وفي هذه اللحظة شعر بهما يطوحان به في الفضاء بقوة فيهوى من حالق كالطائر الذبيح، بسرعة مروعة جعلت دمه يجمد في عروقه!

وبدا له كأن سقوطه استمر قرناً من الزمان!. وأخيراً اصطدم في عنف بالماء البارد، فأطلق برغمه صيحة حادة اختنقت حين غاص في أعماق البحر، يجذبه إلى قاعه ثقل زنته ستة وثلاثون رطلا، وما لبث قليلا حتى شعر بأنه استقر في قاع البحر.. في مقبرة سجن قصر إيف!

وبرغم ما لقيه من الفزع خلال «رحلته» الرهيبة هذه، كان من حضور الذهن بحيث لم يكد يغوص في لجة اليم حتى مد يده اليمنى بالسكين إلى الغرارة التي تحتويه فشقها وأخرج ذراعه ثم جسمه، لكنه عجز برغم جهوده أن يخلص نفسه من الثقل الذي يجذبه نحو القاع.. وأخيراً انحنى على نفسه، ولمحاولة أخيرة يائسة قطع الرباط الذي يثبت الثقل في قدميه، في اللحظة التي كاد فيها يموت مختنقاً!. ثم رفع جسمه نحو السطح بكل ما بقي له من قوة.. وحين بلغه جذب نفساً عميقاً من الهواء ثم غاص في الماء مختاراً خشية أن يلمحه أحد «زبانية» السجن!

وحين برز فوق الماء مرة أخرى كان قد ابتعد عن البقعة التي ألقى فيها نحو خمسين قدماً.. وكانت تنبسط فوق رأسه سماء سوداء تنذر بالعاصفة، و يمتد البحر أمامه فسيحاً كئيباً رهيباً، تزأر أمواجه وترغى وتزبد.. وخلفه كان يقوم كالشبح ذلك البناء الصخري الموحش الذي تمتد صخوره المدببة كالأذرع التي تتأهب للانقضاض على فريستها. وفوق الصخرة العليا كان مصباح يضيء وجهي رجلين. خيل إليه أنهما

الحمالان اللذان قذفا به إلى البحر وقد سمعا صيحته فوقفا يرقبان ظهوره فوق صفحة الماء!.. وعلى هذا لم يجد بدأ من أن يعود فيغوص ويبقى تحت اللجة أطول فترة ممكنة، ولم يكن ذلك بالأمر العسير عليه وهو المشهود له بأنه أبرع سباح في مارسيليا.. وحين برز فوق الماء مرة أخرى كان المصباح قد اختفى!

واعتزم دانتيس أن يهرع نحو أقرب جزيرة، وكانت تبعد فرسخاً عن قصر إيف. وبعد انقضاء أكثر من ساعة في السباحة المتواصلة ضد الريح، أحس ألماً حاداً في ركبته، فمد يده.. وإذا هي تصطدم بعائق من الصخور.. وبوثبة أخرى بلغ شاطىء جزيرة «تيبولين». فتمدد هناك فوق صخور الجرانيت وهو يرفع إلى الله أحر صلوات الشكر.. ثم ما لبث قليلا حتى راح في النعاس، بعد أن نال منه الجهد الذي بذله في الوصول إلى هناك!

وبعد حوالي ساعة استيقظ من نعاسه على هزيم الرعد، وحين نهض كان البرق يضيء الظلمة بومضات خاطفة رأى على هديها زورقاً من زوارق الصيد تتقاذفه الأمواج وقد تعلق أربعة من ركابه بشراعه الممزق بينما تعلق الخامس بالدفة المكسورة.. فاندفع دانتيس يعدو هابطاً الصخور، فلما بلغ الشاطىء لم ير للزورق أثراً!

وهدأت العواصف بالتدريج.. ثم أشرق النهار، فقال الشاب محدثاً نفسه: «بعد ساعتين أو ثلاث سوف يدخل السجان زنزانتي فيكتشف الحادث وتطلق سلطات السجن صفارة الانذار..!».

واستدارت عيناه في اتجاه قصر إيف، فلمح عن بعد سفينة شراعية صغيرة من طراز سفن «جنوة» قادمة من ميناء مارسيليا.. فهتف جذلا: «هل يعقل أن أكون بعد نصف ساعة على ظهرها؟.. إن هؤلاء المهربين الذين يرتدون مسوح التجار سوف يفضلون أن يبيعوني على أن يقوموا بعمل إنساني، لكني سأزعم أني بحار غرقت في عواصف الليلة

السابقة، وسوف يصدقون قصتي ما دام أن أحداً لن يفندها أو ينقضها!».

وحانت منه نظرة إلى حيث غرق زورق الصيد، فلمح غطاء رأس أحمر من أغطية البحارة متعلقاً بطرف صخرة، وبضع قطع من أخشابه عائمة فوق الماء.. وفي لحظة رسم خطته: سبح إلى مكان غطاء الرأس حتى بلغه ثم وضعه على رأسه، وتعلق باحدى قطع الأخشاب الطافية واتجه إلى حيث وقف على طريق السفينة المقتربة..!

في جزيرة مونت كريستو

قضى دانتيس شهرين ونصف شهر يعمل بحاراً في سفينة المهربين، و يمر بجزيرة مونت كريستو ذهاباً وإياباً بدون أن يجد الفرصة الملائمة للهبوط فيها.. وأخيراً اقترح الربان الوقوف عندها للراحة.. وكانت مهجورة تماماً بحيث بدت مكاناً نموذجياً لتجارة التهريب!

وفي اليوم التالي لم يرتب أحد في نوايا دانتيس حين أعلن عزمه على اصطياد بعض الوعول البرية التي تقفز بين الصخور.. ثم تظاهر بأنه سقط من صخرة وأصيب في ركبته إصابة تعجزه عن الحركة.. وحين اقترح عليه زملاؤه أن يحملوه إلى السفينة أبى قائلا: «إنه يفضل الموت على آلام التحرك!».. ثم طلب إلى إخوانه أن يتركوا له بعض المؤن و يعودوا إليه بعد يومين أو ثلاثة، أو يرسلوا إليه أي زورق صيد يصادفونه في البحر، فلم يسعهم إلا إجابته إلى طلبه!

ولم تكد سفينتهم تبحر حتى هبِ من مرقده في خفة الغزال حاملا معه بندقيته وفأسه، وهرع نحو المكان الذي حددته خريطة الراهب مكاناً للكنز.. وهناك لمح آثاراً على الصخور تؤدي إلى أخدود صغير يكفي اتساعه وعمقه لمرور زورق صغير واخفائه عن العيون، فرجح أن يكون الكردينال سبادا قد أحضر كنزه إلى هذا المكان في زورق أخفاه في الأخدود ثم دفن كنزه في نهايته، عند صخرة ضخمة تغطى تلك النهاية!

وتمشيا مع هذه النظرية راح يحفر بفأسه مجرى صغيراً بين الصخرة العليا والتي تحتها، ثم ملأه بالبارود وأشعل طرف الفتيل وانسحب.. فلما حدث الانفجار رفع الصخرة العليا عن قاعدتها وحطم

السفلى تحطيماً، وفر من شقوقها آلاف الحشرات، يتبعها ثعبان ضخم كان كأنه شيطان الكنز الحارس، لكنه لم يلبث أن تسلل إلى الظلمات واختفى!

واقترب دانتيس من الصخرة العليا، التي مالت نحو البحر.. ثم وضع جذر شجرة زيتون في أحد الشقوق وبذل كل قواه وأجهد كل أعصاب جسمه كي يزحزح الحجر.. وأخيراً تداعت الصخرة، وانزلقت تتدحرج من قمة إلى قمة حتى اختفت آخر الأمر في جوف البحر..!

وكانت البقعة التي تغطيها الصخرة مستديرة الشكل، تكشف عن حلقة حديدية مثبتة في بلاطة مربعة، فوضع «عتلة» شجرة الزيتون في الحلقة وجذبها بكل قوته، فانكشفت البلاطة عن سلم يؤدي إلى كهف عميق تحت الأرض!

وهبط دانتيس السلم، لكنه بدلا من أن يجد ظلمة في قاع الكهف وجد ضوءاً خافتاً يتسرب من شقوق الصخور.. وتذكر أن وصية الكردينال حددت مكان الكنز بأنه في «أبعد زاوية من الفتحة الثانية».. وإذن فعليه أن يبحث الآن عن الكهف الثاني. وخطر له أن هذا الكهف المنشود لا بد أن يوجد في مكان أبعد من شاطىء الجزيرة، فراح يدق الصخور و ينصت إلى رنينها علّه يسمع رنيناً أجوف ينم عن وجود الكهف.. وأخيراً خيل إليه أنه يسمع الرنين المطلوب، فعاد يدق الصخور ليتأكد من الأمر، فتهشمت طبقة خارجية تكسو الصخرة، وكشفت بذلك عن حجر أبيض كبير!

لقد غطيت فتحة الكهف بالأحجار ثم كسيت بتلك الطبقة وطليت بحيث تشبه ما حولها من الجرانيت!

والفأس التي كانت ثقيلة في البداية صارت الآن في خفة الريشة..

وحين تم لدانتيس الكشف عن الفتحة هبط إلى الكهف الثاني، فاذا هو أعمق وأحلك ظلمة من الأول!.. وإلى يسار الفتحة كانت توجد



« وحين استرد طالب أنفاسه ، عكف على احصاء محتويات كنزه »

زاوية عميقة مظلمة، قدر الشاب من منظرها أن الكهف لو وجد فلن يوجد إلا فيها.. ومن ثم تقدم نحوها وأهوى بفأسه على أرضها..!.

وعند الضربة الخامسة أو السادسة اصطدمت الفأس بسطح ذي رنين يشبه الحديد، وسرعان ما رأى الشاب خزانة من خشب البلوط مثبتة بأحزمة من الفولاذ.. وفي وسط غطائها لوحة فضية حفر عليها شعار أسرة سبادا!

وأمسك الصندوق من مقبضه وحاول أن يرفعه، فلم يفلح.. فحول همه إلى محاولة فتحه.. وبعد جهود جبارة بمختلف الوسائل لانت الأقفال وانكسرت. ولكنه أصيب بدوار، فأغمض عينيه وفتحهما، ليستوثق من أنه لا يحلم!

كان الصندوق مقسماً إلى ثلاثة أقسام: لمعت في الأول منها أكوام من العملة الذهبية البراقة.. وكان القسم الثاني يحوي كتلا من الذهب غير المصقول.. أما الثالث فقد اغترف الشاب منه بيديه حفنات من الجواهر الخلابة، من ماس ولؤلؤ و ياقوت..!

وحين استرد هدوءه وأطربته فرحته عكف على احصاء محتويات كنزه: كانت هناك ألف سبيكة من الذهب الخالص، زنة كل منها من رطلين إلى ثلاثة.. ثم خمسة وعشرون ألف ريال، يساوي كل منها نحو ثمانين فرنكاً من العملة المتداولة، ويحمل رسم البابا الكسندر السادس وأسلافه.. ثم أحصى عشرين حفنة من الماس واللآلىء النادرة.

وكان النهار قد أوشك أن ينقضي، فخشى دانتيس أن يفاجئه أحد في الكهف فغادره وبندقيته في يده.. وفي تلك الليلة تناول عشاؤه بضع قطع من البسكويت وكأساً من الروم، ثم اختلس من الليل بضع ساعات نامها فوق فوهة الكهف، نوماً متقطعاً تتخلله مشاعر مختلطة من الفرح والفزع!

ولما أشرق النهار التالي بعد أن انتظره دانتيس بفارغ الصبر، هبط إلى مكان الكنز حيث ملأ جيوبه بالجواهر ثم أغلق الصندوق باحكام وأعاد كل شيء إلى مظهره الأول سواء في داخل الكهف أو خارجه، بحيث لم يترك وراءه أثراً ينم عن اقتراب إنسان من المكان!.. ثم ربض على الشاطىء في انتظار وصول قافلة من البحارة!

وفي اليوم السادس عاد المهربون إلى الجزيرة، فلم يكد دانتيس يلمح شراع السفينة «اميليا الشابة» حتى خف إلى الشاطىء ليستقبل اخوانه.. وحرص على أن يقول لهم أن إصابته لم تشف تماماً، وإن خفت حدة آلامه!.. وفيما هو يثرثر معهم فهم من حديثهم أنهم يخشون أن تلتقي بهم سفينة من سفن حراس السواحل علموا أنها غادرت ميناء طولون لمطاردتهم!.. ولم تضيع الجماعة وقتاً في الانتظار فأقلع الجميع بسفينتهم إلى ميناء «ليحهورن».. وهناك عرج دانتيس على جوهري يهودي باع له أربعة من الأحجار الصغيرة التي يحملها في جيوبه بعشرين ألف فرنك. ثم عاد يقول لزملائه البحارة المهربين أن ميراثاً قد آل إليه من عم له، وأنه سوف يتركهم نهائياً.. ثم قدم لصديق له منهم كان قد أحبه ـ و يدعى «جاكوبو» ـ سفينة شراعية جديدة على سبيل الهدية، علاوة على مبلغ من المال يعينه على استئجار بحارة لحسابه والاستقلال بالعمل، مقابل شرط واحد اشترطه دانتيس عليه، هو أن يذهب من فوره إلى مارسيليا و يستقصي أنباء شيخ مسن يدعى «لويس دانتيس» يقطن حارة «دي ميان»، وفتاة شابة تدعى «مرسيديس» من قاطنات قرية «كاتالان».

وفي صباح اليوم التالي أبحر جاكوبو بسفينته إلى مارسيليا، على أن يعود فيلتقى بولي نعمته في جزيرة مونت كريستو، حيث يقدم له تقريراً عن المهمة التي أداها في مارسيليا!

وبعد أن ودع دانتيس زملاءه «المهربين» ووزع عليهم الهبات والهدايا لمناسبة الارث الذي آل إليه، رحل وحده إلى جنوة.. وعند

وصوله كان أحد أساطين بناء السفن يجري تجربة «يخت» جديد صنعه لثري انجليزي، مقابل مبلغ أربعين ألف جنيه. فعرض عليه دانتيس أن يبيعه إياه بثمن يزيد عشرين ألفاً أخرى!.. ووجد الصائغ أن في وسعه بناء يخت آخر مماثل قبل موعد وصول الثري الانجليزي لتسلمه، فقبل ما عرضه عليه الشاب.. وعندئذ قاده دانتيس إلى منزل تاجر يهودي، حيث خلا هو إلى التاجر فترة باعه خلالها عدداً من الجواهر التي يحملها في جيوبه، ثم خرج فدفع إلى صاحب اليخت الثمن المتفق عليه.. وطلب أن يصنع خزانة سرية توضع في مخبأ غير منظور في كابينته الخاصة باليخت.. فأتم الصانع المهمة المطلوبة منه في اليوم التالي..

وبعد ساعتين أبحر دانتيس باليخت من ميناء جنوة، بين حشد من المتفرجين الذين تجمهروا ليروا النبيل «الاسباني» الذي يقود يخته بنفسه!.. وعند غروب شمس اليوم التالي رسا دانتيس بيخته في أحد خلجان الجزيرة، ولم يكد يشرق النهار حتى عكف على نقل كنزه الضخم إلى المخبأ السري الذي في كابينته، ففرغ من مهمته قبيل الغروب!

ثم قضى دانتيس أسبوعاً آخر يتجول بيخته حول الجزيرة ــ في انتظار عودة جاكوبو ــ ويدرس معالمها بعناية الفارس البارع الذي يدرس مؤهلات جواده الجديد الذي يعده للاشتراك في سباق حاسم!

وفي اليوم التالي لمح سفينة جاكوبو الصغيرة تدنو من الجزيرة، وحين رسا بها صاحبها إلى جوار يخت مولاه حمل إليه نتيجة أبحاثه بصدد المهمتين اللتين عهد بهما إليه.. وكانت نتيجة غير سارة: «فان «لويس دانتيس» قد مات.. أما مرسيديس فاختفت ولا يعلم أحد عنها شيئاً!

أصغى الشاب إلى هذه الأنباء بهدوء متكلف، ثم قفز نحو الشاطىء في خفة معربا عن رغبته في أن يترك وحده بعض الوقت.. وحين عاد

بعد بضع ساعات أمر اثنين من بحارة جاكوبو بأعداد اليخت للمسير، في اتجاه مرسيليا!.. لقد كان دانتيس متأهباً لنبأ موت أبيه، أما اختفاء خطيبته الغامض فلم يدر كيف يعلله!

ولم يكن في وسعه أن يزود أحداً من رجاله بتعليمات واضحة بصدد المستقبل، بغير أن يفشي سره. إلى أن بعض المعلومات التي كان يريد الوصول إليها لم تكن تصلح بطبيعتها لأن يستقصيها سواه. وكانت المرأة قد دلته عند وصوله إلى ليجهورن على أن هيئته قد تغيرت بحيث لم يعد في إمكان أحد أن يعرف حقيقة شخصيته!.. هذا إلى كونه يملك الآن من وسائل التنكر ما يكفل اتخاذه أي إسم وأية شخصية يقع اختياره عليها!

وهكذا رسا بيخته ذات صباح جميل في ميناء مارسيليا، تتبعه سفينة جاكوبو الصغيرة.. واختار لرسوه الرصيف المواجه لذلك الذي حمل منه إلى القارب الذي أقله إلى سجن «قصر إيف» الرهيب، في تلك الليلة الليلاء التي لا تنسى!

وبرغم أنه كان يرتجف رجفة غير إرادية كلما وقع بصره على أحد رجال الشرطة، فانه تذرع بقدرته على تمالك نفسه، وكان قد تعود ذلك أثناء معاشرته للراهب العلامة فاريا في السجن، فلم يبد عليه أدنى انفعال وهو يقدم إلى الشرطة الميناء جواز سفره الانجليزي الذي حصل عليه من ليجهورن.. وبفضل ذلك الجواز الأجنبي الذي يحترم في فرنسا أكثر من جوازات البلاد نفسها، استطاع أن ينزل إلى البر بلا صعوبة تذكر!

وكان أول من لفت نظره على أرصفة الميناء بحار من مرؤوسيه القدامى في السفينة «فرعون»، فخطر له أن يمتحن تنكره بالتحدث إلى الرجل.. فاتجه إليه وراح يلقي عليه بعض الأسئلة المختلفة وهو يرقب تعبير وجهه بعناية.. لكن البحار لم تصدر عنه كلمة أو نظرة تلقي في الروع أنه قد رأى محدثه يوماً من الأيام من قبل!.. وفي النهاية منحه دانتيس قطعة من النقود جزاء له على شهامته وانصرف!

وكانت كل خطوة يخطوها تقبض قلبه وتثير في نفسه عواطف وذكريات شتى.. فلما بلغ نهاية شارع «دي نواي» ولمح حارة «دي ميان» اهتزت ركبتاه لفرط تأثره حتى كاد يسقط تحت عجلات عربة عابرة!.. وأخيراً بلغ المنزل المتواضع الذي كان يقطنه أبوه!

كان المسكن الصغير الذي عاش فيه الأب يقع في الطابق الخامس، حيث يسكن الآن شاب وعروس لم يمض على زواجهما أسبوع. ولم يكن قد بقي من مظهر المسكن القديم غير جدرانه.. فالتمس الزائر رؤية المسكن، وحين لحظ الزوجان عليه علائم التأثر العميق آثرا أن يحترما قداسة حزنه فلم يسألاه عن سببه وملابساته وتركاه يتأمل المكان كما يشاء.. فلما انسحب آخر الأمر من موطن ذكرياته رافقاه حتى الباب ووجها إليه الدعوة كي يعود لزيارة المكان في الوقت الذي يروقه!

وأثناء نزول دانتيس السلم توقف في الطابق الرابع ليستفسر عما إذا كان «الترزي» المدعو «كادروس» ما يزال يقطن مسكنه القديم؟.. فقيل له أن الرجل قد أصيب بضائقة جعلته يهجر مهنته، وإنه الآن يدير حانة صغيرة على الطريق بين «بيلجارد» و«بوكير».

ثم استفسر عن مالك المنزل، فلما عرفه وكل مسجلا للعقود فابتاعه له من مالكه باسم «اللورد و يلمور» ــ وهو الاسم المثبت في جواز سفره الانجليزي ــ مقابل مبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك، وهو مبلغ يساوي عشرة أضعاف قيمته الحقيقية.. ولو طلب المالك نصف مليون من الفرنكات ثمناً له لحصل عليها!.. وفي اليوم نفسه أخطر مسجل العقود قاطني الطابق الخامس أن المالك الجديد يعرض عليهما أن يختارا أي مسكن آخر في المنزل بالايجار الزهيد نفسه و يخليا مسكنهما الصغير!

وقد أثارت هذه القصة الغريبة اهتمام أهل الحي وفضولهم، فراحوا يعللونها بشتى التعليلات، لكن تعليلا واحداً منها لم يقترب من الحقيقة الخفية أو يحوم حولها!

جزاء الوفاء

لعل الذي طافوا بجنوب فرنسا، مروا خلال الطريق بين مدينة «بوكير» وقرية «بيلجارد» بحانة صغيرة يؤرجح الهواء على واجهتها لافتتها المصنوعة من الصفيح.. وقد أشرف على إدارتها خلال السنوات السبع الأخيرة رجل وزوجته، يعاونهما اثنان من الخدم. أما الرجل فكان صاحبنا «الترزي» القديم «جاسبار كادروس».. وأما زوجته فكانت أمرأة شاحبة يبدو عليها المرض، لا تكاد تبرح مخدعها في الطابق الثاني، بينما يشرف زوجها على استقبال الرواد وإجابة طلباتهم!

وفي ذات يوم رأى كادروس رجلا يرتدي مسوح رجال الدين السوداء و يمتطي جواداً، مقبلا من جهة بيلجارد، وعلى رأسه قبعة مثلثة الأركان.. فلما ترجل أمام باب الحانة استقبله صاحبها مرحباً، فألقى عليه القس نظرة طويلة فاحصة، ثم قال يسأله في لهجة إيطالية قوية: «أنت مسيو كادروس على ما أعتقد؟.. أما أنا فأدعى القس «بوزوني».. هل عرفت في سنة ١٨١٤، أو ١٨١٥، بحاراً شاباً يدعى دانتيس؟»؛

فأجابه كادروس وقد احمر وجهه تحت نظرة القس الصافية الهادئة: «دانتيس؟ نعم.. لقد كان ادمون دانتيس من أعز أصدقائي!».

ثم استطرد بعد حين قائلا: «أخبرني إذا سمحت أيها الأب: ماذا جرى لادمون التعس؟ هل تعرفه؟ هل هو حي مطلق السراح؟ هل هو موسر وسعيد؟».

ـ بل إنه مات سجيناً تعساً محطم القلب فريسة لليأس المرير..!

عندئذ غامت على وجه كادروس سحابة من الشحوب الشبيه بشحوب الموتى، ثم أدار وجهه بعيداً، ورآه القس يمسح الدموع عن عينيه بطرف المنديل الأحمر المربوط حول رأسه.. ثم أردف: «هل كنت تعرف الفتى المسكين إذن؟».

ـ لقد استدعيت لأراه على فراش الموت، كي أدخل على نفسه عزاء الدين. ولقد أقسم دانتيس في حضرة الموت أنه يجهل كل شيء عن سبب سجنه!

فغمغم كادروس: «هذا صحيح.. آه يا سيدي، إن الفتى المسكين قد ذكر كل الحقيقة!».

فقال القس: «ولهذا السبب ناشدني أن أكشف الستار عن لغز لم يستطع يوماً أن يحله، وأن أنقي ذكراه من أية وصمة أو شائبة تكون قد علقت بها!».

وهنا استراحت نظرات القس على وجه كادروس الذي تمشت فيه كآبة وانقباض شديدان.. ثم استطرد قائلا: «لقد عرف دانتيس في سجنه ثرياً انجليزياً أطلق سراحه في عهد الامبراطورية الثانية، كان يملك ماسة كبيرة القيمة أهداها يوم خروجه من السجن إلى دانتيس، إعراباً عن امتنانه وشكره له على العناية والعطف اللذين أظهرهما الشاب نحوه وهو يمرضه أثناء اصابته بمرض خطير في سجنه. وتقدر الماسة بنحو خمسين ألف فرنك!».

وأخرج القس من جيبه علبة صغيرة فتحها فبهرت الماسة التي في داخلها عيني كادروس، الذي سأله ملهوفاً: «ولكن كيف وصلت الماسة إلى حيازتك يا سيدي؟ هل أوصى لك ادمون بها؟».

فقال القس: «كلا!.. بل جعلني منفذاً لوصيته، وقد ذكر لي أنه كان يوماً له أربعة أصدقاء أوفياء، إلى جانب العذراء التي كان خطيبها.

وقد شعر بأنهم جميعاً تألموا لغيابه أشد الألم.. أحدهم يدعى كادروس..».

وهنا ارتجف صاحب الحانة لذكر اسمه.. بينما استطرد محدثه يروي على لسان دانتيس، متظاهراً بأنه لا يلحظ ارتباك كادروس: «..والصديق الثاني يدعى دانجلر.. والثالث كان برغم أنه غريمه يحبه أخلص الحب، وكان اسمه فرناند.. أما خطيبته فاسمها مرسيديس. وقد كلفني أن أذهب إلى مرسيليا لأبيع الماسة وأقسم ثمنها إلى خمسة أنصبة متساوية، ثم أعطي كلا من هؤلاء الأصدقاء الأوفياء نصيباً منها. فهم وحدهم الذين أحبوه على الأرض».

ـ ولكنك لم تذكر غير أربعة أسماء.. فمن الخامس؟

ـ الخامس هو والد دانتيس، وقد علمت أنه توفي!

ـ هذا صحيح يا سيدي!.. إن الشيخ المسكين قد مات!

وكادت تخنقه غصته وانفعاله.. بينما استطرد الأب بوزوني قائلا وهو يبذل جهداً كبيراً كي يخفي تأثره: «لقد وقفت من أبحاثي في مارسيليا على معلومات كثيرة، لكني عجزت عن الاهتداء إلى من يصف لي كيف كانت نهاية والد دانتيس، فهل تعرف شيئاً في هذا الصدد؟».

ـ ومن يعرف إذا لم أعرف أنا؟.. لقد كنت أعيش في المسكن الذي يقع أسفل مسكن الأب مباشرة. لقد مات لويس دانتيس بعد نحو عام من اختفاء ولده، والناس يقولون إنه مات من الحزن، أما أنا الذي رأيته في ساعات احتضاره فأقول لك إنه مات من الجوع!

فهتف القس وهو يهب من مقعده: «مات من الجوع؟.. إن شر الحيوانات لا تموت هذه الميتة البشعة! هذا مستحيل، مستحيل..!».

فاستطرد كادروس مستدركاً: «لست أعني أن الجميع قد هجروه أو نبذوه تماماً، فان مرسيديس ومسيو موريل كانا يعطفان عليه.. ولكن لسبب ما ظل الشيخ التعس يكن كراهية شديدة للمدعو «فرناند»..

الذي ذكرت اسمه منذ حين بين أصدقاء دانتيس الأوفياء».

ـ أولم يكن كذلك في الواقع؟

ـ وهل يمكن أن يكون الرجل وفياً لغريمه الذي ينافسه على الحظوة بالمرأة التي يحبها و يريدها لنفسه؟.. مسكين ادمون، لقد خدعوه بقسوة، لكنه لحسن الحظ لم يعرف، وإلا لتعذر عليه وهو على فراش الموت أن يصفح عن أعدائه.. والواقع أن هبة ادمون المسكين لا يستحقها الخونة أمثال فرناند ودانجلر، اللذين وشيا به باعتباره من عملاء نابليون.. لقد كنت حاضراً ذلك الحادث.

ـ وهل لم تحتج أو تعترض على هذا الأثم؟.. إنك إذا كنت لم تفعل فقد كنت شريكاً فيه!

ـ سيدي، إنهما قد سقياني من الخمر ما أفقدني كل وعي تقريباً، بحيث لم أعد أشعر بما يجري حولي إلا شعوراً مبهماً غير واضح. وقد قلت كل ما كان في استطاعة من في مثل حالتي تلك أن يقول، لكن اللعينين أكدا لي أنهما يمزحان ولا ضرر من مزاحهما البتة.. ومع ذلك فان وخز الضمير يطاردني ليل نهار!

ـ لقد أشرت إلى شخص يدعى مسيو موريل، فمن يكون؟

إنه صاحب السفينة فرعون ورئيس دانتيس، وقد توسط من أجله عشرين مرة. وحين عاد الأمبراطور إلى عرشه طالب بالافراج عن السجين بحماسة جعلت القوم يضطهدونه فيما بعد باعتباره من أنصار بونابرت!.. وقد ذهب لزيارة والد دانتيس عشر مرات، ودعاه كي يزوره في بيته. وقبل وفاة الرجل بيوم أو اثنين ترك مسيو موريل كيس نقوده فوق رف المدفأة، فدفعت منه ديون الميت وأنفق على دفنه بالمظهر اللائق. وهكذا مات والد ادمون، كما عاش، دون أن يؤذى أحداً. وما زلت أحتفظ بكيس النقود المذكور. إنه كبير، ومصنوع من الحرير الأحمر!

ـ وهل ما يزال مسيو موريل على قيد الحياة؟ لا ريب أنه الآن ثري سعيد؟

فابتسم كادروس في مرارة وأجاب: «إنه في أسوأ حال. يكاد يشرف على الافلاس والدمار، بعد خمس وعشرين سنة من العمل المتواصل الذي أكسبه أحسن سمعة في دوائر مارسيليا التجارية. لقد فقد الرجل خمس سفن في مدى عامين، وخسر أموالا طائلة بسبب إفلاس ثلاثة من البيوت المالية الكبرى. والآن بات أمله الوحيد معلقاً على وصول السفينة «فرعون» سالمة، وهي السفينة التي كانت دانتيس المسكين ربانها، و ينتظر وصولها من جزر الهند حاملة شحنة من النيلة ودود القرمز.. فاذا غرقت هذه السفينة مثل سابقاتها فعلى الرجل السلام!.. إن له زوجة كانت تصرفاتها برغم كل الظروف أشبه بتصرفات الملائكة.. كما أن له ابنة كانت على وشك الزواج من الشاب الذي تحبه لكن أسرته سوف تحول الآن دون زواجه من ابنة تاجر مفلس.. وله أيضاً ابن يدعى مكسمليان يعمل ملازماً في الجيش.. وهكذا ترى أن كل ذلك يزيد في أحزانه وأشجانه، فلو كان وحيداً في الدنيا لأفرغ رصاصة في رأسه واستراح..!».

ـ هذا فظيع!

ـ وهكذا تكافىء السماء الفضيلة يا سيدي!. فأنا الذي لم أفعل يوماً شراً ـ عدا الذي ذكرت له قصته ـ أعاني ضائقة شديدة، وزوجتي تموت من الحمى أمام عيني، وأنا عاجز عن أن أصنع شيئاً من أجلها. إني سوف أموت جوعاً، كما مات والد دانتيس، بينما يتمرغ دانجلر وفرناند في الثراء الفاحش.. لقد جلبت عليهما أفعالهما الحظ الحسن، بينما أصاب الشقاء والبؤس الرجال الشرفاء..!.

ـ وماذا صار من أمر دانجلر، المتآمر الأول كما تقول؟

ـ لقد غادر مارسيليا على أثر اعتقال دانتيس إلى حيث عين ـ بوساطة موريل الذي جهل كل شيء عن جريمته ـ صرافاً في بنك

اسباني. وخلال الحرب من اسبانيا استخدم في قوميسيرية الجيش الفرنسي حيث جمع ثروة. ثم ضارب بها في البورصة فضاعفها ثلاث مرات أو أربع مرات. وقد تزوج أولا ابنة صاحب البنك الذي كان يعمل فيه، لكنها ماتت، فتزوج للمرة الثانية من أرملة تدعى مدام دي نارجون، هي ابنة مسيو دي سرفيو كبير أمناء الملك. إنه الآن مليونير وقد أنعموا عليه بلقب بارون، فصار يدعى «البارون دانجلر».. وهو يقطن قصراً فاخراً في شارع «مون بلون»، به حظيرة تضم عشرة جياد، وستة من الخدم، أما ملايينه التي في البنك فلست أعرف عددها..!

ـ وفرناند؟

ـ إن له قصة مشابهة.. فعل أثر عودة الامبراطور جند للجيش، كما جندت أنا أيضاً، لكني كنت أكبر منه سناً، ومتزوجاً حديثاً من زوجتي المسكينة، فأرسلت إلى الساحل.. أما هو فقد انضم إلى الجيش العامل ومضى مع فرقته إلى الجبهة حيث اشترك في معركة «ليني». وفي الليلة التالية للمعركة عهد إليه في الوقوف (ديدباناً) أمام باب جنرال كان على اتصال سري بالاعداء.. وفي تلك الليلة كان على الجنرال أن يذهب إلى خطوط الانجليز، فعرض على فرناند أن يرافقه.. فوافق هذا، وهجر مركز حراسته وتبع الجنرال!.. ولو بقي نابليون على عرشه لحوكم فرناند أمام مجلس عسكري، لكن بلاط الملك كافأه على فعلته!.. وهكذا عاد إلى فرنسا برتبة صف ضابط، وبفضل عطف الجنرال ووساطته رقي إلى يوزباشي في سنة ١٨٢٣، خلال الحرب الاسبانية.. أي في الوقت الذي قامر فيه دانجلر بمضارباته الأولى. ولما كان فرناند من أصل اسباني فقد أرسل إلى اسبانيا ليعمل على تهدئة شعور مواطنيه، وهناك التقى بدانجلر وتوطدت بينهما الصلات.. وما لبث أن ظفر بمعاونة الملكيين في العاصمة وأدى من الخدمات خلال تلك الحملة القصيرة ما نتجت عنه ترقيته عقب معركة (تروكاديرو) إلى رتبة أميرالاي ومنحه لقب (كونت) ووسام الضابط في فرقة الشرف (اللجيون دونور)!

فغمغم القس: «يا لها من أقدار!».

واستطرد كادروس: «هذا صحيح، ولكن اسمع البقية: فعند انتهاء الحرب الاسبانية تأثر مستقبل فرناند ومصالحه بالسلام الطو يل الذي بدا أنه يسود أورو با، ولم يعكره غير اقدام اليونان على شن الحرب ضد تركيا، من أجل استقلالها.. وعندئذ استدارت العيون جميعاً نحو أثينا، حتى صار شعار العصر كله الاشفاق على اليونان وتعضيدهم.. ومن هنا سمحت حكومة فرنسا بتأليف جيش من المتطوعين لنصرة جارتها، دون أن تتولى ذلك التعضيد رسمياً.. فسعى فرناند حتى حصل على إذن بالسفر للخدمة في اليونان، وكان اسمه ما يزال مدرجاً في سجلات الجيش. و بعد فترة من الزمن أعلن أن الكونت دي مورسرف ــ وكان هذا هو الاسم الذي صار يعرف به ــ قد التحق بخدمة الوالي الألباني «علي باشا» في درجة «مشير عام».. وقد قتل علي باشا، لكنه قبل أن يموت رأى أن يكافىء فرناند على خدماته بأن يترك له مبلغاً من المال عاد به هذا إلى فرنسا، حيث رقي إلى رتبة لواء.. وهو الآن يملك قصراً فاخراً ــ رقم ٢٧ شارع «دي هيلدر» بباريس!

فتح القس فمه دهشة، وتردد لحظة، ثم بذل جهداً كبيراً كي يتمالك نفسه، وأخيراً قال: «ومرسيديس؟ ماذا كان مصيرها؟ يقولون أنها اختفت!».

فأجاب كادروس: «مرسيديس اليوم من أعظم نساء باريس!.. لقد أصيبت عقب اعتقال دانتيس بنوبة من اليأس البالغ كادت تقضي عليها.. وكم استعطفت المحقق مسيو دي فيللفور، ولكن بلا جدوى!.. وأخيراً جعلت همها أن تعنى بالشيخ المهدم والد أدمون. وفي غمرة يأسها أصابها مكروه جديد، هو رحيل فرناند إلى الحرب. ولم تكن قد عرفت بدور فرناند في اعتقال حبيبها ادمون، والجريمة التي اقترفها نحوه، فلما ذهب بدوره أحست أنها فقدت أخاها بعد خطيبها، و بقيت وحيدة!.. وانقضت ثلاثة أشهر بدون أن تتلقى أي نبأ من ادمون، أو

من فرناند، فصار البكاء ملاذها الوحيد.. لم تبق لها غير رفقة شيخ مهدم يقتله اليأس قتلا بطيئاً!.. وذات مساء سمعت خطوات أدركت أنها خطوات فرناند، وظهر هذا أمامها بسترة صف الضابط. لم يكن هو حبيبها المنشود، لكنها أحست كأن جانباً من حياتها الماضية قد رد إليها. لقد ملك آخر قلبها، لكن هذا الآخر غائب، مختف، ولعله قد مات!.. ولدى هذه الفكرة الأخيرة كانت مرسيديس تنخرط في البكاء، وتضم يديها في لوعة وضراعة.. لكن الخاطر الذي طالما استبشعته من قبل، حين كان يقترحه عليها أحد، فرض نفسه الآن من تلقاء ذاته على ذهنها.. وفي الوقت عينه كان دانتيس الشيخ لا يفتأ يقول لها: «مات حبيبنا ادمون.. وإلا لعاد إلينا!».. ولكن لو عاش الشيخ لما صارت مرسيديس زوجة لآخر، غير ابنه.. فانه لم يكن ليكف عن تأنيبها وتحذيرها من الخيانة.. وقد أدرك فرناند ذلك، فلما سمع بوفاة الرجل عاد.. وكان قد صار ملازماً. وفي الزيارة الأولى لم يتفوه بحرف لمرسيديس عن حبه إياها.. وفي الثانية ذكرها بأنه يحبها. فطلبت إليه أن ينتظر ستة أشهر أخرى تحزن خلالها على ادمون وترتدي السواد..!».

فقال الأب بوزوني وهو يبتسم ابتسامة مريرة:

ـ إذن فقد أخلصت لحبيبها ثمانية عشر شهراً في الجملة. ففيم يطمع أكثر من ذلك أعظم العشاق ولهاً وهياماً؟» ثم ردد مغمغماً كلمات الشاعر الانجليزي: (يا ضعف الارادة.. يا وهن العزيمة.. إن اسمك: المرأة!).

واستطرد كادروس: «وبعد ستة أشهر من ذلك التاريخ تم الزفاف في كنيسة «أكول»!».

فغمغم الكاهن: «الكنيسة ذاتها التي كانت سيعقد فيها زواجها من ادمون!.. لم يطرأ غير تغيير في شخص الزوج!».

واستأنف كادروس حديثه: «وهكذا تزوجت مرسيديس، لكنها كادت

يغمى عليها وهي تمر أمام حانة (لاريزرف)، حيث احتفل قبل عام ونصف عام بخطبتها إلى ذاك الذي لو أمعنت النظر الآن في أعماق قلبها لأدركت أنها ما تزال تحبه!.. وفي حمى فزع فرناند من عودة دانتيس، حرص على الابتعاد بنفسه وبزوجته عن المدينة.. فلم تنقض عشرة أيام على الزواج حتى غادرا مرسيليا!».

ــ وهل لم تر مرسيديس بعد ذلك؟

ــ بل لقد رأيتها، خلال الحرب الاسبانية، في «بربجنان» حيث كان فرناند قد تركها تعنى بتربية ولدها.

ــ ابنها..؟

ــ نعم.. «ألبرت» الصغير!

ــ ولكن، كي تستطيع تثقيف ابنها لا بد أن تكون هي على قدر من الثقافة. وقد فهمت من ادمون أنها ابنة صياد بسيط.. جميلة ولكن ليست متعلمة!

ــ إنها من الذكاء بحيث كيفت نفسها حسب مركز زوجها وثروته، فتعلمت الرسم، والموسيقى، وكل شيء. وأعتقد أنها فعلت ذلك كي تشغل نفسها عن التفكير في حبها القديم وتنسى الماضي. لقد ملأت رأسها كي تخفف العبء الذي يثقل قلبها. وهي الآن غارقة في الثراء والمجد والألقاب.. لكنها فيما أعتقد غير سعيدة!

ــ وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟

ــ عندما اشتدت بي الضائقة فكرت في أن ألجأ إلى أصدقائي القدامى، لعلهم يساعدونني.. فذهبت إلى دانجلر، لكنه أبى أن يستقبلني.. ثم ذهبت إلى فرناند، فأرسل إلي مائة فرنك مع خادمه.. وفيما أنا خارج سقط عند قدمي كيس نقود يحوي خمسة وعشرين جنيها، فرفعت رأسي نحو مصدره بسرعة، وإذ ذاك رأيت مرسيديس في النافذة، لكنها سارعت إلى إغلاقها!

ـ ومسيو دي فيلفور؟ هل تعلم ما صار إليه، ونصيبه في المأساة التي حلت بادمون؟

ـ كلا، كل ما أعلمه عنه إنه بعد اعتقال ادمون بزمن وجيز تزوج من الآنسة دي سان ميران ثم غادرا مرسيليا على الأثر. ولا شك أنه كان محظوظاً مثل الآخرين.. وهكذا لم يبق فقيراً تعساً منسياً سواي!

ـ أنت مخطىء يا صديقي.. قد يبدو أحياناً كأن الله ينسى أن ينصف المظلوم فترة من الوقت، لكن عدالته تمهل ولا تهمل، وإليك الدليل!

وأخرج القس من جيبه العلبة التي تحوى الماسة الثمينة وأعطاها للرجل قائلا: «إليك يا صديقي، خذ هذه الماسة، فهي لك!».

فصاح كادروس: «ماذا؟ لي أنا وحدي؟! بربك لا تسخر مني يا سيدي!».

ـ كان المفروض أن يقسم ثمن هذه الماسة بين أصدقاء ادمون جميعاً.. ولكن لم يكن له في الحقيقة غير صديق واحد، واذن فلا داعي لتجزئتها. خذ الماسة إذن وبعها، إنها تساوي خمسين ألف فرنك، وأرجو أن يكفي هذا المبلغ لانقاذك من ضائقتك!

فقال كادروس وهو يمد احدى يديه في خجل ليأخذ الماسة، و يجفف العرق المتصبب على جبينه باليد الأخرى:

ـ سيدي.. لا تسخر من سعادة إنسان أو شقائه!

ـ إني أعلم ما هي السعادة وكيف يكون الشقاء، وحاشاي أن أسخر من عواطف الناس ومشاعرهم.. خذ الماسة إذن.. واعطني في مقابلها كيس النقود الحريري الأحمر الذي تركه مسيو موريل فوق رف مدفأة دانتيس الأب والذي تقول إنه في حيازتك!

غادة الكرنفال

في أواخر سنة ١٨٣٧ وصل إلى روما لحضور «كرنفالها» الكبير شابان ينتميان إلى مجتمعات باريس الرفيعة، هما: الفيكونت «ألبرت دي مورسيرف» والبارون «فرانز ديبيناي».

وكان الجناح الذي أقاما به في الفندق مؤلفاً من حجرتين صغيرتين وردهة أما بقية الطابق الفسيح الذي به هذا الجناح فكان يشغله ثري من نبلاء صقلية أو مالطة يدعى «الكونت دي مونت كريستو».

وأوصى الشابان السنيور «باستريني» صاحب الفندق أن يبحث لهما عن عربة تكون تحت تصرفهما أثناء احتفالات الكرنفال.. لكنه عجز عن العثور على العربة المطلوبة، من فرط ازدحام المدينة بالسائحين.. وفي اليوم التالي عاد إليهما الرجل يقول: «إن الكونت دي مونت كريستو يعرض عليكما مكاناً في عربته ومقعدين في نافذته بقصر (روسبولي) كي تشاهدا منها الاحتفال».

ثم قادهما إلى جناح الكونت ودق الجرس، فظهر خادم دعاهما إلى الدخول وأجلسهما في حجرة استقبال فاخرة حافلة بالرياش والطنافس والسجاد التركي الثمين والأرائك المريحة والمقاعد الوثيرة والوسائد والستائر الثمينة وظهر خلفها الكونت صاحب كل هذا الثراء.. وكان برغم شحوبه ذا وجه وسيم وعينين نفاذتين براقتين، وأنف مستقيم، وأسنان بيضاء ناصعة كاللؤلؤ، يعلوها شارب أسود فاحم يزيدها جمالا.. أما قامته فكانت متوسطة الطول متناسبة التكوين.. وكانت يداه وقدماه صغيرتين شأن أهل الجنوب.

وابتدر الكونت دي مونت كريستو ضيفيه قائلا: «أرجو أن تغفرا لي دعوتكما إلى زيارتي أولا، فقد خشيت أن أزعجكما فيما لو سبقت إلى زيارتكما!».

فقال الكونت وهو يشير إلى الشابين كي يجلسا: «الواقع أن ذلك الغبي (باستريني) هو المسؤول عند عدم مبادرتي إلى ذلك قبل هذه الساعة، فهو لم يشر بكلمة إلى جيرتكما قبل اليوم، في حين أنه يعلم مبلغ ترحيبي - في وحدتي وعزلتي - بانتهاز كل فرصة للتعارف مع جيراني.. والآن أرجو أن تشرفاني بتناول الافطار معي».

فقال ألبرت: «إننا يا سيدي الكونت لنشكر لك كرمك وأريحيتك ونرجو ألا نكون قد أثقلنا عليك».

فقال: «كلا!.. بل إنكما سوف تدخلان السرور على قلبي.. ولعلي أتشرف يوماً بزيارتكما في باريس!».

ثم تطور الحديث بعد حين إلى حكم باعدام اثنين من زعماء العصابات كان مزمعاً تنفيذه في ذلك اليوم. فأفاض الكونت في الحديث عن هذا الموضوع، حتى قال له فرانز: «يلوح لي يا سيدي الكونت أنك درست مختلف العقوبات وأساليب التعذيب عند كل شعوب العالم!».

فأجاب الكونت في برود: «هناك وسائل معدودة منها لم أشاهدها!».

فسأله فرانز: «هل تجد متعة في مشاهدة هذه المناظر البشعة؟».

فأجاب الكونت بقوله: «كنت أول الأمر أرتاع لمشاهدتها، ثم صرت أشعر إزاءها بعدم المبالاة. وأخيراً صار الفضول هو الذي يدفعني إلى مشاهدتها».

وهنا غمغم ألبرت قائلا: «الفضول؟.. يا لها من كلمة رهيبة!».

فالتفت إليه الكونت وقال له: «إن شغلنا الشاغل في الحياة هو

الموت، فليس عجيباً أن يشتد بنا الفضول لدراسة مختلف الوسائل التي تؤدي إلى فصل الروح عن الجسد، أو التي يقابل بها مختلف الناس انتقالهم من الحياة إلى الموت، ومن الوجود إلى العدم تبعاً لاختلاف شخصياتهم وطباعهم وعادات بلادهم المختلفة!.. واني لأؤكد لك أنك كلما رأيت عدداً كبيراً من الناس يموتون، سهل عليك أن تواجه الموت.. وفي اعتقادي أن الموت فد يكون عذاباً، لكنه ليس تكفيراً!».

فقال فرانزا مأخوذاً: «لست أفهم ما تعنيه تماماً يا سيدي الكونت، فهل لك أن توضحه لي؟.. إنك تثير فضولي إلى أقصى حد!».

فأجابه الكونت وقد بدت في وجهه إمارات الاستياء العميق: «سأوضح لك الأمر بمثل أضربه لك.. فافرض أن إنساناً قضى على حياة أبيك أو أمك أو خطيبتك أو أي عزيز لديك، أليس فقده يترك جرحاً لا يندمل في صدرك، ولا يزال حزنك عليه يؤرقك و يعذبك ما حييت؟.. إن القصاص الذي يأخذ به المجتمع ذلك القاتل بفصل رأسه عن جسده بالمقصلة في ثوان معدودات، لا يمكن أن ينسيك العذاب النفسي الذي تقاسيه بسبب الجريمة التي اقترفها. في حين أنه هو لا يقاسي مثل ذلك العذاب إلا بعض الوقت، ريثما يؤخذ إلى المقصلة حيث يتألم جسمه بضع ثوان، ثم ينتهي كل شيء بالنسبة له!».

فقال فرانز: «نعم.. إن العدالة البشرية لا تكفي لتعزيتنا، وكل ما تفعله أنها تسفك دماً مقابل دم.. لكن لا ينبغي لنا أن نطالبها بما ليس في طاقتها!».

ـ دعني أعرض عليك مثلا آخر، هنا ألوف من حالات التعذيب يقاسي فيها المرء أشنع الو يلات بلا علم المجتمع، أو من غير أن يكفل له المجتمع الوسائل الكافية للانتقام!.. وهناك جرائم لا يعاقب عليها المجتمع، في حين أن عقابها يجب أن يكون أشد من (خوازيق) الأتراك، و(بريمة) الفرس، ووشم الهنود بالنار!.. ألا تقع هذه الجرائم كل يوم؟».

ـ نعم، إنها تقع بلا ريب.. ولعل المبارزة ما شرعت إلا لتكون وسيلة يلجأ إليها المعتدى عليه للانتقام من المعتدي!

ـ كلا يا سيدي!.. ليس هو الانتقام المنشود.. فأنا ألجأ إلى المبارزة في الأمور التافهة، وغالباً لا ينجو خصمي من الموت بفضل براعتي في أنواع الرياضة البدنية، وتعودي الاستهانة بالأخطار.. أما الانتقام بمعنى التعذيب البطيء العميق المستمر، فمن رأيي أن يتبع المرء فيه القاعدة القديمة (العين بالعين، والسن بالسن)، كما يقول الشرقيون أساتذتنا في كل شيء، أولئك المحظوظون الذين رسموا لأنفسهم حياة من الأحلام وجنة من الحقائق!

ـ لكنك تبعاً لهذه النظرية التي تجعل نفسك بها قاضياً وجلاداً في قضيتك الشخصية، يكون من العسير أن تنجو دائماً من الوقوع تحت طائلة القانون.. فالكراهية العمياء والحقد يحملانك على أن تركب الصعب من الأمور، ومن يسكب الانتقام في كؤوس الآخرين يعرض نفسه لخطر الشرب من كأس أمر!

ـ هذا صحيح إذا كان المرء فقيراً وغير مجرب، لا غنياً حاذقاً.. ثم إن أسوأ ما قد يصيبه لن يخرج عن حد العقاب السريع السهل الذي تحدثنا عنه، والذي اتخذته الثورة الفرنسية الرحيمة بدلا من التمزيق تحت سنابك الجياد أو العجلات. وما أتفه هذا العقاب ما دام الشخص قد انتقم لنفسه؟!

وفي هذه اللحظة سمعت دقات الأجراس في كنيسة «مونتي سيتوريو» ولم تكن تدق إلا عند وفاة البابا أو افتتاح الكرنفال، فقال الكونت: «لقد بدأ الاحتفال، و يحسن أن نسارع إلى ارتداء ثياب التنكر الخاصة به». ثم أشار إلى أزياء كثيرة أنيقة من حرير الساتان كانت متراكمة على بعض المقاعد، ليختارا من بينها ما يشاءان.

وحين فرغ ثلاثتهم من هذه المهمة، هبطوا إلى حيث كانت العربة في انتظارهم.. فدرجت بهم في شوارع المدينة الحافلة بمواكب المهرجين

وعربات الزهور وجموع المتنكرين في أغرب الأزياء والأقنعة، وكلهم يصخبون و يتصايحون و يتقاذفون كرات الورق الملون والبيض المحشو بالدقيق!

وحين بلغت العربة ثاني منعطف في الطريق، أشار الكونت إلى الحوذي بالوقوف. واستأذن ضيفيه في الانصراف قائلا: «حين تملان الاشتراك في التمثيل وتبغيان أن تصيرا متفرجين يمكنكما الحضور إلى حيث حجزت لكما مكاناً في نوافذي.. وفي انتظار ذلك أترك العربة والحوذي والخدم رهن إشارتكما!».

فشكر فرانز الكونت على كرمه واهتمامه، بينما انشغل ألبرت بالقاء الزهر والورق الملون على عربة ملأى بالمتنكرين في زي فلاحي الرومان.. ثم تابعت عربته والعربة الأخرى سيرهما في اتجاهين متضادين، فتنهد الشاب متحسراً وقال لصديقه: «إنك لم تر يا فرانز ركاب تلك العربة، لست أشك في أنهم جميعاً من النساء الفاتنات المتنكرات في زي الفلاحين! فعسى ألا ينتهي الكرنفال قبل أن تتاح لنا فرصة لقائهن مرة أخرى!».

ولم يخب أمله، فقد التقت العربتان بعد قليل في أحد الشوارع، فألقت إحدى الفتيات المتنكرات باقة من زهر البنفسج على عربتهما، فتلقفها ألبرت بيديه.. وعندئذ وعد فرانز صديقه الماجن بأن يقنع هو في اليوم التالي بمشاهدة الكرنفال من النافذة و يترك له العربة يتابع بها مغازلاته!

وفي المساء تلقى فرانز رسالة مكتوبة بخط ألبرت، فقرأها مرتين بامعان قبل أن يفهم مدلولها، وكان نصها:

«يا صديقي العزيز..

في اللحظة التي تصل فيها هذه الرسالة إليك، أرجو أن تتكرم بأخذ دفتر الشيكات الذي يخصني من درج المكتب الصغير الموجود في حجرة نومي، ثم تضيف إلى محتو ياته كل ما تملك من مال.. وتهرع إلى بنك

(تورلونيا) لتسحب منه المبلغين فوراً وتسلمهما لحامل هذا الخطاب.. وإني أعتمد عليك في إمدادي بلا إبطاء بالمال المطلوب لسبب غاية في الأهمية!».

وكانت هناك تحت هذه الأسطر، ملاحظة بخط ألبرت نفسه يقول فيها: «لقد آمنت الآن بالعصابات الايطالية!».

كما كانت هناك عبارة أخرى كتبت تحت هذه الملاحظة بخط مغاير، ونصها:

«إذا لم يصل إلي مبلغ أربعة آلاف ليرة قبل الساعة السادسة صباحاً، فلن تحل الساعة السابعة حتى يكون الفيكونت ألبرت قد فارق الحياة!»

«لو يجي فامبا»

وقال فرانز محدثاً نفسه: «إذن فقد وقع ألبرت في يد عصابة من اللصوص الخطرين!.. وليس في الوقت متسع يمكن إضاعته». ثم نهض مسرعاً ففتح درج المكتب الصغير حيث وجد دفتر شيكات ألبرت، وكان الحساب المقيد فيه يدل على أن كل ما بقي له من رصيده في البنك ثلاثة آلاف ليرة.

ولم يكن لفرانز حساب في البنك لأنه كان يعيش في فلورنسا وقد حضر إلى روما ليقضي سبعة أيام أو ثمانية، ولم يبق من المبلغ الذي أحضره معه إلا حوالي ثلاثمائة ليرة، بينما كان عليه لكي يتم قيمة الفدية المطلوبة أن يحصل على ألف ليرة.

وهنا تذكر فرانز صديقهما الكونت دي مونت كريستو، فهرع إليه.. ووجده في حجرة صغيرة تحف بها الأرائك الوثيرة، فابتدره الكونت سائلا: «أية ريح طيبة حملتك إلى هنا في هذه الساعة؟ هل أتيت لتتناول العشاء معي؟ إن هذا يكون كرماً منك!».

فأجاب الشاب: «بل جئت لأتحدث إليك في مسألة خطيرة».

ثم قدم له خطاب ألبرت، فلما فرغ الكونت من قراءته قال يسأل فرانز: «أرى أن أذهب بنفسي للبحث عن «فامبا» هذا، فهل ترافقني؟.. إنها ليلة رائعة الطقس تحلو فيها النزهة خارج المدينة.. أين الرجل الذي أحضر الرسالة؟».

فقال فرانز: «إنه ينتظر في الشارع!».

فمضى الكونت إلى النافذة وأرسل من فمه صفيراً خاصاً غريباً، وسرعان ما برز من جوار الحائط رجل يرتدي عباءة وخرج إلى عرض الطريق، فقال له الكونت بلهجة من يخاطب خادمه: «إصعد».. فأطاعه الرسول فوراً في خضوع، ولم تمض خمس ثوان حتى كان يطرق باب الحجرة.. فقال له الكونت: «أهذا أنت يا ببينو؟».

لكن ببينو بدلا من أن يجيبه ارتمى على ركبتيه عند قدمي الكونت وتناول يديه يغمرهما بالقبلات!.. فقال له الكونت:
ـ آه، إذن فأنت لم تنسى أنني أنقذت حياتك؟.. هذا غريب، مع أنه قد انقضى على الحادث أسبوع!

وتمتم الرجل في خضوع: «لن أنسى ذلك ما حييت يا صاحب الفخامة!».

ثم سأله الكونت: «كيف وقع الفيكونت ألبرت في يد لو يجي؟».

فأجاب: «إن عربة السيد الفرنسي مرت أكثر من مرة بمحاذاة العربة التي كانت فيها تيريزا عشيقة الزعيم!.. وقد طلب منها الفرنسي موعداً لمقابلته، فضربت له الموعد في المكان الذي حملته عربته إليه حيث كانت تنتظره ومعها لو يجي في سراديب مقابر سانت سباستيان!».

فالتفت الكونت إلى فرانز وقال له: «إنها قصة شائقة، ولو لم تجدني هنا لكلفت المغامرة صديقك ثمناً غالياً.. أما الآن فلتثق بأن الانزعاج

هو الخسارة الوحيدة التي ستصيب ألبرت.. هل تعرف مكان سراديب سانت سباستيان؟

فقال فرانز: «لم أزرها قط، لكني كنت أعتزم ذلك منذ زمن!».

فقال الكونت: «حسناً، ها هي ذي الفرصة قد واتتك، ومن العسير أن تتاح لك فرصة أفضل».

ثم دق الكونت الجرس طالباً إعداد عربته. وبعد دقائق كانت تجتاز به وضيفه طريق «إبيان» القديم.. وقبل أن تصل إلى حمامات «كاركالا» توقفت وهبط منها الرجلان وسارا حتى بلغا منفذاً ضيقاً يقع خلف أجمة صغيرة تحيط بها الصخور. ومرق «بيبينو» من ذلك المنفذ أولا ثم تبعه الآخران.. وبعد أن سار الثلاثة خطوات اتسع الممر وسرعان ما وجدوا أنفسهم أمام سراديب عدة. فهبطوا سرداباً منها لا يكاد البصر يجد نهايته، وتتخلله أشعة من الضوء، ومنه تقدموا نحو حجرة كبيرة مربعة يضيئها مصباح و يجلس فيها رجل يقرأ وظهره إلى المدخل الذي وقف فيه الزائرون يتأملون المنظر.

كان الرجل هو «لو يجي فامبا» زعيم العصابة، وحوله عشرون لصاً وقاطع طريق أو أكثر جلسوا مسندين ظهورهم إلى مقاعد حجرية، وأمام كل منهم غدارته، في متناول يده.. فلما دخل الكونت نهض فامبا مسرعاً، وفي لحظة كانت عشرون غدارة مشهرة في وجه الزائرين!

فقال الكونت بصوت هادئ صاف، دون أن تختلج عضلة في وجهه: «يبدو أيها العزيز أنك تستقبل الأصدقاء بقدر كبير من الحفاوة!».

فصاح الزعيم برجاله وهو يشير بيده إشارة آمرة: «اخفضوا أسلحتكم» بينما خلع باليد الأخرى قبعته احتراماً، ثم استدار نحو ضيفه قائلا: «عفوك يا صاحب الفخامة، كنت أبعد ما أكون عن توقع شرف زيارة منك، بحيث لم أعرفك أول الأمر!».

فأجابه الكونت: «يبدو أن ذاكرتك ضعيفة في كل شيء يا فامبا، بل

إنك لا تنسى وجوه الناس فقط، ولكن تنسى الشروط التي تتفق معهم عليها أيضاً!.. ألم نتفق على أن تحترم فضلا عن شخصي جميع أصدقائي.. إذن لم اختطفت الليلة الفيكونت ألبرت دي مورسيرف، وأحضرته إلى هنا مع إنه من أصدقائي!؟

فقال زعيم العصابة وهو يستدير نحو رجاله الذين تراجعوا جميعاً أمام نظرته: «لماذا لم تذكروا لي ذلك أيها الأوغاد؟ لقد جعلتموني أحنث بعهدي مع رجل مثل الكونت يملك أرواحنا جميعاً في قبضته!».

ثم استطرد «فامبا» مشيراً نحو ثغرة يحرسها واحد من رجاله: «السجين يوجد هناك، وسأذهب بنفسي لأخبره بأنه مطلق السراح. تفضل بالدخول يا صاحب الفخامة!».

وصعد الكونت وفرانز في أثر الزعيم بضع درجات، ثم فتح فامبا أحد الأبواب.. فاذا ألبرت متدثراً بمعطف كان أحد اللصوص قد أعاره إياه، وقد رقد في ركن من الحجرة المظلمة.. فلمس فامبا كتفه قائلا: «أنت مطلق السراح يا سيدي».

وإذ ذاك نظر ألبرت حوله فرأى فرانز، وهتف به: «أهذا أنت يا عزيزي فرانز؟ لقد أظهرت المحنة صدق محبتك وصداقتك!».

فأجابه فرانز: «كلا! لست أنا صاحب الفضل، بل هو جارنا الكونت دي مونت كريستو!».

فقال ألبرت في مرح: «أوه يا عزيزي الكونت، هذا عطف كبير منك، وأرجو أن تعتبرني مديناً لك مدى الحياة.. إن والدي الكونت دي موسيروف ـ وإن كان من أصل اسباني ـ له نفوذ كبير في بلاط فرنسا ومدريد.. وإني أبادر فأضع ـ بلا تردد ـ خدماتي وخدمات كل من تعد حياتيَ غالية في نظرهم، تحت تصرفك!».

فأجاب الكونت: «يا مسيو دي مورسيروف، إني أقبل ما تعرضه علي بمثل روح الاخلاص القلبي التي أملته.. بل أني سأخطو خطوة إيجابية

فأصارحك بأني كنت قد اعتزمت من قبل أن أسألك معروفاً عظيماً!».

فقال ألبرت في حماسة: «إني رهن إشارتك يا سيدي».

ومضى الكونت فقال: «إني غريب عن باريس تماماً، فهي مدينة لم أرها قط، ولما كنت لا أعرف فيها أحداً يقدمني لمجتمعاتها الرفيعة و يتيح لي أن أقف على مفاتنها وعجائبها فاني أرى فيما تعرضه علي ما يذلل جميع الصعوبات، فهل أستطيع أن أعتمد عليك كي تفتح لي عند وصولي إلى باريس أبواب عالم الطبقات الرفيعة فيها.. إنني لا أعرف عن شخصياتها أكثر مما أعرف عن أهل الصين؟».

ـ إنه ليسرني أن أؤدي لك هذه الخدمة مرحباً، وسوف يعينني على القيام بها خطاب التوصية الذي أحمله من أبي إلى أصدقائه الكبار في باريس!

ـ وأنا سأمنحك مهلة قدرها ثلاثة أشهر ألحق بك في نهايتها، فمن عادتي أن أحسب دائماً حساب شتى العراقيل والمصاعب.. فهل نتفق على موعد محدد، من حيث اليوم والساعة؟.. إنني لمضرب الأمثال في دقة مواعيدي!».

ومد الكونت يده نحو تقو يم على الحائط قائلا: «اليوم ٢١ فبراير». ثم أخرج ساعته من جيبه وأردف قائلا: «والساعة الآن العاشرة والنصف.. فعدني أن تذكر ذلك، وأن تنتظرني في مثل هذه الساعة من صباح يوم ٢١ مايو القادم..!».

ـ حسناً يا سيدي!.. وسوف تجد الافطار معداً لك..

ـ أين تقطن؟

ـ في المنزل رقم ٢٧ بشارع دي هلدر!

فأومأ الكونت موافقاً وقال: «لا تنس ما اتفقنا عليه.. يوم ٢١ مايو، الساعة العاشرة والنصف صباحاً، شارع دي هيلدر رقم ٢٧!».

في باريس

أعد ألبرت كل شيء في منزله بشارع هلدار بباريس للحفاوة بضيفه الكبير الكونت دي مونت كريستو، وفي اليوم المحدد للقائهما هناك جلس مع بعض خاصته يحدثهم عن الكونت المنتظر وصوله وكيف أنقذه من نتيجة مغامرته في إيطاليا، فقال له أحدهم و يدعى «لوسيان دبراي»:

ـ يخيل إلي أنك تمزح معنا باختراع هذه القصة، بل أكاد أعتقد ألا وجود لزعيم العصابة الايطالي الذي تحدثنا عنه، ولا للكونت دي مونت كريستو الذي تنتظره!

وقال ضيف آخر يدعى بوشان: «خير لك يا عزيزي ألبرت أن تعترف بأنك رأيت هذا كله في الحلم، أو تدعنا نتناول طعام الافطار في هدوء وسلام!».

ولم يسع ألبرت إلا أن يسكت إزاء سخرية أصدقائه، وبقى صابراً على مضض حتى حان موعد وصول الكونت، وأخذت ساعة الحائط تدق ايذانا بانتصاف الساعة الحادية عشرة، وقلبه يدق معها في عنف، بينما العرق البارد يتصبب من جبينه خشية أن يزداد خجله إن لم يصل الكونت في موعده!

وما انتهت الساعة من دقاتها، حتى ظهر أحد الخدم بالباب وقال لألبرت: «سيدي.. إن الكونت دي مونت كريستو قد وصل!».

ودل الاجفال غير الارادي الذي بدا من جميع الحاضرين على شدة تأثرهم بهذا النبأ. ولم يستطع ألبرت نفسه قمع انفعاله، ولا سيما أنه

لم يكن قد سمع صوت عربة تقف أمام الباب، أو خطوات تخفق في الردهة.. ولكنه فوجيء بفتح الباب دون جلبة ثم بظهور الكونت على عتبته مرتدياً زياً يجمع بين الأناقة والبساطة، وقد بدا في سن لا تزيد على الخامسة والثلاثين!

على أنه سرعان ما خف لاستقباله مرحباً ثم قال:

ـ يا عزيري الكونت.. لقد أعلنت نبأ زيارتك لهؤلاء الأصدقاء بعد أن دعوتهم طبقاً لما اتفقنا عليه، وها أنذا أقدمهم لفخامتك: هذا هو الكونت دي شاتو رينو النبيل ذو الأصل العريق، الذي اشترك أسلافه في مؤتمر المائدة المستديرة!.. وهذا مسيو لوسيان دبراي السكرتير الخاص لوزير الداخلية.. ومسيو بوشان الصحفي الذي يصدر صحيفة تسبب الذعر للحكومة الفرنسية، وإن كان الأرجح أنك لم تسمع باسمه في إيطاليا ـ برغم شهرته الوطنية ـ نظراً إلى كون صحيفته ممنوعة من الدخول إل إيطاليا.. وهذا مسيو مكسمليان موريل قبطان السفينة (سباهي)..».

وكان الكونت يحيي كلا منهم بانحناءة يشوبها طابع الرسمية الود، لكنه ما كاد يسمع الاسم الأخير حتى تقدم خطوة إلى الأمام وقال لألبرت وقد اصطبغت وجنتاه الشاحبتان بحمرة خفيفة:

ـ يا عزيزي الفيكونت، إنك ذكرت لي في روما شيئاً عن مشروع زواج.. فهل لي أن أهنئك؟

فقال ألبرت: «إن الأمر ما زال في حيز التفكير!».

وهنا تدخل دبراي قائلا: «هل أفهم من ذلك أن الأمر قد تقرر؟».

فأجاب ألبرت: «كلا! ولكن والدي شديد الرغبة في تنفيذ الفكرة، وأرجو أن أقدمك في القريب، إن لم يكن لزوجتي فعلى الأقل لخطيبتي الآنسة أوجيني دانجلر».

فهتف الكونت دي مونت كريستو: «أوجيني دانجلر؟ أهي ابنة البارون دانجلر؟».

فقال ألبرت: «نعم يا سيدي، وهو بارون من الطراز الحديث!».

فقال الكونت: «حسبه أنه أدى للدولة خدمات استحق عليها هذا الانعام!».

وقال بوشان: «الواقع أنه أدى للدولة خدمات جليلة، فهو برغم كونه من حزب الأحرار، فاوض في عقد قرض كبير للملك شارل العاشر في سنة ١٨٢٩، ولهذا منحه لقب البارون ووسام فارس في فرقة الشرف».

فقال الكونت دي مونت كريستو: «إني لا أعرفه، وإن كان يغلب على ظني أني سوف أتعرف إليه قريباً، فان لي معه حساباً جارياً لدى ثلاثة من البيوت المالية: أحدها في لندن والثاني في فينا، والثالث في روما!».

ثم واصل ألبرت كلامه فقال: «على أي حال وقبل كل شيء ينبغي أن نجد مسكناً في عاصمتنا الكبرى يلائم ضيفها العزيز الجديد الكونت دي مونت كريستو».

فقال الكونت: «شكراً لك يا سيدي.. إنني منذ استقر رأيي على الحضور إلى هنا، أرسلت خادمي الخاص لكي يبتاع لي منزلا مناسباً في باريس و يؤثثه، ولا بد أنه قد فرغ من هذه المهمة الآن!».

فقال بوشان: «إذن فالخادم الخاص لصاحب الفخامة يعرف باريس جيداً؟».

فأجاب الكونت: «نعم، إنه أميني النوبي الصموت «علي»، وهو يعرف باريس كما يعرف ذوقي ومطالبي.. وكان يعلم أنني سأصل اليوم في الساعة العاشرة، فانتظرني منذ التاسعة عند حاجز «فونتنبلو» حيث أعطاني هذه الورقة التي تحوي عنوان مسكني الجديد!».

فقال بوشان: «إذن فلنقنع بأن نؤدي للكونت الخدمات التي في مقدورنا.. و يسرني بوصفي صحفياً أن أفتح لفخامته أبواب جميع المسارح».

فشكره الكونت وقال: «إن لدى سكرتيري تعليمات بأن يحجز لي مقصورة في كل مسرح!».

وهنا سأله دبراي: «هل سكرتير الكونت نوبي أيضاً؟».

فأجاب: «كلا! بل هو كورسيكي، يدعى مسيو برتوشيو، وقد كان جندياً ومهرباً، بل كان في الواقع كل شيء.. ولست واثقاً من أنه لن يحتك بسلطات البوليس يوماً بسبب طعنة خنجر أو ما يشبهها من الحوادث التافهة في نظره!».

وهنا قال شاتو رينو مخاطباً الكونت: «إذن.. ما دام عندك المسكن، والخادم والسكرتير، فلا ينقصك غير الخليلة!».

فابتسم الكونت وقال: «الواقع أنه عندي من هي خير من الخليلة.. عندي الجارية الخاضعة!. إنكم تحصلون على خليلاتكم من الأوبرا ودور اللهو المختلفة. أما أنا فقد حصلت على صاحبتي من القسطنطينية.. وهي تكلفني نفقات أكثر، لكني لا أرى بأساً في ذلك!».

فقال له دبراي ضاحكاً: «لا تنس يا سيدي أننا في بلد الحرية، وعلى هذا فان جاريتك هذه لا بد أن تغدو حرة في اللحظة التي تطأ فيها قدماها أرض فرنسا!».

فقال له الكونت: «من أين لها أن تعرف ذلك وهي لا تتكلم بغير لغتها؟!».

فقال بوشان: «أظن أننا سنراها على كل حال، ولكن هل فخامتك تقتني الجواري..؟».

وابتسم الكونت مرة أخرى وقال: «كلا!.. لست على هذه الدرجة من التوحش، بل إن كل واحد حولي له كل الحرية في أن يتركني إذا شاء، وفي استطاعته أن يعيش بعد ذلك في غنى عني وعن أي إنسان آخر.. ولكن جميع من حولي ليس فيهم من يفكر في ذلك بفضل ما يلقون من حسن المعاملة!».

وحين انصرف أصدقاء ألبرت وخلا إلى الكونت، قاده إلى جناحه الخاص الأثير عنده، فمرا من الصالون إلى غرفة النوم، التي كانت نموذجاً للذوق الرفيع والأناقة البسيطة، وكانت فيها لوحة من رسم فنان شهير تشرق على الحجرة من وسط إطارها المذهب.. فلفتت نظر الكونت، واقترب منها في خطوات سريعة ثم وقف أمامها وراح يتأملها في إعجاب!

كانت اللوحة تمثل فتاة حسناء سمراء، ذات عينين مشرقتين لامعتين تظللهما أهداب طويلة، وترتدي ثياب صيادات عشيرة «كاتالان» المؤلفة من خليط من اللونين الأحمر والأسود، وتضع في شعرها دبوساً ذهبياً.. وتتجه بعينيها إلى البحر، وحولها المحيط الأزرق والسماء الصافية. وكان الضوء في الحجرة ضئيلا إلى حد أن ألبرت لم يلحظ الشحوب الذي كسا وجه الكونت، أو الرجفة العصبية التي هزت صدره وكتفيه..!.

وحين تمالك الكونت نفسه قال في صوت هادىء:

ـ أرى أن لك خليلة جذابة جداً يا فيكونت. وهذا الثوب الذي لا شك أنه ثوب الرقص، يناسبها بشكل رائع!

فأجابه ألبرت: «آه يا سيدي، ماكنت لأغفر لك هذا الخطأ لو أنك رأيت صورة أخرى إلى جانبها.. إنك لا تعرف أمي، ولكن ها أنت ذا تراها أمامك.. لقد رسمت لها هذه الصورة منذ حوالي ثماني سنوات، وهذا الزي هو فيما يبدو زي تنكري. على أن الصورة من الاتقان والمشابهة للأصل بحيث يخيل إلي أني أرى فيها أمي حقيقة كما كانت تبدو سنة ١٨٣٠. لقد رسمت لها هذه الصورة أثناء غياب أبي، ولا شك أنها أرادت أن تدبر له مفاجأة سارة.. لكن العجيب في الأمر أن هذه الصورة لم تعجب أبي، ولم تستطع قيمتها الفنية باعتبارها من أعظم لوحات الفنان الذي رسمها أن تتغلب على بغض أبي لها!.. أغفر لي تحدثي في أمر عائلي كهذا، ولكن لما كنت أعتزم أن أقدمك إلى أبي

فاني أذكر لك هذه التفصيلات راجياً ألا تشير إلى هذه الصورة في حديثك معه.. و يخيل إلي أن لهذه اللوحة تأثيراً خبيثاً، فما من مرة تدخل فيها أمي هذه الحجرة إلا وقفت تنظر إليها ملياً ثم انخرطت في البكاء!».

وكان الكونت يصغي إلى مضيفه الشاب في انتباه، بينما استطرد هذا فقال: «الآن وقد رأيت كل تحفي، أرجو أن ترافقني إلى جناح أبي.. لقد كتبت إليه من روما وروويت له قصة اليد التي أسديتها إلي، كما أنبأته بموعد زيارتك هذه.. وفي وسعي أن أقول: إن أبي وأمي يتلهفان شوقاً إلى أن يقدما لك شكرهما وامتنانهما!».

ثم أرسل ألبرت خادمه إلى أبو يه ليخبرهما بقدوم الكونت دي مونت كريستو، ومشيا في أثره حتى وصلا إلى الحجرة المفضية إلى حجرتهما الخاصة، وسرعان ما فتح بابها ووجد الكونت دي مونت كريستو نفسه وجهاً لوجه أمام الكونت دي مورسيرف. وكان هذا في الخامسة والأربعين من عمره وإن بدا في الخمسين على أقل تقدير. كما كان شاربه الأسود وحاجباه يتنافران كل التنافر مع شعر رأسه الأشيب القصير، المقصوص على الطريقة العسكرية.. وكان يرتدي ثياباً بسيطة و يضع في عروة سترته أشرطة النياشين المختلفة التي حصل عليها.

وتقدم الكونت مورسيرف للقاء ضيفه في خطوات متزنة تنم عن الاعتزاز بالنفس.. بينما بقي الكونت دي مونت كريستو في مكانه لا يتحرك، وبدا له كأن قدميه سمرتا في الأرض، وكأن عينيه سمرتا على محيا مضيفه الوقور!

وقال الكونت مورسيرف وهو يحييه مبتسماً:

ــ على الرحب والسعة يا سيدي.. إنك قد أديت لهذا البيت جميلا لن ينساه مدى الحياة، إذ أنقذت حياة وريثه الوحيد!».

ثم قدم لضيفه مقعداً، فتناوله هذا وجلس بحيث يسقط عليه ظل الستائر الكبيرة التي صنعت من القطيفة.. وقرأ على قسمات وجه

مضيفه قصة أشجان خفية حفرها الزمن مع ما حفر من الغضون والتجاعيد في ذلك الوجه!

ثم صاح ألبرت فجأة: «هذه أمي قد حضرت».

فالتفت الكونت دي مونت كريستو إلى حيث أشار ألبرت، فرأى الكونتيس دي مورسيرف واقفة عند مدخل الصالون، أمام الباب المواجه لذاك الذي دخل منه زوجها. وكانت شاحبة الوجه لا تتحرك.. وحين التفت إليها تركت ساعدها الذي كان يستند إلى مقبض الباب يسقط إلى جانبها!

كانت الكونتيس قد دخلت الحجرة قبل ذلك بدون أن يلحظها أحد. ولما نهض الكونت وانحنى لها ردت التحية بغير أن تتكلم.. وإذا ذاك قال لها الكونت دي مونت كريستو:

ـ عفواً يا سيدتي، أرجو ألا تكوني مريضة!

وعندئذ أجابته: «لست مريضة، وإنما هو الانفعال الذي تملكني فجأة وأنا أرى لأول مرة الرجل الذي لولا شهامته لكنا الآن غارقين في دموعنا وأشجاننا!».

ثم استطردت قائلة وهي تتقدم نحوه بجلال الملكات: «سيدي.. إني مدينة لك بحياة ابني، ومن أجل هذا أباركك، وأشكرك على كونك قد أتحت لي فرصة الاعراب لك شخصياً عن امتناني القلبي!».

وانحنى الكونت مرة أخرى، وقد بدا وجهه أكثر شحوباً من وجهها، ثم قال لها: «سيدتي، إنك وزوجك تبالغان في تقدير أمر تافه. فان انقاذ رجل، من أجل نفسه ومن أجل شعور أبيه وعاطفة أمه، ليس عملا كبيراً من أعمال الخير وإنما هو واجب عادي بسيط من الواجبات الانسانية!».

فأجابته الكونتيس دي مورسيرف: «إنه لمن حسن حظ ابني يا سيدي أن وجد صديقاً مثلك.. وأنا أشكر الله على ذلك».

ثم رفعت عينيها إلى السماء وقد تجلى فيهما الامتنان الحار، بحيث خيل إلى الكونت أنه لمح فيهما دموعاً تلمع.. وهنا اقترب زوجها منها وقال:

ـ يا سيدتي.. لقد استأذنت الكونت في الانصراف، وأرجو منك أن تفعلي ذلك أيضاً، فان اجتماع المجلس يبدأ في الساعة الثانية، والساعة الآن الثالثة، وعلى أن ألقى خطاباً فيه اليوم!».

فأجابته الكونتيس باللهجة نفسها الدالة على التأثر:
ـ إذهب إذن، وسوف نبذل جهدنا كي ننسى غيابك.

ثم التفت إلى الكونت دي مونت كريستو وقالت له:
ـ ألا تشرفنا بقضاء بقية اليوم معنا؟

فقال: «شكراً لك يا سيدتي على كرمك، وأرجو قبول اعتذاري من عدم استطاعتي قبول هذه الدعوة، فقد جئت إلى هنا رأساً عقب وصولي إلى باريس، وما زلت أجهل كل شيء عن المنزل الذي سأقطنه!».

فقالت: «إذن.. هل تعد بأن تمنحنا شرف حضورك في فرصة قريبة؟».

فأومأ الكونت دي مونت كريستو موافقاً، بينما استطردت الكونتيس فقالت: «إذن.. لن أعوقك يا سيدي!».

وعلى أثر ذلك انصرف الكونت إلى المنزل الذي اختاره له تابعه «علي» في حي «الشانزليزيه»، فلم تكد العربة تقف أمام الباب حتى أقبل «علي» و«برتوشيو» فأطلا من نافذتها، ثم انحنى الأخير لسيده احتراماً وقدم له ذراعه ليعينه على النزول، فقال له الكونت وهو يهبط درجات سلم العربة الثلاث: «أشكرك يا مسيو برتوشيو.. أين مسجل العقود؟».

فقال برتوشيو: «إنه في انتظار سيدي في الصالون الصغير!».

وحين دخل الكونت الصالون ابتدر الرجل سائلا: «أأنت يا سيدي المسجل المكلف ببيع المنزل الريفي الذي أريد شراءه؟.. وهل أعددت عقد البيع؟».

فقال المسجل: «نعم يا سيدي الكونت، وهذا هو العقد». ومد يده بالعقد فتناوله الكونت قائلا: «وأين يقع هذا المنزل؟».

وقد ألقى الكونت هذا السؤال في هدوء ينم عن عدم المبالاة، وهو ينظر إلى كل من برتوشيو والمسجل.. فقال الأخير متعجباً: «ماذا؟».. ألا تعلم سيدي موقع البيت الذي يشتريه؟.. إنه في (أوتوي)..».

وإذ ذاك شحب وجه برتوشيو، بينما وقع الكونت على العقد بسرعة وهو يلقي نظرة على البيانات الخاصة بموقعه وملاكه السابقين، ثم التفت إلى برتوشيو وقال له وهو يشير إلى المسجل:
ـ أعط هذا السيد خمسة وخمسين ألف فرنك».

ولم يكد الكونت يخلو إلى نفسه حتى أخرج من جيبه كتاباً مغلقاً بقفل ففتحه بمفتاح كان يحتفظ به حول رقبته.. وبعد أن قلب محتوياته بضع لحظات توقف أمام ورقة تحوي بعض البيانات، فراح يقارن ما فيها بما ورد في عقد الشراء الموضوع فوق المنضدة، وهو يحدث نفسه: «أوتوي، شارع النافورة رقم ٢٨.. إنه هو بعينه. والآن هل أعتمد على الاعتراف المنتزع بالتعذيب الديني أو الجسماني؟ على أية حال سوف أعرف كل شيء في خلال ساعة!».

وبعد عشرين دقيقة كان الكونت كريستو وبرتوشيو في طريقهما إلى ضاحية «أوتوي»، وازداد انفعال الوكيل وهما يقتربان من القرية. وكان المنزل رقم ٢٨ في أقصى أطرافها، وقد خلع الظلام على المناظر المحيطة به طابع المناظر المسرحية المصنوعة!

وطرق برتوشيو الباب وسرعان ما فتح وأطل الحارس منه فقدم له برتوشيو عقد الشراء قائلا وهو يشير إلى الكونت:

ـ هذا هو سيدك الجديد!

ثم سأل الكونت الحارس: «ماذا كان اسم سيدك القديم؟».

فأجاب: «المركيز دي سانت فيران، وهو شيخ مسن من أتباع أسرة البروبون الملكية، وليس له إلا ابنة واحدة متزوجة من المسيو فيللفور الذي كان وكيلا للنائب العام في (نيم) ثم في (فرساي)..».

فقال الكونت: «يخيل إلي أني سمعت أن هذه الابنة قد ماتت؟».

فقال الحارس: «نعم يا سيدي، لقد ماتت منذ احدى وعشرين سنة.. ومنذ ذلك التاريخ لم نرَ أباها المسكين سوى ثلاث مرات!».

ـ شكراً، شكراً.. أعطني مصباحاً.

وكف الكونت عن استجواب الرجل، بعد أن لمح من نظرة وكيله أنه لن يستطيع المضي في دون تعريض نفسه لخطر إثارة الريب والشكوك في نفس الحارس. ثم قال له الحارس: «هل أرافقك يا سيدي؟».

فقال: «كلا! لا ضرورة لذلك.. سوف يرافقني برتوشيو».

وأطاع الوكيل صامتاً، لكن ارتجاف يده التي تحمل المصباح دل على مدى الجهد الذي كلفته إياه طاعة سيده!.. وقال الكونت وهما يدخلان: «أهذا سلم خاص؟.. هذا بديع.. أضىء لي يا مسيو برتوشيو وتقدمني.. سوف نرى إلى أين يؤدي السلم».

ولم يسع برتوشيو إلا أن ينفذ أمر الكونت، فلما بلغا الحديقة تريث عند الباب الخارجي برهة ثم صاح وهو يضع المصباح عند زاو ية الجدار الداخلي: «لا، لا، يا سيدي.. مستحيل!.. لن أستطيع المضي أكثر من ذلك!».

وهنا سأله الكونت في هدوء: «ماذا تعني؟».

فأجاب قائلا: «ينبغي أن توافقني يا صاحب الفخامة على أن هذا أمر غير طبيعي.. أن تشتري المنزل في أوتوي، وفي شارع النافورة

بالذات، ورقم ٢٨ دون غيره!.. أوه، لم لم أصارحك بكل شيء؟ أنا واثق بأنك ما كنت لتجبرني على الحضور. لقد رجوت أن يكون البيت الذي اشتريته غير هذا الذي وقعت فيه جريمة القتل!».

فصاح الكونت وهو يتوقف عن المسير فجأة: «ماذا؟.. ما هذا الكلام الذي تقوله؟ يا لك من شيطان كورسيكي لعين!.. ألا تفكر إلا في المآسي والخرافات؟.. هيا تناول المصباح ودعنا ندخل الحديقة.. لعلك لست خائفاً من الأشباح وأنت معي؟».

فحمل برتوشيو المصباح وأطاع الأمر.. وحين فتح الباب المفضي إلى الحديقة طالعتهما سماء قاتمة يحاول فيها القمر جاهداً أن ينفذ من خلال السحاب.. فأراد الوكيل أن ينعطف إلى اليسار، لكن صوت الكونت لاحقه قائلا له:

ـ كلا.. كلا!.. ما جدوى السير في الممرات؟.. هذا هو بستان جميل، فلنمض إلى الأمام!.

ثم تقدمه الكونت وواصل السير حتى بلغ أجمة من الاشجار فتوقف.. وإذ ذاك عجز الوكيل عن أن يقمع انفعاله فصاح:

ـ تحرك يا سيدي من مكانك بسرعة، أتوسل إليك: إنك تقف في البقعة التي سقط فيها بالضبط.. وها أنت ذا في وقفتك هذه مرتدياً هذا المعطف الذي يخفي وجهك تذكرني بمسيو دي فيلفور، يا للأثيم!

فقال الكونت بلهجة جعلت الرعدة تسري في أوصال الوكيل المسكين: «إذن فقد خدعني الأب بوزوني حين أرسلك إلي عقب رحلته في انحاء فرنسا سنة ١٨٢٩. مزوداً بخطاب توصية عدد فيه صفاتك الحميدة. حسناً!.. سوف أكتب الآن إلى الأب بوزوني وأحمله مسئولية سوء مسلك مبعوثه.. وسأعرف كل شيء عن جريمة القتل هذه. لكنني أنذرك منذ الآن بأني حين أقيم ببلد ما أخضع لجميع قوانينه، ولست أرغب الآن في أن أضع نفسي تحت رحمة القانون الفرنسي من أجلك!».

فقال برتوشيو في برود: «ولكن يا صاحب الفخامة؟.. ألم يذكر لك الأب بوزوني ما تضمنه اعترافي الكامل له في سجن نيم؟ إن عبئاً جسيماً يجثم فوق ضميري؟».

فقال الكونت: «لقد نكر لي الأب بوزوني أنك تصلح وكيلا مثالياً، وقد حسبت أن جريمتك كانت جريمة سرقة لا غير.. هذا كل ما في الأمر.. والآن لا بد من أن تكاشفني بكل شيء!».

أخذ برتوشيو يروي قصته للكونت بالتفصيل قائلا:

ـ إن القصة تبدأ في سنة ١٨١٥، وكان لي أخ أكبر يعمل في خدمة الأمبراطور. وكان أخي وصديقي في الوقت نفسه، تولى تنشئتي كما لو كنت ابنه. وفي سنة ١٨١٤ تزوج، فلما عاد الأمبراطور من جزيرة ألبا انخرط أخي هذا في الجيش، ثم أصيب بجرح خفيف في معركة (واترلو) وانسحب مع الجيش وراء (اللوار). وذات يوم تلقينا خطاباً منه جاء فيه أن الجيش تفرق شمله وأنه سوف يعود من طريق (نيم)، ثم طلب إلي أن أترك له ما أملك من نقود عند صاحب حانة من حانات (نيم) كانت لي معه معاملات تتصل بالتهريب.. ولما كنت أحب أخي حباً قو ياً فقد رأيت أن أحمل النقود إليه بنفسي، وفي ذلك الوقت حدثت تلك المذابح الشهيرة في جنوب فرنسا، فان ثلاثة من قطاع الطرق هم: ترستايون، وتروفيمي، وجرافان، أخذوا على عاتقهم أن يذبحوا علانية كل من يتوهمون أنه من أتباع بونابرت. فلما دخلت (نيم) خضت في بحار من الدم حتى بلغت منزل صديقي صاحب الحانة، ومنه علمت أن أخي وصل في الليلة السابقة، وأنه ذبح غيلة على باب الدار التي جاء يلتمس ضيافتها!

وبذلت كل ما في وسعي كي أعرف القتلة، لكن أحداً لم يجرؤ على مكاشفتي بأسمائهم، لفرط الذعر الذي أشاعوه في المدينة.. فلم أجد مفراً من أن ألجأ إلى وكيل النائب العام، مسيو دي فيللفور!.. وقد تلقاني يومها قائلا: «لكل ثورة فواجعها، وقد كان أخوك واحداً من

ضحاياها.. إنه سوء حظ والحكومة ليست مدينة لأسرته بشيء.. إن ما حدث أمر طبيعي، يتفق مع قانون الأخذ بالثأر.. فاذهب الآن فوراً وإلا أمرت بطردك!».

نظرت إليه لأرى هل هناك جدوى أو أمل يرجى من متابعة التوسل إليه، لكنه كان رجلا ذا قلب حجري، فدنوت منه، وقلت بصوت خافت: «حسناً!.. إذن دعني أخبرك بشيء واحد: إني سوف أقتلك، وإنني منذ هذه اللحظة أعلن الثأر ضدك، فحاول حماية نفسك بكل وسيلة.. فحين نلتقي في المرة القادمة تكون ساعتك قد حانت!».. وقبل أن يفيق الرجل من ذهوله فتحت الباب وغادرت الحجرة!

ولبثت بعد ذلك ثلاثة أشهر وأنا أراقب مسيو دي فيلفور عن كثب، حتى اكتشفت أنه يذهب خلسة إلى (أوتوي)، فتبعته حتى رأيته يدخل هذا البيت الذي نحن فيه الآن!.. وفي ذات مساء، بينما أنا متربص له وراء هذا السور رأيت امرأة حسناء في نحو التاسعة عشرة من عمرها تتمشى في الحديقة وحدها، وقد ارتدت ثوباً فضفاضاً من الموسلين يشي بأنها تنتظر مولوداً في القريب.. وأدركت أنها تنتظر قدوم دي فيلفور. وبعد لحظات فتح الباب الصغير ودخل منه رجل تلقته المرأة معانقة في لهفة، ثم ابتعدا نحو نهاية الحديقة.. ولم يكن الرجل سوى مسيو دي فيلفور.

وعمدت بعد ذلك إلى استئجار غرفة تطل على الشارع الذي يقع فيه باب الحديقة.. وبعد ثلاثة أيام، حوالي الساعة السابعة مساء، رأيت دي فيلفور مقبلا وقد تدثر بعباءة، ثم فتح الباب الصغير المفضى إلى الحديقة ودخل منه ثم أغلقه وراءه.. فهبطت من غرفتي أعدو إلى حيث اختبأت في أجمة مشرفة على الممر الذي لا بد أن يجتازه غريمي عند انصرافه.. ولم ألبث قليلا حتى سمعت تأوهات وصيحات مكتومة، وحين دقت الساعة معلنة انتصاف الليل فتح باب الحديقة الصغير وخرج منه دي فيللفو، ثم اقترب من الأجمة التي كمنت وراءها، وحين

اطمأن إلى أن أحداً لا يراه انحنى على الأرض فوضع صندوقاً صغيراً كان يخفيه في عباءته، ثم بدأ يحفر حفرة تتسع له.. وحين أتمها وبدأ يسوي الأرض كما كانت انقضضت أنا عليه وأغمدت سكيني في صدره وأنا أهمس له: «أنا جيوفاني برتوشيو.. أقتلك أخذاً بثأر أخي، وآخذ كنزك لأرملته».. وهكذا ترى أن انتقامي جاء أوفى مما كنت أؤمل!.. ولست أدري إذا كان قد سمع ووعى هذه الكلمات أم لا، فقط سقط دون أن يطلق صرخة واحدة.. وبعد لحظة كنت قد أخرجت الصندوق من مخبئه ثم هرعت إلى ضفة النهر حيث فتحته بسكيني عنوة. فاذا في داخله طفل حديث عهد بالولادة مدثر بثوب من التيل الفاخر يطلق صيحات ضعيفة واهنة!

.. وكنت أعلم أن في باريس ملجأ لأمثال هذا اللقيط، فمزقت ثوب الطفل ــ وكان يحمل حرفين يرمزان لاسم ما ــ إلى قسمين، كل قسم يحمل حرف منهما، وتركت أحد القسمين حول جسم الطفل وأخذت القسم الثاني معي.. ثم ضغطت جرس باب الملجأ وأسرعت بالفرار.. وحين وصلت في اليوم التالي إلى (رجليانو) حيث تقطن أرملة أخي (اسانتا) قلت لها: (اطمئني يا أختاه، فلقد انتقمت لأخي).. ثم سردت عليها تفصيلات القصة، فلما انتهيت منها قالت لي: «كان ينبغي أن تحضر معك ذلك الطفل، كي نكون له بدلا من والديه اللذين حرم منهما، ونطلق عليه اسم (بنديتو) ولعل الله كان يباركنا لهذا». فأعطيتها نصف ثوب الطفل كي تسترده إذا صرنا في حال من اليسر تسمح لنا بتربيته!».

وهنا قاطعه الكونت دي مونت كريستو قائلا: «ما هما الحرفان اللذان كانا على الثوب؟».

فقال: «هما حرفا الهاء، والنون تعلوهما شارة لقب البارون!.. وعلى أثر ذلك عدت إلى تجارة التهريب، مدفوعاً بدافعين: الانفاق على الأرملة المسكينة، واغراق ذكريات الماضي التي تطاردني!.. وحين

راجت أحوالنا عدت يوماً من إحدى مغامراتي لأجد الأرملة قد استردت الطفل، وكان قد بلغ الشهر السابع أو الثامن من عمره!

«وكان (بنديتو) طفلا جميلا، ذا عينين واسعتين زرقاوين وشعر ذهبي خفيف، وابتسامة تنم عن شيء من الخبث والدهاء.. وحين كبر صدقت فراستي في خلقه، وطبيعته الشريرة، فلم يبلغ الحادية عشرة حتى صار يعاشر الفتيان الأغرار الذين في الثامنة عشرة أو العشرين، والذين اشتهروا في كورسيكا بشرورهم وفساد خلقهم، حتى لقد صاروا مطاردين من البوليس!..

واستجابة لنصيحتي أبت الأرملة المسكينة أن تذعن لمطالب بنديتو الذي كان يرهقها بطلب النقود كل حين لاشباع ميوله الشريرة.. وذات ليلة أحضر معه إلى البيت اثنين من رفاقه الأنذال وهددوا المرأة بالتعذيب إذا لم تسلمهم ما تملك من نقود، فلما رفضت ساقوها إلى قرب الموقد كي يجبروها على الاعتراف بمكان النقود.. وخلال الصراع امتدت النار إلى ثوبها فاضطروا إلى تركها خوفاً على أنفسهم من الاحتراق..

وفي الصباح التالي استبطأت جارتها، زوجة فاسيليو، ظهورها خارج غرفتها، فاستنجدت بالسلطات التي حطمت الباب.. ووجدت (اسانتا) التعسة ما زالت على قيد الحياة، برغم الحروق الفظيعة التي أصابتها.. فروت لهم قبل موتها حقيقة ما حدث، ووجدت أدراج البيت كلها محطمة ومحتوياتها مبعثرة والنقود كلها مسروقة!

ومنذ ذلك اليوم لم يظهر بنديتو مرة أخرى في (رجليانو).. ولا سمعت أنا بدوري شيئاً عن مصيره أو أحواله!».

وهنا أخفى برتوشيو وجهه بين يديه، بينما رمقه الكونت بنظرة غامضة!

جوادان أصيلان

في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي لوصول الكونت دي مونت كريستو إلى باريس، وقفت بباب منزله عربة فاخرة يجرها جوادان انجليزيان مطهمان وأطل منها شخص يرتدي سترة زرقاء، وصدارا أبيض تتدلى من أحد جيوبه سلسلة ذهبية ثمينة، وبنطلوناً بني اللون.. وكان شعره الأسود يتدلى على جبهته حتى كاد يصل إلى حاجبيه.. وكان الرجل في حوالي الخمسين من عمره وان حرص هو على أن يبدو في الأربعين!.. وانحنى الرجل على حاجز العربة الذي رسمت عليه شارة البارونية، ثم طلب من تابعه أن يسأل: هل الكونت دي مونت كريستو في الداخل أم لا.. فقيل للتابع: «إن صاحب الفخامة لا يستقبل زواراً اليوم!».. وعندئذ قال هذا لمحدثه: «إذن إليك بطاقة سيدي البارون دانجلر فلتحملها إلى الكونت وتخبره أن سيدي برغم عجلته لحضور اجتماع المجلس أبى إلا أن يعرج في طريقه لزيارة الكونت!».

وعندئذ أضطجع البارون دانجلر في عربته إلى الخلف وقال لحوذيه بصوت يمكن سماعه من الشارع: «إلى مجلس النواب».

أما الكونت الذي علم بالزيارة في حينها، فقد راح من وراء خصاص نافذته يرقب البارون بدقة بواسطة منظار مكبر.. ثم دعا إليه وكيله برتوشيو وابتدره قائلا: «إنك ولا شك قد رأيت الجياد التي وقفت أمام الباب بضع دقائق؟ فهل لك أن توضح لي كيف غاب عنك هذا الجوادان اللذان هما في روعة جيادي، حين أوصيتك أن تبتاع لي أحسن جياد باريس؟

فقال برتوشيو: «أؤكد لفخامتك أن الجوادين اللذين تتحدث عنهما لم يكونا معروضين للبيع حين اشتريت لك جيادك!».

فهز الكونت دي مونت كريستو كتفيه وقال: «حسناً!.. إذن فلتعرض على البارون دانجلر ضعف ثمنهما، فان الرجل المالي لا يضيع أبداً فرصة مضاعفة رأس ماله!».

وما كادت عقارب الساعة تشير إلى الساعة الخامسة حتى دق الكونت الجرس ثلاث مرات، ثم هبط السلم إلى باب قصره، فرأى عربته وقد اسرج إليها الجوادان بعينهما اللذان أبدى أعجابه بهما منذ ساعات وهما يجران عربة البارون دانجلر!

وقال الكونت لحوذيه: «إلى دار البارون دانجلر، شارع لاشوسيه دانتان»..

وقال البارون وهو ينحني ترحيباً بزائره:
ـ اسمح لي أن أخبرك يا كونت بأني قد تلقيت خطاب نصح من بنك (تومسون وفرنش) في روما.. لكني أعترف بأني لم أفهم ملوله بالضبط، فهو يعطى (الكونت دي مونت كريستو) حساباً جارياً غير محدد على مؤسستنا!

فسأله الكونت في هدوء: «ماذا يتعذر عليك فهمه في ذلك؟».

فأجاب دانجلر بابتسامة شبه ساخرة: «إن بنك تومسون وفرنش مقتدر مالياً، بينما كلمة (حساب غير محدد) تدل في الأمور المالية على معُنى غامض!».

ـ أتعني أن تومسون وفرنش لا يجعلان حدوداً لالتزاماتهما، بينما التزامات مسيو دانجلر لها حدودها؟!

فقال المالي الكبير وهو ينفخ أوداجه زهواً: «سيدي، إن حدود مواردي لم تكن يوماً موضع شك أو تساؤل».

فقال الكونت في برود: «يبدو لي أني أول من سيضعها هذا الموضع!».

وعندئذ ألقى دانجلر بنفسه في مقعده إلى الوراء، وقال بلهجة الغرور والاعتذاذ بالثراء: «أرجو منك ألا تتردد في الاعراب عن رغباتك.. فعندئذ ستقتنع أن موارد بنك دانجلر ـ مهما تكن محدود ـ لا تزال قديرة على أن تواجه أجسم المطالب.. ولو أردت مليون فرنك!».

فقال الكونت في هدوء: «ما أظنني يا سيدي أن أكتفي بمليون فرنك! ولو أن مبلغاً تافهاً كهذا يكفيني لما كلفت نفسي عناء فتح حساب جار!».

ثم أخرج الكونت حافظته وسحب منها شيكين على الخزانة قيمة كل منهما نصف مليون فرنك، يدفعان لحاملهما.. ففغر دانجلر فاه ولم يحر جواباً، بينما استطرد الكونت: «كن صريحاً إذن واعترف بأنك لا تولي مؤسسة تومسون وفرنش ثقتك الكاملة، فاني قد أفهم هذا.. واحتياطاً لمثل هذا الاحتمال رأيت ـ برغم جهلي بالأمور المالية ـ أن أتخذ بعض الضمانات.. فهذان مثلا خطابان مشابهان تماماً لذلك الذي تلقيته، أحدهما من بنك (أرشتاين وأسكيلس) في فينا، إلى البارون روتشليد.. والآخر من بنك (بارنج) في لندن إلى مسيو لافابيت.. والآن ما عليك يا سيدي إلا أن تنطق بكلمة فأجنبك كل مشقة وحرج بتقديم خطاب ضماني إلى إحدى هاتين المؤسستين..!».

ونهض دانجلر بعد أن استوثق من صحة الوثائق التي يحملها الكونت، وانحنى أمام الكونت كأنما يحيي قوة الذهب الممثلة في شخصه.

فقال الكونت بلهجة ودية لطيفة: «على كل حال أعتقد أن مؤسستك لا يمكن أن يثقل عليها مثل هذه المبالغ التافهة.. وإذن ففي وسعك أن تعطيني بعض المال، أليس كذلك؟.. و يمكننا أن نحدد مبلغاً يكفي

النفقات التقريبية للعام الأول.. وليكن مثلا ستة ملايين من الفرنكات!».

فقال دانجلر وهو يشهق فزعاً: «ستة ملايين؟».

واستطرد الكونت فقال في لهجة تدل على عدم المبالاة: «إذا أحوجني الأمر إلى أكثر من هذا المبلغ ففي وسعي أن أسحب شيكات عليك.. لكن نيتي حالياً تنصرف إلى عدم البقاء في فرنسا أكثر من عام.. وأرجو أن تتكرم فترسل إلي غداً صباحاً نصف مليون فرنك، وسوف أكون في داري حتى الظهر.. وفي حالة خروجي سأترك إيصالا بالمبلغ مع وكيلي!».

فقال دانجلر: «سيكون المبلغ الذي تطلبه عند وكيلك في الساعة العاشرة من صباح غد يا عزيزي الكونت.. والآن هل تسمح لي بأن أقدمك للبارونة دانجلر زوجتي؟ أغفر لي لهفتي يا عزيزي الكونت، فان عميلا مثلك هو في مركز فرد من أفراد الأسرة!».

فأومأ الكونت موافقاً، ثم مشى خلف البارون عبر عدد من الحجرات والأجنحة المفروشة بأفخر الأثاث الذي يوحي بالثراء الفاحش.. حتى بلغا مخدع البارونة، وكانت هذه ما تزال تحتفظ بجمالها الصارخ برغم تجاوزها ريعان الشباب، وقد جلست إلى البيانو، بينما وقف (لوسيان دوبراي) أمام منضدة صغيرة يقلب صفحات (ألبوم) صور.. فقال لها البارون:

ـ اسمحي لي بأن أقدم لك الكونت دي مونت كريستو، لقد أوصاني به توصية حارة وكلائي في روما جميعاً. وسأكتفي بذكر حقيقة واحدة من شأنها أن تجعل نساء باريس بلا استثناء ينشدن التفاته.. وهذه الحقيقة هي أنه قد جاء ليقضي في باريس عاماً، وسينفق خلاله ستة ملايين من الفرنكات، وهذا يعني سلسلة من الحفلات والمراقص والمآدب لا نهاية لها، وأرجو ألا ينسانا الكونت فيها، كما نعتزم نحن أن نذكره في حفلاتنا المتواضعة!

فقالت البارونة تخاطب الكونت: «لقد تخيرت لزيارتك لباريس أسوأ وقت، فهي في الصيف لا تطاق.. والملاهي التي بقيت لنا فيها تنحصر في حفلات السباق.. في حلبتي (شون دي مارس) و (شاتوري).. فهل تعتزم اشراك بعض جيادك في هذا السباق يا كونت؟».

ـ سأفعل ما يفعله غيري في باريس يا سيدتي، إذا أسعدني الحظ فوجدت من يرشدني إلى ضروب اللهو المختلفة!

وفي هذه اللحظة دخلت المخدع وصيفة البارونة المفضلة، واقتربت من سيدتها وهمست في أذنها ببضع عبارات، شحب على أثرها وجه البارونة، فاستدارت نحو زوجها متسائلة في لهفة:

ـ أهذا صحيح؟.. إن وصيفتي أبلغتني أن سائق عربتي فوجىء وهو يهم باعدادها الآن بأن جواديها أبدلا بدون علمه.. فكيف كان ذلك؟!».

فأجابها زوجها: «كوني لطيفة يا سيدتي واصغي إلي».

لكنها انفجرت فيه صائحة: «أوه نعم، سوف أصغي إليك يا سيدي، فاني لفي فضول شديد إلى سماع الايضاح الذي ستتكرم به علي.. إن بين الجياد العشرة التي تحتويها حظائرك جوادين يخصانني، وهما من أحسن الجياد الموجودة في باريس كلها.. وقد وعدت مدام دي فيلفور بأن أعيرها عربتي كي تتنزه بها غداً في غابة بولونيا، فلما ذهب الحوذي ليعد العربة اكتشف الأمر.. ولا شك أنك ضحيت الجوادين بغية الحصول على بضعة آلاف أخرى من الفرنكات الحقيرة. أوه، يا لها من فئة بغيضة، فئة هؤلاء المضاربين المحترفين!».

فقال لها دانجلر: «سيدتي، إن الجوادين لم يكونا بالهدوء الذي يناسبك. واقسم بشرفي أمام الكونت أنني لو لم أتصرف فيهما منذ ساعات لسرني أن أهديهما إليه.. فهما لا يصلحان إلا لشاب في مقتبل العمر، وقد كنت متلهفاً إلى الخلاص منهما!».

فقال الكونت: «شكراً لك يا عزيزي البارون، لكني في الواقع قد ابتعت لعربتي اليوم جوادين رائعين بثمن لا أذكر أنه كبير.. فهل للمسيو دبراي أن يصارحني برأيه فيهما، إنه خبير في مثل هذه الأمور كما سمعت!».

وهنا اقترب دبراي من النافذة، ليطل منها على الجوادين، بينما اقترب دانجلر من زوجته وهمس لها: «لم أستطع أن أصارحك أمام هؤلاء السادة بسبب تصرفي في الجوادين، لقد أرسل شخص مجنون أو أحمق وكيله ليشتريهما بأي ثمن.. فربحت فيهما ستة عشر ألف فرنك!.. لا تغضبي، فسوف أعطيك ربع هذا الربح تفعلين به ما تشائين، كما أني سأعطي أوجيني ألفي فرنك.. أفلم أكن محقاً بعد هذا في بيع الجوادين؟».

وحدجت البارونة زوجها بنظرة احتقار بالغة.. بينما صاح دبراي فجأة: «يا إلهي!.. لا يمكن أن أكون مخطئاً. إن الجوادين اللذين نتحدث عنهما، مسرجان إلى عربة الكونت!».

فهتفت البارونة وهي تهرع نحو النافذة: «أتعني جوادي العزيزين؟». ثم أردفت بعد أن رأتهما: «حقاً إنهما جواداي».

فصاح الكونت متكلفاً الدهشة بدوره: «عجباً!. يا للمصادفة!».

وشرد البارون وهو يهيىء نفسه للمشادة المقبلة بينه وبين زوجته، التي نم حاجباها عن اقتراب العاصفة.. وإذ ذاك تذكر فجأة أنه مرتبط بموعد سابق!.. كما انحنى الكونت دي مونت كريستو مستأذناً في الانصراف وخرج تاركاً دانجلر يواجه تأنيب زوجته..!

وبعد ساعتين تلقت البارونة رسالة رقيقة من الكونت يرجو فيها أن تقبل جواديها العزيزين هدية منه، قائلا: «لست أستطيع أن أتحمل فكرة اندماجي في المجتمع الباريسي الرفيع إذا اشتريت أبهة موكبي بدموع سيدة حسناء!».

... وفي اليوم التالي، حوالي الساعة الثالثة، استدعى الكونت خادمه النوبي «علي» بدقة واحدة للجرس، فلما مثل في حضرته ابتدره بقوله:
ــ لقد طالما حدثتني عن براعتك الخارقة في رمي الأنشوطة. وبعد قليل سوف تمر أمام البيت بأقصى سرعة عربة يجرها الجوادان اللذان رأيتهما في عربتي أمس.. والآن أريدك أن توقف هذين الجوادين أمام بابي ولو كلفك ذلك تعريض حياتك ذاتها للخطر!».

.. فهبط «على» إلى الطريق، ورسم خطاً مستقيماً على الرصيف عند مدخل البيت تماماً، ثم أشار للكونت نحوه فعاد هذا إلى الطابق الثاني من المنزل واثقاً من نجاح خطته!

وحين اقتربت الساعة الخامسة سمع صوت عجلات عربة تقترب مسرعة، ثم ظهرت العربة على الفور يجرها جوادان جامحان حاول الحوذي المذعور أن يحد من سرعتهما المخيفة، ولكن دون جدوى!.. وكانت في داخل العربة أمرأة حسناء وطفل في السابعة أو الثامنة وقد تعانقا بقوة وأعجزهما الرعب حتى عن إطلاق أية صرخة!..

وفجأة أخرج «على» الأنشوطة من جيبه، وألقاها بحيث اقتنصت الساقين الأماميتين للجواد القريب، ثم جذبه وراءه في عنف بالغ عدة خطوات قبل أن يسقط الجواد على «العريش» فيقصمه، وبذلك يعوق الجواد الآخر عن متابعة عدوه!

وانتهز الحوذي هذه الفرصة الفريدة فقفز من فوق مقعده لينجو بنفسه، بينما أمسك على بخياشيم الجواد الثاني وضغطها بقبضته الحديدية حتى خر الجواد بجانب زميله وهو يتلوى من الألم.. وقد حدث ذلك كله في ثوان معدودات، لكنها كانت كافية لأن يخرج أصحاب الدور القريبة وخدمهم ليروا ما هناك، وسرعان ما فتح الحوذي باب العربة وأخرج راكبتها التي كانت إحدى يديها متقلصة على الوسائد بينما يدها الأخرى تضم إلى صدرها ولدها الذي فقد رشده!

وتقدم الكونت دي مونت كريستو فحمل المرأة وابنها إلى صالونه حيث أرقدهما فوق إحدى الأرائك المريحة وهو يقول:
ـ استريحي يا سيدتي، فقد زال كل خطر!

فرفعت المرأة عينيها لدى سماعها هذه الكلمات ورمقته بنظرة أبلغ تعبيراً من أي رجاء، وهي تشير إلى ابنها الذي ما زال غائباً عن الوعي... فقال الكونت وهو يفحص الصبي بعناية:
ـ إني أقدر سبب انزعاجك يا سيدتي، لكنني أؤكد لك أن ليس ثمة داع للقلق، فما إغماؤه إلا نتيجة طبيعية للرعب، وسوف يفيق بعد قليل!».

فسألته: «أأنت واثق من أنك لا تقول ذلك لكي تسكن روعي وتهدىء مخاوفي؟!».

ثم انحنت على ولدها وهتفت به: «يا حبيبي إدوار، تكلم.. تحدث إلى أمك، افتح عينيك الغاليتين وانظر إلي مرة أخرى!».

وعادت فالتفت إلى الكونت وقالت: «سيدي.. أرجو أن ترسل في طلب طبيب.. إني لأبذل كل ثروتي في سبيل انقاذ حياة ولدي!».

فأجابها الكونت بابتسامة هادئة وحركة لطيفة من يده، ثم أشار عليها بأن تنحى مخاوفها جانباً.. وفتح صندوقاً صغيراً كان على قيد خطوة منه وأخرج منه قنينة صغيرة من الزجاج المغلف بالذهب تحوى سائلا أحمر في لون الدم، وسكب قطرة واحدة منه على شفتي الصبي الذي كان جامداً كالتمثال، فسرعان ما فتح عينيه ونظر محملقاً فيما حوله.. فكادت الأم تجن فرحاً، وقالت تلوم نفسها وقد هدأت مخاوفها:
ـ إن فضولي التعس هو المسؤول عن ذلك كله.. لقد سمعت باريس بأسرها تطنب في امتداح جمال جوادي البارونة دانجلر فخطر لي أن

أرى بنفسي هل يستحقان كل ذلك الاطراء.. هل سيدي يعرف البارونة دانجلر؟

فقال الكونت: «نعم يا سيدتي، وإن مما يزيد في سعادتي بنجاتك من الخطر الذي كان يتهددك أني كنت بلا قصد مني سبب هذا الخطر الذي تعرضت له. فقد ابتعت أمس هذين الجوادين من البارون، ولكني حين تبينت مبلغ أسف البارونة عليهما أعدتهما إليها راجياً أن تتكرم بقبولهما هدية مني؟».

فقالت له: «إذن فأنت الكونت دي مونت كريستو، الذي حدثني عنه (هرمين) كثيراً؟».

فقال: «لقد صدقت فراستك يا سيدتي!».

فقالت: «وأنا مدام هيلويز دي فيلفور.. سيكون زوجي شاكراً لك حين يقف على نبأ إنقاذك لزوجته وابنه!.. إنه سيظل مديناً لك بحياتنا، فلولا شهامة خادمك الباسل لكان كل منا الآن في عداد الأموات!».

وكان فيلفور قد شفي من إصابته بسكين برتوشيو الذي ظن أنه قتله.

وفي تلك الليلة سهرت باريس بأسرها تتحدث عن هذه المغامرة، فقد رواها ألبرت لأمه، وقص «شاتو رينو» نبأها في نادي الجوكي، وسرد «دبراي» تفصيلاتها الكاملة في صالون الوزير.. كما خصص «بوشان» عشرين سطراً من صحيفته للاشادة بشجاعة الكونت وشهامته، واعتباره بطل الساعة في أنظار نساء الطبقة الارستقراطية في باريس!

المنقذ المجهول

استقل الكونت دي مونت كريستو عربته في اليوم التالي إلى بيت جميل يقع في شارع ميلاي ـ رقم ٧ ـ حيث دعى إلى زيارة مكسمليان موريل، ابن ولي نعمته القديم صاحب السفينة «فرعون».

ولم يكد يدخل البيت حتى مد الضابط الشاب يده يصافح بها الكونت في حرارة، قائلا: «هيا بنا.. سأكون لك بمثابة الدليل.. إن أختي في الحديقة تقطع الورود الذابلة، وزوجها يقرأ الصحف على بعد ست خطوات منها، فحيثما تكون مدام «هربول» يوجد مسيو «إيمانو يل» دائماً داخل دائرة لا يزيد قطرها على أربعة أمتار!

ولما دخلا الحديقة رأى الكونت هناك شابة في نحو العشرين أو الخامسة والعشرين من عمرها، ترتدي ثوباً حريرياً من ثياب الصباح، وما سمعت وقع خطاهما حتى رفعت رأسها عن ورودها متطلعة إلى القادمين، وكانت هي «جولي»، التي أضحت تدعى بعد زواجها «مدام إيمانو يل هربول».. وقالت للضيف الكبير:
ـ آه يا سيدي!.. إنها لخيانة من أخي أن يحضرك على هذا النحو، بلا اخطار سابق.. لكنه لم يقم يوماً أي حساب لأخته المسكينة. أرجو أن تسمح لي بأن أتركك لبضع دقائق!

وقبل أن تنتظر جوابا اختفت وراء أجمة من الأشجار، ثم أسرعت إلى البيت من طريق ممر جانبي.. بينما قال مونت كريستو لأخيها:
ـ إنني لشديد الأسف إذ أرى أني أسبب لأفراد المنزل إنزعاجاً كبيراً!

فقال مكسمليان ضاحكاً: «أنظر هناك، هذا زوجها يبدل سترته بأخرى. أؤكد لك أنك معروف جيداً في شارع ميلاي!».

فقال الكونت كأنما يحدث نفسه: «يبدو أن أسرتك من الأسر السعيدة؟».

فقال الضابط: «بلا شك، إذ لا ينقصها شيء من مقومات السعادة، فأفرادها يستمتعون بالشباب والمرح، وكل منهم شديد التعلق بالآخر، وبفضل إيرادهم البالغ خمسة وعشرين ألف فرنك في السنة يحسون أنهم في غنى روتشيلد!».

وقال الكونت دي مونت كريستو بلهجة عذبة رقيقة وقعت من سمع مكسمليان موقع صوت الأب البار:
ـ مع ذلك فان هذا المبلغ ليس كبيراً، وهم لن يقنعوا به.. هل زوج أختك محام، أم طبيب؟».

فقال: «كان تاجراً، وقد خلف أبي المسكين في تجارته.. ذلك أن مسيو موريل عند وفاته ترك نصف مليون فرنك قسمت بالتساوي بين أختي وبيني، فقد كنا ولديه الوحيدين. أما زوج أختي ـ الذي لم يكن يملك عند زواجه منها غير ميراثه النبيل من نزاهة اليد وكفاءة الذهب والسمعة النظيفة ـ فقد أراد أن يكون له مال لا يقل عن إرث زوجته، فراح يكد ويجتهد حتى جمع في خلال ست سنوات ربع مليون فرنك بمعاونة زوجته التي شاركته كفاحه وتعبه. وقد ضجت مارسيليا بأسرها بالثناء على جهادهما المشترك.. وأخيراً جاء إمانويل ذات يوم يقول لزوجته وقد فرغت من مراجعة الحسابات:
ـ لقد سلمني الوكيل منذ برهة المائة فرنك الأخيرة التي يكتمل لنا بها مبلغ الربع مليون فرنك الذي حددناه ثروة لنا..

فهل تتمتعين بهذه الثروة الصغيرة التي ستكون عمادنا للمستقبل؟ أصغي لي، إن مؤسستنا تتداول أعمالا تبلغ المليون فرنك سنوياً، يصيبنا

منها دخل قدره أربعون ألفاً.. وفي استطاعتنا إذا أردنا أن نبيع تجارتنا في أية ساعة.. فقد تلقيت خطاباً من مسيو (ديلوناي) يعرض فيه أن يشتريها بثلاثمائة ألف فرنك، فماذا ترين؟

فأجابته أختي مؤكدة له أن مؤسسة موريل لا ينبغي أن يتولاها غير فرد من أسرة موريل.. وأن ثلاثمائة ألف فرنك لا تساوي احتفاظها باسم أبيها وحمايته من شرور الثروة الحرام أو الافلاس!

«فقال لها أمانويل «هذا ما رأيته، لكني أردت أن أعرف رأيك أنت.. على أني أقترح أن نصفي مؤسستنا ونكتفي بالايراد الذي يجلبه لنا رأس المال».

«وقد اتفقا على هذا، وكانت الساعة وقتئذ الثالثة. وبعد ربع ساعة دخل تاجر ليؤمن على سفينتين له لدى المؤسسة، الأمر الذي كان يدر عليهما ربحاً قدره خمسة عشر ألف فرنك، فقال له أمانويل: (لقد أغلقنا مكاتبنا وصفينا أعمالنا منذ ربع ساعة فقط!).

«ومنذ ذلك التاريخ قنعت أختي وزوجها بايرادهما البالغ خمسة وعشرين ألف فرنك في السنة!».

لم يكد مكسمليان يفرغ من قصته، التي أرهفت مشاعر الكونت كريستو من فرط ما نمت عن نبل وقناعة، حتى أقبلت جولي وأمانويل، فقال الكونت يخاطب الزوجة:

ـ أغفري لي الانفعال الذي يبدو علي يا سيدتي، وقد يدهشك هذا أنت التي ألفت السعادة التي ترفرف على هذا البيت. لكن منظر البشر والقناعة على محيا انسان لا شك أنها منظر جديد بالنسبة إلي، بحيث لن أمل النظر إليه على وجهك ووجه زوجك!».

فأجابت جولي: «نحن سعداء حقاً يا سيدي، لكنا عرفنا أيضاً التعاسة فترة من الزمن، بل قل بين الناس من ذاقوا مثل الآلام المريرة التي نقناها!».

وهنا بدت على وجه الكونت علائم الفضول، بينما أردف مكسمليان: «إن هذا يفضي بنا إلى صورة متواضعة من تاريخ الأسرة قد لا تعنيك كثيراً أنت الذي ألفت ألا ترى غير مباهج الأثرياء والبارزين وحدهم.. لكن الواقع أننا قاسينا الكثير من الأحزان المرة».

فقال الكونت دي مونت كريستو في لهجة تساؤل: «عسى أن يكون الله قد شفي أحزانكم بفضله ورحمته كما يصنع لجميع المعذبين الصابرين؟».

فأجابت جولي: «نعم يا سيدي الكونت، ليس يسعنا إلا أن نعترف بذلك، فلقد صنع الله من أجلنا ما لا يصنعه إلا لخاصته المختارين فأرسل إلينا أحد ملائكة الرحمة لانقاذنا مما كنا نعانيه!».

وهنا تورد خدا الكونت فصارا في لون القرمز، ثم سعل كي يجد مبرراً لوضع منديله على فمه.. بينما أردف أمانو يل قائلا: «إن أولئك الذين يولدون في الثراء و يملكون وسائل اشباع جميع رغباتهم لا يعرفون كيف تكون السعادة الحقيقية في الحياة، أما الذين عاشوا وسط أمواج الحياة وأعاصيرها فهؤلاء وحدهم يقدرون قيمة الجو الذي يسوده الصفاء والهدواء!».

ونهض الكونت دون أن يجيب بكلمة، خشية أن يفضح صوته مدى انفعاله، ثم راح يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً في خطوات بطيئة، فقال له مكسمليان وهو يتبعه بعينيه: «إن أقوالنا تدهشك، أليس كذلك؟».

فوضع الكونت إحدى يديه على قلبه ليهدىء من ثائرته، وأشار باليد الأخرى إلى غطاء من البللور تحته كيس من الحرير موضوع فوق وسادة من القطيفة السوداء وقال: «كلا يا سيدي!.. وإنما كنت أتأمل هذا الكيس الذي يحوى ورقة في أحد طرفيه، وماسة كبيرة في طرفه الآخر!».

فقال مكسمليان وقد ارتسمت على وجهه علائم الجد: «سيدي الكونت.. هذه هي أثمن كنوزنا العائلية!».

فقال الكونت: «حقاً.. إن هذه الماسة تبدو ثمينة جداً..!».

وهنا تدخلت جولي في الحديث قائلة: «إن أخي لا يعني قيمة هذه الماسة ـ برغم أنها قدرت بمائة ألف ريال ـ ولكنه يعني أن الأشياء التي يحتويها هذا الكيس هي تذكار (الملاك) الذي حدثتك عنه الآن!».

فقال الكونت وهو ينحني لها: «عفواً يا سيدتي.. إنني لا أفهم شيئاً من هذا، ولست أطلب الوقوف على خفايا أمره، فليس من عادتي أن أتطفل على أسرار عائلية لا تخصني!».

فقالت جولي متحمسة: «ليس هذا تطفلا يا سيدي.. كلا! بل أنه ليسعدنا أن تعطينا الفرصة كي نفيض في هذا الموضوع. ولو كنا نبغي إخفاء الصنيع النبيل الذي يرمز إليه هذا الكيس لما عرضناه للعيان هكذا! أوه!.. ليتنا نستطيع أن نروى القصة لكل إنسان وفي كل مكان، لعل هذا يوصلنا إلى معرفة ذلك المحسن المجهول!».

فتساءل الكونت في صوت أشبه بالمختنق: «حقاً؟».

وسارع مكسمليان إلى رفع الغطاء البللوري عن الكيس الحريري ثم لثمه في احترام وتوقير وقال للكونت: «سيدي.. إن هذا الكيس قد لمس يد الرجل الذي أنقذ أبي من الانتحار، وأنقذنا نحن من الدمار، بل أنقذنا من العار والفضيحة!.. نعم إن ذلك الملاك الكريم الذي لا يباري جعلنا ننجو من مصير كله فاقة وعوز ونصبح في حال يحسدنا عليها الناس و يغبطوننا على سعادتنا!.. وإليك الخطاب الذي كتبه ذلك الملاك الكريم في اليوم الذي انتهى فيه أبي إلى اتخاذ قرار الانتحار!.. أما هذه فهي الماسة التي وهبها المحسن المجهول لأختي لمناسبة زواجها!».

ونشر الكونت الخطاب وقرأه في غبطة ظاهرة. وكان الخطاب موجهاً إلى جولي، وموقعاً عليه باسم «السندباد البحري»!.. فتساءل الكونت: «هل الرجل الذي أدى لكم هذه الخدمة مجهول لديكم تماماً حتى الآن؟».

فأجاب مكسمليان: «نعم يا سيدي، إذ لم يسعدنا الحظ يوماً بأن نصافحه برغم أننا طالما التمسنا من السماء أن تمنحنا هذه المنة.. لكن الأمر كله قد اتخذ اتجاهاً غامضاً عجزنا عن فهمه، وقادته من بدايته إلى نهايته يد خفية ــ وإن تكن قو ية ــ أشبه بأن تكون يد ساحر!».

فهتفت جولي. «إني لم أفقد الأمل بعد في أن أستطيع يوماً تقبيل تلك اليد كما أقبل الآن هذا الكيس الذي لمسته!.. ولقد كاد يتم لي ذلك.. فمنذ أربعة أعوام كان (بنيلون) البستاني الذي يعمل في حديقة الدار ــ وقد كان فيما مضى بحاراً ــ يجول على رصيف ميناء (تريستا) حين رأى ثرياً انجليزياً يتأهب للابحار في يخته الخاص، فعرف فيه الشخص الذي زار أبي في الخامسة من يونية سنة ١٨٢٩ والذي كتب لي هذا الخطاب في الخامس من سبتمبر. وقد استوثق (بنيلون) من شخصه لكنه لم يجرؤ على مخاطبته..!».

فقال الكونت كريستو وقد أقلقته النظرة الفاحصة التي رمقته بها جولي: «انجليزي؟.. أهو ثري انجليزي؟».

فأجاب مكسمليان: «نعم، انجليزي تقدم إلى أبي باعتباره المندوب الخاص لبنك (تومسون) وفرنشي في روما. وهذا ما جعلني أجفل حين سمعتك تذكر في منزل مسيو دي مورسيرف أن البنك الذي تتعامل معه هو بنك تومسون وفرنش.. فقل لي بربك: هل تعرف ذلك الثري الانجليزي؟».

فقال الكونت وهو يتكلف الهدوء: «لكنك ذكرت لي أن بنك تومسون وفرنش أنكر جازماً أنه أدى لكم تلك الخدمة؟».

فأومأ مكسمليان موافقاً، بينما واصل الكونت كلامه فقال:
ـ إذن.. ألا يحتمل أن يكون ذلك الانجليزي شخصاً أدى له والدك صنيعاً يوماً ما، نسيه بعد ذلك، ففكر هو أن يرده له بهذه الطريقة الغامضة؟

ـ كل شيء جائز في هذا الشأن!

ـ وما اسم هذا الانجليزي؟

ـ إننا لا نعرف له اسماً غير اسم (السندباد البحري) الذي وقع به على خطابه!

ـ ألم تكن له قامتي، أو أطول قليلا، وكان يرتدي رباط رقبة يصل إلى ذقنه، وسترة ملتصقة بجسمه.. ومن عادته أن يخرج قلمه من جيبه كل حين؟

فهتفت جولي وقد لمعت عيناها غبطة: «نعم.. نعم.. إنك إذن تعرفه يا سيدي.. وافرحتاه!».

فقال الكونت: «كلا!.. وإنما أنا أستنتج فقط، فقد عرفت شخصاً اسمه اللورد و يلمور اعتاد أن يقوم بتصرفات من هذا النوع».

فسألته: «هل كان لا يفصح عن شخصيته أيضاً؟».

فأجاب: «إنه كان مخلوقاً شاذاً، لا يؤمن بأن لعرفان الجميل وجوداً!».

فهتفت متعجبة: «رباه!.. وبم كان يؤمن إذن؟!».

فأجاب الكونت وقد لمست شغاف قلبه لهجة جولي الفياضة بالامتنان: «إنه لم يكن يؤمن بذلك في الفترة التي عرفته فيها.. ولعله تبين بعد ذلك أن الاعتراف بالجميل ما زال موجوداً على الأرض!».

فقالت له متوسلة: «إذا كنت تعرف هذا الشخص، فاني أرجو ملحة في الرجاء أن ترشدنا إلى مكانه.. آه لو عثرنا عليه!.. إذن أقنعناه بوجود الاعتراف بالجميل، والاعتراف الصادر من القلب!».

وأحس الكونت أن الدموع تكاد تطفر من عينيه، فنهض وراح يذرع الحجرة مرة أخرى بخطوات سريعة.. بينما ناشده مكسمليان قائلا: «بحق السماء، أذكر لنا ما تعرفه عن ذلك الشخص».

فهتف الكونت دي مونت كريستو وهو يجاهد ليقمع انفعاله، إذا كان لورد و يلمور هو ولي نعمتكم المجهول فأخشى أنكم لن تروه ثانية. لقد افترقت عنه منذ عامين في (باليرمو).. وكان يتأهب للابحار إلى أقصى أطراف الأرض، بحيث أعتقد أنه لن يعود مرة أخرى!».

فقالت جولي وقد طافت الدموع بمآقيها: «تعني أنني لن أراه يا سيدي.. هذه قسوة منك!».

فأجابها الكونت في لهجة جادة وهو ينظر بشغف إلى اللؤلؤتين المنحدرتين على خديها: «لو كان لورد و يلمور قد رأى ما أراه الآن، لأحب الحياة، فان الدموع التي تذرفينها كانت كفيلة بأن تعيد إليه حسن ظنه بالبشر!».

ثم مد الكونت يده إلى جولي مصافحاً، فقالت وهي تضع يدها في يده: «ولكن.. أليس للورد و يلمور أسرة أو أصدقاء نستطيع أن...؟».

فقطع الكونت كلامها قائلا في تلطف:
ـ لا تتعبي نفسك في الاستقصاء، فلعله لا يكون الشخص الذي أدى لكم ذلك الصنيع.. لقد كان اللورد صديقي الحميم. ولم يكن يخفي علي أي سر خاص به. فلو أنه كان صاحب ذلك الصنيع لأفضى إلي بما فعل!

وعندئذ خف مكسمليان إلى نجدة الكونت وقال لأخته:-
ـ إن السيد على حق يا أختاه.. تذكري ما طالما قاله لنا أبونا البار: (ليس الرجل الانجليزي هو الذي أنقذنا!).

وهنا سأله الكونت في لهفة: «ماذا قال لك والدك يا مسيو موريل؟».

فأجاب: «كان من رأى والدي أن ذلك الصنيع من قبيل المعجزات، وأن صانعه قد بعث من القبر لينقذنا. أوه.. إنها كانت خرافة مؤثرة يا سيدي، وبرغم أني شخصياً لم أصدقها فاني لم أشأ أن أحطم إيمان أبي بها.. وكم من مرة حام حولها وذكر اسم الصديق العزيز الذي فقده للأبد. والذي عزا إليه ذلك الصنيع، بل أنه حين حضرته الوفاة، وأضاءت ساعة الاحتضار ذهنه بنور خارق للطبيعة، تحولت عنده هذه الفكرة إلى يقين قاطع.. فكانت كلماته الأخيرة لي (مكسمليان.. إنه إدمون دانتيس الذي أنقذنا!)...».

وهنا بلغ شحوب وجه الكونت درجة مزعجة، فلم يقو على الكلام، ونظر إلى ساعته كمن نسي موعداً هاماً. ثم نطق على عجل ببضع عبارات موجهة إلى مدام هربول وصافح كلا من مكسمليان وايمانو يل وهو يقول لها: «سيدتي، إني لأطمع في أن تسمحي لي بزيارتكم بين حين وآخر، فأنا أقدر صداقتكم وأشكركم على حفاوتكم. فهذه هي المرة الأولى التي أطلق فيها العنان لمشاعري منذ سنوات!».

ثم غادر البيت مسرعاً!

وقال ايمانو يل على أثر خروج الكونت:

ـ إن الكونت دي مونت كريستو رجل غريب الأطوار!

فقال مكسمليان: «نعم.. لكني أحس عن يقين أن له قلباً نبيلا، وأنه يحبنا!».

وقالت جولي: «لقد تغلغل صوته إلى أعماقي، وخيل إلي مرتين أو ثلاثاً أنني سمعته من قبل!».

درس في السموم!

لم يبطىء الكونت دي مونت كريستو في العودة الى زيارة مدام دي فيللفور.. ولم يكد الخادم يعلن اسمه حتى عم الهرج والمرج أنحاء البيت، وطلبت مدام دي فيللفور ـ التي كانت في الصالون وحدها وقتئذ ـ أن تحضر المربية ولدها كي يجدد شكره وامتنانه للكونت.. ـ وكان الصبي ـ واسمه ادوارد ـ قد سمع أهله يتحدثون عن هذه الشخصية العظيمة طيلة اليومين السابقين، فبذل جهده كي يخف اليه سريعاً لا طاعة لأمه أو تقديراً لفضل الكونت عليه، بل بدافع الفضول المحض.. ورغبة في أن يجد في شخصه ما يصلح لأن يتخذه فيما بعد مادة لتعليقاته السليطة التي تطلق لسان امه بلومه وتأنيبه من حين لآخر، وان كانت معجبة بذكائه.

وبعد تبادل التحيات المألوفة التفتت الى ابنها ادوارد قائلة: «ماذا تفعل اختك فالنتين؟. دع أحداً يبلغها أني أريدها لأتشرف بتقديمها للكونت».

فسألها الكونت: «ألك ابنة أيضاً يا سيدتي؟. لا بد أنها صغيرة السن؟».

فأجابته الزوجة الشابة: «انها ابنة مسيو دي فيللفور من زوجته الأولى.. وهي فتاة رائعة».

فقاطعها الصبي ادوار وهو ينتزع ريشات من ذيل ببغاء كانت تتصايح فوق قفصها الذهبي: «لكنها متهوسة!».

فصاحت به أمه: «صه يا ادوار!». ثم أضافت تحدث ضيفها: «هذا الولد الشقي اللعين مصيب مع ذلك الى حد ما، وهو يردد ما سمعني

أقوله متألمة مائة مرة. ذلك أن الآنسة دي فيللفور ــ برغم كل ما نبذله من أجلها ــ ذات طبيعة سوداو ية وميل الى الصمت والانزواء، الأمر الذي يغض من جمالها. ولكن ما الذي يعوقها؟. اذهب يا ادوار وادعها».

فقال ادوار: «انهم يبحثون عنها في المكان الذي لن يجدوها فيه كما هو شأنهم دائماً!».

فسألته: «أين يبحثون عنها؟».

فأجاب: «عند جدي فوارتييه.. وأنا على يقين من أنها ليست هناك!».

فسألته: «وأين هي اذن؟.. اذا كنت تعرف مكانها فلم لا تقول؟».

فأجاب: «انها تحت شجرة الكستناء الكبيرة!».

فمدت الأم يدها الى الجرس كي ترشد الخدم الى مكان الفتاة. ولكن هذه سرعان ما ظهرت مقبلة، وقد بدت عليها الكآبة، بحيث كان الفاحص المدقق يستطيع أن يلمح في عينيها آثار دموع قد جففت!

كانت «فالنتين» فتاة طو يلة القامة رشيقة القد، في التاسعة عشرة من عمرها، ذات شعر كستنائي، وعينين زرقاو ين عميقتين، ومظهر وقور يوحي بالارستقراطية الهادئة التي كانت تميز أمها.. وكانت أصابعها البيضاء الدقيقة وعنقها العاجي وخداها المصطبغان بألوان وظلال شتى، تذكر الناظر اليها بالحسان الانجليزيات اللواتي قارنهن الشعراء بالبجعات ذوات الجلال!

وحينما دخلت الفتاة الحجرة، ورأت الى جوار زوجة أبيها الرجل الذي سمعت كثيراً من الاحاديث عنه غمدت الى تحيته دون أي ارتباك صبياني، بل دون أن تغض من بصرها، وبرشاقة ضاعفت انتباه الكونت اليها، فنهض ليرد لها التحية!.

وحين قدمتها له زوجة أبيها باسمها، أردف ادوار أخوها يكمل التعريف وهو يرمقها بنظرة ماكرة: «وهذا مسيو دي مونت كريستو ملك الصين وأمبراطور الهند الصينية..!».

وهنا شحب وجه أمه واستبد بها الغضب على الغلام الشقي، لكن الكونت ابتسم في غير غضاضة ونظر الى ادوار في تسامح جعل قلب الأم يسترد فرحته وتحمسه.. ثم واصل حديثه فقال وهو ينقل بصره بين مدام دي فيللفور وفالنتين: «ألم أتشرف من قبل بلقائكما؟. لقد دار هذا بخاطري منذ البداية، وحين دخلت الآنسة أضاف مرآها شعاعاً جديداً من الضوء على ذكرى مشوشة في ذهني؟!».

فأجابت السيدة دي فيللفور: «لست أعتقد ذلك يا سيدي، فان الآنسة دي فيللفور ليست شغوفة بالمجتمعات ونحن لا نخرج الا نادراً!».

فقال: «اذن.. لم يكن المجتمع موضع لقائي بالآنسة أو بك يا سيدتي، أو بهذا الغلام المرح الجذاب.. ثم أن مجتمعات باريس غريبة علي تماماً، فاني لم أحضر الا منذ أيام.. ولكن ربما كان ذلك اللقاء في ايطاليا.. كانت الآنسة تسير في الحديقة، وذهب ابنك يطارد طاووساً!».

وهنا تدخل الغلام ادوار فقال بعد أن أومأ موفقاً: «نعم.. نعم يا أماه، وقد أمسكت بذلك الطاووس وانتزعت ثلاث ريشات من ذيله.. ألا تذكرين!».

واستطرد الكونت: «أما أنت يا سيدتي فبقيت في ظل الكرمة.. ألا تذكرين أنك وأنت جالسة على مقعد حجري، في غيبة الآنسة دي فيللفور وابنك، تحدثت فترة من الوقت الى شخص ما؟».

فأجابت الزوجة الحسناء وقد صعد الدم الى وجهها: «نعم.. هذا صحيح.. أذكر أني تحدثت الى رجل يرتدي عباءة طويلة من الصوف كان طبيباً على ما أذكر!».

فقال الكونت: «تماماً يا سيدتي، وذلك الرجل أو الطبيب لم يكن سواي!. كانت قد انقضت مدة على وجودي في الفندق، وقد استطعت خلالها أن أشفي خادمي من حمى أصابته، وأشفي صاحب الفندق من داء اليرقان، فاكتسبت بذلك صيتاً ذائعاً هناك. وقد تحدثنا يومئذ يا سيدتي فترة طويلة من الوقت، في موضوعات شتى مثل (بيروجنتو)، و (رافاييل)، والعادات، والأزياء.. كما تحدثنا عن علم مزج السوائل، وذكرت لي أن أشخاصاً معينين في (بيروجا) يحتفظن بسره».

فقالت المرأة متعجلة، في شيء من القلق: «نعم، هذا صحيح.. أذكر ذلك الآن!».

واستطرد الكونت فقال في هدوء تام: «.. لست أذكر جميع الموضوعات التي تكلمنا فيها يومئذ يا سيدتي، لكني أذكر بوضوح أنك وقعت في الخطأ الذي وقع فيه غيرك بصدد براعتي في الطب فاستشرتني بشأن صحة الآنسة دي فيللفور».

وفي تلك اللحظة دقت الساعة السادسة، فالتفتت مدام دي فيللفور الى فالنتين وقالت لها في انفعال: «الساعة السادسة الآن.. هل لك أن تذهبي لتري هل جدك يريد تناول عشائه؟».

فنهضت فالنتين وغادرت الغرفة، بعد أن حيت الكونت، دون أن تجيب بكلمة.. فقال الكونت: «أواه يا سيدتي، هل بسببي أبعدت الآنسة دي فيللفور عن الغرفة؟».

فقالت:«كلا!. انها الساعة السادسة وهي الموعد المحدد لاعطاء المسيو نوارتييه الوجبة الاجبارية التي تعينه على الاحتفاظ بما بقي من قواه.. انك على علم يا سيدي بحالة الانحلال التي أصيب بها والد زوجي، أليس كذلك؟».

فقال: «نعم، لقد حدثني مسيو دي فيللفور عنها مرة.. انها حالة شلل على ما أذكر؟».

فقالت: «نعم، ان الكهل المسكين لا يقوى على أية حركة.. ولم يبق محتفظاً بنشاطه في جسمه غير عقله، ولو أنه بدأ يضعف و يختلج كنور المصباح الذي يوشك أن ينطفىء.. ولكن اغفر لي يا سيدي كلامي في متاعبنا البيتية. لقد قاطعتك في اللحظة التي كنت فيها تحدثني عن براعتك في الكيمياء!».

فقال: «كلا يا سيدتي!. لم أقل ذلك تماماً. وما درست الكيمياء الا على أثر اعتزامي العيش في الأجواء الشرقية، كي أنهج نهج الملك ميتريداتس الذي..».

وهنا قطع الصبي كلامه وقال وهو ينتزع بعض الصور الجميلة من «البوم» ثمين: «أهو الملك ميتريداتس الذي كان يفطر كل صباح بكأس من السم الممزوج بالكريمة؟».

فهتفت به وهي تنتزع البوم الصور من قبضته:

ـ أسكت أيها الشقي!. لقد صرت لا تحتمل. انك تزعجنا وتقطع حديثنا، فاتركنا والحق بأختك فالنتين في غرفة جدك.

ثم نهضت فقادت الغلام من يديه حتى الباب. وتبعها الكونت بعينيه وهو يحدث نفسه: «ترى.. هل تغلق الباب خلفها؟».

وأغلقت مدام دي فيللفور الباب باحكام بعد خروج الصبي، فتظاهر الكونت بأنه لا يلحظ حركتها، ولما عادت الى مقعدها أخذت تلقي على ما حولها نظرة فاحصة.. فاستطرد الكونت قائلا: «لقد قاطع الغلام وهو يذكر فذلكة تاريخية تثبت مدى اهتمام معلمه بتثقيفه..!».

فقالت الأم في شيء من الزهو: «انه ذو قابلية للعلم، وهو لا ينسى أي درس يلقى عليه.. لكن عيبه الوحيد أنه شديد العناد. ولمناسبة هذا الذي قاله، هل تصدق حقا ان ميتريداتس كان يستعمل تلك الوسائل، وانهاكانت ذات أثر حقيقي؟».

فقال: «نعم أعتقد ذلك يا سيدتي، لأني أنا نفسي قد جربتها كي آمن شر الموت بالسم في رحلاتي المتعددة في نابولي، وبالرمو، وأزمير.. أعني في مناسبات ثلاث كنت فيها سأفقد حياتي لولا تلك الوسائل الاحتياطية!».

فقالت: «انني أذكر الآن أنك أشرت الى شيء من هذا القبيل خلال حديثنا في بيروجيا.. أليس كذلك؟. كما أذكر أني سألتك يومها: هل السموم تحدث أثرها في أهل الشمال وأهل الجنوب على حد سواء، فأجبت بأن الشماليين بطبعهم أميل الى البرود والكسل، وهذا يجعل قابليتهم للتسمم أخف من قابلية أهل الجنوب ذوي الطبائع النشطة والحيوية».

فقال: «هذا صحيح، ولقد رأيت بعيني أفراداً من الروس يتناولون اعشاباً خاصة، لو تناولها انسان من العرب أو سكان الشرق الأوسط لقتلته فوراً!».

فسألته في اهتمام: «اتعتقد هذا حقاً؟.. أعني هل خطر هذه الأعشاب أشد على من يعيشون في جو لا تكثر فيه الأمطار والغيوم! لأن هذه تجعل الأجسام أقل قابلية لامتصاص السموم؟».

فأومأ الكونت موافقاً وقال:

ـ نعم، ولا ريب يا سيدتي.. لذلك ينبغي أن يحصن ضد السم من لم يألفه من قبل لكي يتعوده جسمه!

فقالت: «أستطيع أن أفهم ذلك.. ولكن كيف تعود نفسك السم؟. أعني كيف عودت نفسك في المرات السالفة؟».

فقال: «هذا سهل جداً.. فلو فرضنا أنك عرفت سلفاً نوع السم الذي سوف يدس لك.. وليكن هو (البروسين) مثلا.. ثم تناولت في اليوم الأول مقداراً منه، وفي اليوم الثاني ضعف هذا المقدار.. وهكذا لمدة عشرة أيام فانك تصيرين قادرة على أن تتعاطي مقداراً كبيراً منه دون

أن يصيبك ضرر يذكر.. بينما لو اعطيت هذا المقدار نفسه لانسان لم يتناول المقادير الصغيرة السابقة فانه تقتله!.. وهكذا يمكنك في نهاية الشهر أن تشربي الماء من اناء واحد مع شخص آخر، فيموتُ هو.. في حين لا تشعرين أنت بغير مضايقة بسيطة..!».

فقالت مدام دي فيللفور في لهجة من يمعن في الفكر: «لقد طالما قرأت تاريخ ميترايداتس. وأعدت قراءته، لكني كنت أعتبره بمثابة أسطورة خرافية!».

فقال: «كلا يا سيدتي!. إنه ـ بعكس أكثر ما يرو يه التاريخ ـ صحيح تماماً!.. لكن ما تستفسرين عنه ليس فيما يبدو ثمرة فضول طارىء. فمنذ عامين سألتني هذه الأسئلة نفسها، وقلت لي يومئذ أن تاريخ ميترايداتس قد شغل فكرك زمناً؟».

قالت: «هذا صحيح، فقد كان علم النبات والجيولوجيا أحب العلوم الي في زمن الدراسة.. وأنا أميل بطبعي الى العلوم التي تخاطب الخيال كالشعر. والعلوم التي تخضع للأرقام مثل الجبر.. ولكن استمر، فحديثك يلذ لي جداً!».

فقال الكونت: «الأغرب من ذلك يا سيدتي أن الشرقيين لا يستخدمون السم كدرع للوقاية ـ كما فعل ميتريداتس ـ بل كخنجر للعدوان!.. فالعلم في أيديهم لا يكون سلاحاً دفاعياً فقط بل للهجوم أيضا. وهكذا يحميهم من خصومهم و يخلصهم منهم في الوقت نفسه.. فهم بواسطة الأفيون وست الحسن (البلادونا) وغيرها من العقاقير ينيمون الى الآبد كل من يخشون أن يبقوا ساهرين!.. وما من امرأة من نساء المصريين والأتراك واليونان اللواتي نسميهن هنا (النساء الفاضلات) لا تعرف كيف تستعين بالكيمياء على قضاء أغراضها، بحيث تدهش الطبيب المحترف، وتذهل العالم النفساني الذي يتلقى اعترافات الناس!».

فتساءلت مدام دي فيللفور وقد لمعت عيناها بوهج غريب: «حقاً؟!». بينما استطرد الكونت فقال:

ـ أما عندنا نحن فان أي ساذج تملكه شيطان الحقد أو الطمع ورغب في التخلص من عدو أو قريب، يذهب عادة الى حانوت البقال أو الصيدلي منتحلا لنفسه اسماً زائفاً ـ يؤدي الى افتضاحه في الواقع أكثر مما لو ذكر اسمه الحقيقي! ـ ثم يبتاع خمسة جرامات أو ستة من الزرنيخ، بحجة أن الفيران تزعج نومه!.. واذا كان الشخص ماكراً فانه يحصل على هذه الكمية من حوانيت مختلفة، يكرر في كل منها القصة ذاتها، فيضع نفسه تحت رحمة شهود عديدين متفقي الشهادة.. ثم يسقي خصمه جرعة من السم تكفي لقتل أضخم فيل أو حوت، وتجعله يصرخ مستغيثاً فيجمع حوله الجيران وسكان المنطقة.. ثم لا يلبث أن يصل رجال البوليس والمباحث. وفي أثرهم الطبيب الشرعي الذي يشرح الجثة فيجد في أمعائها من بقايا الزرنيخ ما يملأ ملعقة!.. وفي اليوم التالي تصدر الصحف جميعاً وفي صدرها كل البيانات، واسم القتيل والقاتل فيهرع البقالون والصيادلة ليشهدوا ضد المتهم الذي يساق الى المحاكمة كما يساق الكبش الى الذبح، ثم يصدر ضده الحكم و ينفذ فيه الاعدام.. أو ـ اذا كانت امرأة تسجن مدى الحياة!.. هذه هي الطريقة التي تفهمون بها أنتم أهل الشمال علم الكيمياء... لكن (ديرو) كان في الواقع أبرع من ذلك!

فقالت المرأة ضاحكة: «ماذا تنتظر منا يا سيدي؟.. نحن نفعل ما في مقدورنا.. وليس جميع الناس على علم بأسرار وسائل أسرة بورجيا وأسرة مديتشي!».

فأجاب الكونت وهو يهز كتفيه: «هل تبغين أن أذكر لك سبب هذه الحماقات؟. انها مسارحكم التي ألف النظارة فيها أن يروا الممثل يجرع محتو يات قارورة بأكملها، فيسقط ميتاً على الفور.. و بعد خمس دقائق يسدل الستار و يتفرق المتفرجون دون أن يفكروا فيما حدث عادة في

مثل ذلك الحادث من حضور مفتشي المباحث واستجوابهم المتهم، ثم الاقتصاص منه.. وهذه الروايات غير المتقنة تؤثر في ذوي العقليات الضعيفة فيتوهمون أن الأمور تجري على هذا المنوال.. ولكن ابتعدي عن فرنسا وتوغلي جنوباً الى حلب أو القاهرة، أو حتى الى نابولي وروما.. فلسوف تجدين هناك أناساً يمرون بجانبك في الطريق، منتصبي القامة، باسمي الثغور، متوردي الوجوه.. ولكن لو رآهم (أسموديوس) لقال على الفور: «هذا الرجل قد دس له السم منذ ثلاثة أسابيع، وسوف يموت بعد شهر!».

وهنا سألته مدام دي فيللفور: «اذن فقد اكتشفوا مرة أخرى أسرار علم السوائل والسموم، الذي قيل انه فقد في بيروجيا؟».

فقال: نعم يا سيدتي.. وهل تفقد البشرية يوماً شيئاً؟.. ان السموم تحدث أثرها بصفة خاصة في عضو من الجسم دون آخر.. فهناك سم يسبب سعالا مثلا، والسعال يحدث التهابا في الرئتين، أو شيئاً من هذه الأمراض المميتة المنصوص عليها في كتب الطب، وهي وإن لم تكن مميتة بطبيعتها فان الأطباء الأغبياء ــ الذين هم عادة جهلة بالكيمياء ــ كفيلون بأن يزيدوا الداء استفحالا... ثم يموت المريض الذي قتل ببراعة وفن، دون أن يصل الى علم عدالة شيء عن الجريمة!».

فقالت الزوجة الشابة وقد أجلسها الانتباه جامدة في مكانها بلا حراك: «هذا أمر مخيف جداً، لكنه شائق في الوقت ذاته.. وأعترف بأني كنت أحسب هذه الأقاصيص من ابتداع القرون الوسطى!».

فقال الكونت: «انها لكذلك حقاً، ولكن تحسينات كثيرة أدخلت عليها في عصرنا الحاضر.. فما جدوى الزمن بل ما جدوى مكافآت التفوق والأوسمة والنياشين والجرائد العلمية اذا هي لم تأخذ بيد المجتمع نحو كمال أوفى؟.. على أن الانسان لن يبلغ درجة الكمال

المطلق حتى يتعلم كيف يخلق و يهلك، وهو يعرف كيف يهلك.. وهذه نصف المعركة!».

وهنا بدا على مدام دي فيللفور الانهماك في التفكير، ثم قالت:

ـ انه لمن حسن الحظ أن تلك المواد لا توجد وتركب الا عند الكيميائيين، والا لقتل الناس جميعاً بعضهم بعضاً بالسم!

فقال الكونت في غير مبالاة: «عند الكيميائيين والمولعين بالكيمياء!».

واستطردت المرأة وهي تحاول جاهدة التخلص من أفكارها الملحة: «ثم ان الجريمة مهما يتم تدبيرها ببراعة فانها تبقى آخر الأمر جريمة يعاقب عليها القانون، وحتى إن أفلت مرتكبها من حكم القانون فلن تغفل عنها عين الله الساهرة.. ان الشرقيين أقوى جناناً منا في مسائل الضمير، ولا جحيم عندهم.. هذا هو الفارق!».

فقال: «الواقع يا سيدتي ان هذا شك خليق بأن يراود ذهناً طاهراً مثل ذهنك، لكنه لا يلبث أن يتبدد أمام المنطق السليم.. فهناك أشخاص قليلون يعمد الواحد منهم الى اغماد سكينه في قلب مخلوق بشري مثله، أو يدس له مثل تلك الكمية التي تحدثنا عنها من الزرنيخ كي يزيله من الوجود و يمحوه محواً.. ومثل هذا القاتل المتوحش يكون شاذاً أو غبياً وخارجاً على المألوف، ولكي يبلغ هذه الدرجة من التوحش يجب أن يغلي دمه في عروقه يرتفع نبضه، وتستثار مشاعره الى أقصى حد.. ولكن لو فرضنا أنه استعاض عن الكلمة الخشنة بمرادفها الأكثر نعومة، وبدلا من أن يرتكب جريمة القتل الفظيعة يكتفي بابعاد خصمه عن طريقه ببساطة، دون عنف أو خشونة، ودون لجوء الى الآلام التي تجعل من الضحية شهيداً ومن المعتدي جزاراً.. بل دون دم، أو تأوهات، أو هزات عنيفة.. ودون احساس بوطأة اللحظة المروعة الحاسمة، لحظة ارتكاب الجريمة الفاصلة بين الحياة والموت.. عندئذ

يصبح في امكان الشخص أن ينجو من قبضة القانون البشري الذي يقول: (لا تزعج المجتمع).. وتلك هي الطريقة التي يدبر بها الشرقيون هذه الأمور و ينجحون فيها، حيث لا يقيم الناس اعتباراً للزمن ولا يستعجلون النتائج!

فقالت مدام دي فيللفور بصوت منفعل وتنهدة مختنقة: «ولكن.. يبقى هناك عقاب الضمير!».

فأجاب مونت كريستو: «نعم، من حسن الحظ أن عقاب الضمير يبقى، ولولا ذلك لكانت الحياة تعسة سقية لا تطاق.. فعلى أثر كل فعل يتطلب إجهاد النفس في التبرير والتخريج يتولى الضمير وحده انقاذنا، فهو يزودنا بألف عذر وعذر، يكون قبوله في يدنا وحدنا.. على أن هذه الأعذار التي تفعل فعل الساحر في جلب النعاس الى أجفاننا لا تكاد تجدينا نفعاً حين نمثل أمام المحكمة كي نحاكم عن جريمتنا!.. ومن قبيل ذلك مثلا أن ضمير ريشارد الثالث خدمه أجل خدمة بعد أن قتل ادي ادوارد الرابع. فقد راح يلقي في روعه أن هذين الولدين اللذين ورثا عن أبيهما القاسي المستبد مساوئه وصفاته البغيضة يقفان حجر عثرة في سبيل ارتقائه العرش وانقاذه الشعب الانجليزي من مظالمهما! وكذلك كان ضمير (ليدي ماكبث) ـ في رواية شكسبير ـ خير شفيع لها حين أرادت أن تمنح ابنها ـ وليس زوجها ـ عرش البلاد!..ان الحب الأموي فضيلة عظيمة وحافز قوي، بل إنه من القوة بحيث يبرر أشياء كثيرة..!».

وبقيت مدام دي فيللفور تصغي صامتة الى هذه المبادىء والآراء الرهيبة ثم قالت له:

ـ هل تعلم يا عزيزي الكونت أن لك منطقاً مقنعاً شديد الخطر، وانك كيميائي بارع، فان الدواء الذي اعطيته لابني في ذلك اليوم قد أعاده فوراً الى وعيه!..».

فقال لها: «الواقع أن قطرة واحدة من ذلك الاكسير أعادت الطفل المغمى عليه الى وعيه، ولكن ثلاث قطرات كانت كفيلة بأن تقذف الدم الى رئتيه بعنف يحدث سرعة هائلة في نبضه.. وكانت ست قطرات كافية لأن توقف تنفسه وتحدث له اغماء أخطر من الذي أصيب به يومئذ.. أما لو أعطيته عشر قطرات فانها تقتله!.. أولا تذكرين يا سيدتي كيف اختطفت القارورة من جواره حين لمسها بيده؟».

فقالت: «هل كان السائل الذي تحو يه سماً فظيعاً الى هذا الحد؟».

قال: «كلا يا سيدتي!. ولنبدأ أولا بالتفاهم على أن كلمة سم لا وجود لها، لأن الطب يستخدم أعنف السموم فيجعل منها وفقاً لطريقة استعمالها أحسن الأدو ية وأفضلها للعلاج!».

فسألته: «اذن ماذا كان السائل الذي بها؟».

فأجاب: «لم يكن سوى مستحضر ناجع الأثر من تركيب صديقي البارع الراهب (أديلمونت) الذي علمني طريقة استعماله».

فقالت: «الواقع انني في حاجة الى استشارة مثل الدكتور اديلمونت كي يبتدع لي دواء لنوبات الاغماء العصبي التي تنتابني، فيجعلني أتنفس بسهولة و يهدىء ثائرتي وانزعاجي الذي مبعثه الخوف من أن أموت يوماً مختنقة خلال نو بة من تلك النو بات. وحتى يتيسر لي ذلك العلاج، ونظراً الى أن صديقك الراهب قد يكون مستعداً للحضور الى باريس خصيصاً من أجلي، فاني مضطرة لأن أستمر في استعمال دواء مسيو (بلانشين) المضاد للتشنجات، فضلا عن قطرات (هوفمان) وأقراص النعناع.. واليك بعض الأقراص التي ركبت خصيصاً من أجلي..».

وفتح الكونت الصندوق الصغير الذي قدمته اليه، واختبر رائحة الأقراص بمقدرة الهاوي الخبير بما تحوي من مركبات.. ثم قال: «إنها

قو ية الأثر، ولكن لما كانت تؤخذ من طريق الفم فان تناولها يتعذر على الانسان أثناء اغمائه، ولهذا أفضل عليها دوائي!».

فقالت: «بلا شك، وأناأيضاً أفضله، بعدما رأيت من قوة تأثيره.. لكنك تعتبره سراً بطبيعة الحال، ولست من التطفل بحيث أطلبه منك!».

فقال: «لكني من الشهامة بحيث أتطوع لتقديمه لك يا سيدتي!».

وبدا السرور والاغتباط في وجه مدام دي فيللفور، بينما واصل الكونت كلامه فقال:

ـ ان جرعة صغيرة منه علاج نافع، أما الجرعة الكبيرة فسم قاتل.. القطرة الواحدة تكفي لرد الحياة الى الجسم كما رأيت، أما خمس قطرات فانها تقتل.. و يزيد في خطورتها انها لو وضعت في كأس من النبيذ مثلا لا تبين لها رائحة مطلقاً!

وهنا دقت الساعة السادسة والنصف، وأعلن الخادم وصول سيدة من صديقات مدام دي فيللفور جاءت لتتناول العشاء معها.. فقالت ربة البيت لضيفها الكبير:

ـ لو كانت هذه هي زيارتك الثالثة أو الرابعة يا سيدي الكونت.. ولو كان لي شرف الحظوة بصداقتك، وبدلا من أن تكون لي سعادة العرفان بجميلك فقط.. لأصررت على دعوتك للبقاء وتناول العشاء معنا، لكني أخشى أن يشوب رفضك الدعوة الآن صداقتنا في بدايتها؟».

فقال: «أشكرك ألف شكر يا سيدتي.. لكني في الواقع مرتبط بموعد لا أستطيع أن أتحلل منه!».

فقالت: «اذن فالى اللقاء، ولا تنس الدواء..!».

فقال: «لن أنساه يا سيدتي، لأني لكي أنساه يجب أن أنسى الحديث الطلي الذي كان بيننا طيلة ساعة كاملة، وهذا أمر مستحيل في نظري!».

ثم نهض محيياً وانصرف، بينما بقيت مدام دي فيللفور شاردة الفكر لحظة، تحدث نفسها: «انه رجل غريب الأطوار، واعتقد انه هو نفسه الطبيب (اديلمونت) مبتكر طريقة تركيب الدواء!».

أما الكونت كريستو فقد فاقت نتيجة المقابلة كل ما كان يرجوه، فحدث نفسه وهو منصرف من البيت: «هذا بديع!.. انهاتربة خصبة وأنا واثق ان البذرة التي بذرتها لن تموت!».

وفي صباح اليوم التالي أرسل قنينة الدواء.. وفاء بوعده!

أب.. وابن... زائفان!

نهض الكونت دي مونت كريستو لاستقبال ضيفه الغريب وابتدره بقوله: «دعني أتذكر: ألست المركيز بارتلميو كافالكانت البكباشي بالجيش النمسوي سابقاً؟. لقد أرسلك الأب بوزوني.. أليس كذلك؟».

وأومأ الضيف موافقاً، وقال وهو يناول الكونت خطاباً مغلقاً: «وقد حملني الى فخامتك هذا الخطاب!».

فتناول منه الكونت الخطاب وقرأ فيه: «البكباشي كلفالكانتي، من نبلاء (لوتشا) وسليل أسرة كافالكانتي الشهيرة بفلورنسا.. يملك ايراداً قدره نصف مليون فرنك، وهو شخص لا ينقصه من أسباب السعادة غير أن يسترد ابنه الحبيب الضائع الذي سرق منه في طفولته أما بواسطة عدو له من أسرته النبيلة وأما بواسطة الغجر.. وقد جددت أمله حين ذكرت له أن في مقدورك أن ترد اليه ابنه الذي يبحث عنه دون جدوى منذ خمسة عشر عاماً!».

ثم أردف الكونت قائلا: «ان في مقدوري حقاً أن أصنع لك ذلك... أرد اليك ابنك أندريا!».

فقال الضابط في برود تام: «لقد حسبت ذلك.. ولعله هنا؟».

فقال الكونت: «نعم.. ولكن ينبغي أن تتمالك عواطفك ريثما أعد الشاب للقائك!».

.. ثم مضى الكونت الى غرفة جانبية، حيث كان يوجد شاب أنيق المظهر جليل الهيئة، وصل منذ نصف ساعة.. فخاطبه بقوله: «أعتقد أني أتحدث الى الكونت أندريا كالفالكانتي؟».

فكرر الشاب الاسم وراءه وهو ينحني: «الكونت أندريا كالفالكانتي!».

ــ وأنت تحمل خطاب تقديم موجه الي وموقع بامضاء «السندباد البحري»، أليس كذلك؟.. إنه صديق حميم لي.. وهو ثري انجليزي ذو شذوذ يبلغ حد الجنون، واسمه الحقيقي اللورد و يلمور.. فهلا تكرمت بأن تعطيني بعض المعلومات عن نفسك وأسرتك؟

ــ بلا شك، أنا الكونت أندريا كالفالكانتي ابن البكباشي بارتلميو كالفالكانتي سليل أسرة كافالكانتي التي ورد ذكرها في الكتاب الذهبي لمدينة فلورنسا. وأسرتنا برغم أنها ما تزال تتمتع بالثراء وايراد أبي يصل الى النصف مليون ــ الا انها عانت كثيراً من المتاعب والاحداث السيئة، فأنا مثلا قد اختطفت في سن الخامسة بمساعدة معلمي الخائن، بحيث انقضت علي منذ ذلك التاريخ خمسة عشر عاما لم أر فيها الشخص الذي كان السبب المباشر في وجودي.. ومنذ بلغت رشدي وصرت سيد نفسي لم أتوان عن البحث عن والدي بكل الوسائل ولكن دون جدوى.. حتى تلقيت أخيراً هذا الخطاب من صديقك المذكور وفيه أن أبي موجود في باريس، وأن علي أن أتصل بك كي ترشدني إلى المعلومات الخاصة به!

ــ لقد أحسنت اذ نفذت تعليمات صديقي السندباد البحري بدقة، فان أباك موجود هنا حقاً، وهو يبحث عنك كما تبحث عنه!

ــ حقا؟.. هل أبي هنا حقاً؟!

ــ نعم، أبوك البكباشي برتلميو كافالكانتي بعينه!

وعندئذ تبدد تعبير الرعب الذي كسا وجه الشاب لدى سماع النبأ لأول وهلة، ثم قال: «آه يا سيدي، لقد مضت سنوات طويلة منذ افترقنا، بحيث لم أعد أذكر شكل أبي على الاطلاق!».

ـ سوف تراه الآن.. انه مليونير، ايراده السنوي ٥٠٠ ألف فرنك، سوف يمنحك منها خمسي ألفاً كل سنة طيلة مدة بقائك في باريس، على أن تتسلم نصيبك الشهري منها من بنك (دانجلر) الذي هو من أكبر البيوت المالية الباريسية.

ـ وهل يعتزم أبي البقاء في باريس طو يلا؟

ـ بضعة أيام فقط، فان خدمته العسكرية لا تسمح له بالتغيب أكثر من أسبوعين أو ثلاثة على أكثر تقدير!

وهنا بدا على أندريا السرور بقرب رحيل أبيه.. بينما قال الكونت: «انني لن أعوق لقاءكما المرتقب وقتاً آخر، فهل أنت متأهب لمعانقة أبيك؟

ادخل اذن الحجرة المجاورة أيها الصديق، فترى أباك مشوقاً الى رؤيتك».

وانحنى اندريا للكونت محييا شاكراً، ثم دخل الحجرة.. أما الكونت فقد انتظر حتى أغلق الشاب الباب وراءه، واذ ذاك مضى هو الى صورة كبيرة معلقة على الحائط فأزاحها في رفق حتى انكشفت له وراءها ثغرة خفية تسمح للناظر خلالها برؤية ما يدور في الغرفة المجاورة.. فرأى الشاب يتقدم نحو الكهل قائلا بصوت عال ـ تعمد أن يسمعه الكونت في الحجرة الأخرى:

ـ آه، أبي العزيز! أهذا حقا أنت؟

فقال الضابط في لهجة الجد: «كيف أنت يا ابني العزيز؟».

وعندئذ أردف الشاب وهو يأخذ ذراع الضابط في ذراعه كمن يعرفه منذ زمن: «أيها العزيز مستر كافالكانتي، كم دفعوا لك كي تمثل دور أبي؟. إني سأصارحك بسري كي تصارحني بسرك، انهم يدفعون لي خمسين ألف فرنك في السنة كي أكون ابنك!

– وأنا بدوري يدفعون لي مثل هذا المبلغ لأمثل دور أبيك!

..واختار الكونت هذه اللحظة كي يدخل الحجرة. فلما سمعا مقبض الباب يفتح ألقى كلاهما نفسه في أحضان الآخر وراحا يتبادلان القبلات.. وفي خلال عناقهما دخل الكونت فابتدرهما بقوله: «والآن أيها السيدان طاب يومكما، فاني منصرف!».

فتساءل كافالكانتي: «متى يكون لنا شرف رؤية فخامتك مرة أخرى؟».

فأجابه: «يوم السبت، اذا شئتما.. وسوف أتناول العشاء في منزلي في (أوتوى) شارع النافورة رقم ٢٨. وقد دعوت كثيرين، بينهم مسيو دانجلر. و يسرني أن أعرفكما اليه فهو الذي سيدفع لك يا أندريا مرتبك الشهري!».

وعندئذ انحنى الاثنان للكونت مودعين. ثم غادرا المنزل!

وصية مشلول

مشى مكسمليان موريل الى حديقة دار مسيو دي فيللفور. وقد سادها السكون وحجبتها أشجار الكستناء العالية المحيطة بها عن الانظار.

ولبث بعض الوقت قلقا يترقب ظهور فالنتين دي فيللفور من بين الاشجار، و يرهف سمعه ليسمع وقع خطاها فوق المشى المفروش بالحصى.. ولم تمض دقائق حتى أقبلت فالنتين للقائه. ووقفت ازاءه يفصل بينهما سور الحديقة المرتفع ثم ابتدرته قائلة: «طاب مساؤك يا مكسمليان. أعلم أني تركتك تنتظر، لكن أوجيني دانجلر كانت معي فعاقتني. كانت تحدثني عن نفورها من الزواج من مسيو دي مورسيرف. فصارحتها أنا أيضاً بنفوري من فكرة الزواج من مسيو دبيناي!».

فسألها: «هل الآنسة دانجلر تنفر من الزواج بالمسيو مورسيرف لأنها تحب شخصاً آخر؟».

فأجابت: «كلا!. فقد ذكرت لي أنها لا تحب أحداً. وأنها تعارض الزواج ذاته، وتفضل أن تعيش حرة بلا قيود.. حتى أنها لتتمنى أحياناً أن يفقد أبوها ثروته كي تحترف الفن مثل صديقتها الآنسة لويز دارميني.. لماذا تبتسم؟».

ـ دعينا من اضاعة وقتنا في الحديث عنها. فانيأريد أن نتحدث عنك أنت!

ـ هذا صحيح. ويجب أن نسرع، فليس أمامنا غير عشر دقائق نقضيها معاً.. نعم أنت على حق. فلست سوى صديقة فقيرة لك. وأية حياة أفرضها عليك يا عزيزي المسكين مكسمليان. أنت الذي خلقت للسعادة؟! اني لألوم نفسي لوماً مريراً!!

ـ ما هذا الذي تقولين يا فالنتين؟. وماذا يهمك من الأمر ما دمت أنا قانعاً بهذه الحال. وما دمت شاعراً بأن لقاءك ولو لخمس دقائق. وسمع بضع كلمات من فمك العذب يعوضانني حتى عن هذا الانتظار الطويل الموجع؟.. اني لأعتقد اعتقاداً جازماً أن السماء ما كانت لتخلق قلبين منسجمين مثل قلبينا. وتسمح لنا ـ بمعجزة ـ بأن ننشأ معاً. لو أنها كانت تريد أن تفرق بيننا آخر الأمر!

ـ كلماتك رقيقة ومشجعة يا مكسمليان.. إنها سوف تمنحني على الأقل سعادة جزئية!

ـ ولكن ما الذي يلجئك الى أن تفارقيني هكذا سريعاً؟

ـ لست أدري التفصيلات بالضبط. وكل ما أعرفه أن مدام دي فيللفور قد أرسلت في طلبي لأمر يتعلق بجزء من ميراثي.. ليتهم يأخذون ثروتي فليست بي حاجة اليها. ولعلهم لو أخذوها يكفون عن

ازعاجي و يتركونني في سلام وسكينة.. واني لعلى يقين من أنك تحبني حينذاك مثلما تحبني اليوم، أليس كذلك يا مكسمليان؟

ـ اني أحبك دائماً!.. وماذا يهمني من الغنى أو الفقر ما دامت حبيبتي فالنتين بجانبي؟.. آه كنت أوشك أن أذكر لك أنني قابلت مسيو مورسيرف منذ أيام، وكان قد تلقى خطاباً من صديقه دابياناي يخبره فيه بأنه عائد تواً.

وهنا شحب وجه فالنتين واتكأت بيدها على سور الحديقة قائلة:

ـ رباه!.. لو كان الأمر كذلك؟!.. ولكن لا.. ان المفاوضات قد لا تأتي من طريق مدام دي فيللفور، فقد خيل الي أنها عارضت ذلك الزواج، وان لم تشأ أن تصرح بذلك علانية!

ـ أظن أنها تعارض زواجك من مسيو دبيناى وحده.. أي أنها سترحب بأي اقتراح آخر؟

ـ كلا يا مكسمليان. انها تعارض فكرة الزواج ذاتها.. وحين فكرت منذ نحو عام في أن أعتزل الدنيا وألجأ الى أحد الأديرة. سعت خفية الى تنفيذ هذه الفكرة، بل لقد أقنعت أبي بقبولها. ولولا توسلات جدي المسكين لنفذت عزمي يومذاك.. انك لا تستطيع أن تتخيل التعبير الذي يبدو في عيني الشيخ الفاني حين ينظر الي. أنا المخلوق الوحيد الذي يحبه و يبادله الحب!

ـ حبيبتي فالنتين.. انك لملاك كريم. ولست أدري أي عمل طيب عملته حتى أستحق منك حبك وثقتك؟!.. ولكن حدثيني بربك. أية مصلحة لمدام دي فيللفور في أن تبقي أنت بدون زواج؟

ـ ألم أقل لك منذ لحظة أنني غنية، وغنية جداً؟.. لقد ورثت عن أمي ما يدر علي سنوياً نحو خمسين ألف ريال، فضلا عن ايراد مماثل سوف يتركه لي جدي وجدتي ـ لأمي ـ المركيز والمركيزة دي سانت ميران.. وفضلا عما يعتزمه مسيو نوارتييه ـ جدي لأبي ـ من جعلي

وريثته الوحيدة.. وهكذا يصبح أخي ادوار ــ الذي لن يرث شيئاً عن أمه ــ فقيراً بالنسبة لي.. أما لو دخلت الدير فسوف تؤول كل ثروتي هذه الى أبي، ثم الى أخي ادوار، ابنها!

ــ ما أغرب أن تكون بهذا الطمع امرأة مثل مدام دي فيللفور!

ــ انها رذيلة يغدو فضيلة من وجهة نظر الحب الأموي.. هل تسمع؟.. انهم ينادونني!

ثم صعدت فالنتين فوق مقعد خشبي ومدت يدها الى حبيبها من خلال السور، فتلقى مكسمليان اليد الممدودة نحوه بغبطة ونشوة فائقتين، ثم طبع عليها قبلة حارة تذكيها العاطفة.. واذ ذاك ارتدت اليد الى داخل السور، ثم رأى الشاب محبوبته تهرع عائدة الى المنزل!

في الوقت الذي جرى فيه ذلك الحديث بين فالنتين ومكسمليان كان المسيو دي فيللفور وزوجته قد دخلا حجرة أبيه مسيو نوارتييه.. وبعد أن أومأ بالتحية الى الشيخ المسن المشلول، وقفا بجانبه يتحدثان مع (باروا) الذي قضى في خدمته خمسة وعشرين عاماً.

وكان المسيو نوارتييه قد انتهت حياته العامة والسياسية بوصفه من حزب نابليون منذ انفجر أحد الأوعية الدموية في مخه، فقضى عليه بأن يظل بقية حياته حبيس مقعده المريح ذي العجلات الذي كان يوضع طيلة النهار في مواجهة مرآة كبيرة يستطيع المريض أن يرى أكثر أجزاء المسكن حوله!

وبرغم أن مسيو نوارتييه كان في جلسته أشبه بالجثة الهامدة، فقد ألقى على الداخلين نظرة سريعة ذكية، أدرك بها من طريقتهما الحائرة في تحيته أنهما جاءا ليتحدثا اليه في أمور مالية ذات طابع هام!.. ولم يكن قد بقي للمسكين من حواسه غير حاستي النظر والسمع، اللذين تركز فيهما كل نشاطه وحدة ذهنه. فصارت النظرة منه تغني عن حركة الذراع ونبرة الصوت ومرونة الجسم، في التعبير عما يريد أن



« ومدت فالنتين يدها الى مكسمليان من خلال السور ، فطبع عليها قبلة حارة »

يفصح عنه.. ولو أن لغته هذه لم يكن يفهمها بوضوح غير أشخاص ثلاثة: ابنه دي فيللفور، وحفيدته فالنتين، وخادمه باروا..!

وكان دي فيللفور قد أرسل ابنته الى الحديقة ثم أشار الى الخادم باروا بمغادرة الحجرة، وجلس بعد ذلك عن يمين أبيه المشلول، بينما جلست زوجته الى يساره.. واستهل حديثه بقوله: «اننا نفكر في تزو يج فالنتين يا أبي.. وسوف يتم الزواج في مدى ثلاثة أشهر».

.. وهنا أضافت مدام دي فيللفور: «لقد كنا واثقين من أن هذا النبأ سوف يفرحك، ولا سيما أنك تخص فالنتين بحبك وحنانك.. ولم يبق إلا أن نذكر لك اسم الشخص الذي وقع عليه اختيارنا: انه شاب يملك الثروة الطائلة، والمكانة الرفيعة في المجتمع. وكل الصفات الكفيلة باسعاد فالنتين.. وهو ليس بالشخص الذي تجهله أنت تماماً، انه فرانز دي كينيل، بارون دييبناى!

وبدا الغضب في عيني نوارتييه، احتبست في حلقه صيحة حنق وحزن، بينما استطردت المرأة: «وهذا الزواج يصادف هوى من نفس المسيو دييبناى نفسه وأسرته، وأقرب الاحياء من أقربائه إليه هما عمه وعمته ـ فقد ماتت أمه عند ولادته وقتل أبوه سنة ١٨١٥، أي بعد سنتين من موت أمه ـ وهكذا يمكن القول بأن الفتى نشأ سيد نفسه وليس لأحد سلطان على رأيه أو اختياره لشريكة حياته».

وأردف فيللفور قائلا: «ان مصرع أبيه كان مأساة غامضة، وقد نجا القتلة من العقاب، وان حامت الشبهة حول أكثر من واحد!».

ثم عادت الزوجة فقالت: «والآن يا سيدي استأذنك في الانصراف.. هل تريدني أن أرسل اليك ادوارد ليؤنسك بعض الوقت؟».

فحرك الشيخ المشلول أهداب عينيه مرات. علامة الرفض.. وعندئذ سألته المرأة: «اذن.. هل أرسل اليك فالنتين؟». فأغمض عينيه،علامة القبول!

وهنا انحنى له الزوجان مغادرا الغرفة، بعد أن أوصيا الخدم باستدعاء فالنتين تلبية لرغبة جدها، وكانا يعلمان أنها ستجد عناء كبيراً في تهدئة ثائرته..!

دخلت فالنتين بعد خروج أبيها وزوجته من الحجرة بقليل. وأدركت من أول نظرة الى جدها أنه قلق، وأن في ذهنه كلاما كثيراًيريد أن يفضي به اليها.. فصاحت جزعة: «جداه!.. ماذا حدث؟. هل حدثاك عن تزو يجي؟».

فأجابها الرجل بنظرة غاضبة: «نعم».

ــ انك لا تحب مسيو دييناى؟

فأجابتها عيناه: «لا. لا. لا..!».

وعندئذ ارتمت الفتاة على ركبتيها وأحاطت رقبة جدها بذراعيها قائلة: «وأنا أيضاً لا أحبه!». فلمعت في عيني الشيخ نظرة فرح!

فأغمض عينيه مرات يعني أنه يستطيع هذه المساعدة. ثم رفع بصره الى السماء اشارة الى أنه يريد شيئاً، فسألته فالنتين: «ماذا تريد يا جدي العزيز؟». ثم راحت تردد على مسمعه الاشياء التي رجحت أن تكون مبتغاه، لكنه أجابها عن كل منها باشارة الرفض من عينيه. ففكرت في تجربة طريقة أخرى، وبدأت تسرد عليه الحروف الأبجدية بالترتيب،حتى أبدى حركة الموافقة عند نطقها بحرف «الميم».. فقالت جذلة: «اذن فالشيء الذي تريده يبدأ اسمه بحرف الميم.. ترى: هل ميمه مفتوحة؟ أم مكسورة؟ أم مضمومة. واذا أدركت من نظرته أنه يريد شيئاً يبدأ بحرف الميم المضمومة، نهضت وأحضرت قاموساً وراحت تنقل أصابعها بين كلمات الميم المضمومة فيه، الى أن أومأ جدها بعينيه موافقاً عند كلمة «مسجل عقود».. فدقت الفتاة الجرس وطلبت استدعاء أحد مسجلي العقود..!

وبعد ثلاثة أرباع الساعة، دخل «باروا» وبصحبته مسجل العقود

المطلوب.. ثم دخل في أعقابهما مسيو فيللفور، وبعد تبادل التحيات التقليدية قال الابن يحدث المسجل:

ــ ها أنت ذا ترى الشخص الذي أرسل في استدعائك.. ان جميع أعضاء جسمه مصابة بالشلل، حتى صوته.. ونحن نجد صعوبة كبيرة في فهم ما يريد أن يقول».

وهنا أومأ المريض الى حفيدته بنظرة آمرة، فهمت قصده منها، فقالت للمسجل على الفور: «سيدي، اني أفهم كل ما يريد جدي أن يقوله».

فأجابها المسجل: «لكي تكون الوصية نافذة، ينبغي أن أستوثق من رغبات موكلي. ان عجز الجسم لا يؤثر في صحة التصرف، اذا كان العقل سليماً!».

فقالت له الفتاة: «سوف ترى يا سيدي أن جدي مالك لجميع قواه العقلية ونشاطه الذهني.. وفي وسعك أن تتفاهم معه بالطريقة التي أتفاهم بها أنا معه. انه في مقام الموافقة يغمض عينيه، وفي مقام الرفض يحرك أهدابه عدة مرات.. الآن تستطيع أن تتفاهم معه بسهولة!».

وهنا نظر الجد الى حفيدته نظرة شكر وامتنان لم تغب عن فطنة المسجل نفسه، فقال يسأله: «لقد سمعت وفهمت ما قالته حفيدتك، فهل توافق على مغزى الاشارتين اللتين تحدثت عنهما، كوسيلة للتعبير عن آرائك؟».

ولما أغمض الشيخ عينيه علامة الموافقة، التفت المسجل الى المسيو دي فيللفور قائلا:

ــ انها طريقة شاذة في التفاهم..!

فقال منتهزاً الفرصة: «نعم، وأعتقد أنها ستكون شاذة في تسجيل الوصية، فلست أفهم كيف يمكن ذلك بلا تدخل من فالنتين، ولعل لها

مصلحة في الوصية تجعلها لا تصلح مفسرة لائقة للتعبير عن رغبات جدها الغامضة غير الصريحة!».

•

وهنا حرك المشلول أهدابه محتجاً، فسأله دي فيللفور: «ماذا تعني يا أبي؟.. أليس لفالنتين مصلحة في الوصية؟».

وأومأ الشيخ نافياً أن لها مصلحة فيها، فقال مسجل العقود لدى فيللفور: «سيدي.. ان ما بدا لي مستحيلا منذ ساعة واحدة قد صار الآن ميسوراً معقولا، وسوف تكون الوصية شرعية نافذة اذا قرئت في حضور سبعة من الشهود وقرأها الموصى وسجلها المسجل أمام الشهود!».

ثم التفت الى الشيخ الموصى وسأله: «هل تعرف مقدار ثروتك بالضبط؟». فلما أجاب باغماض عينيه دلالة على الموافقة واصل المسجل كلامه فقال:

ـ سأذكر لك عدة أرقام، فاذا بلغت الرقم الصحيح فعليك أن تنبهني باشارة الموافقة.. هل ثروتك ٣٠٠ ألف فرنك، كلا؟.. اذن أهي ٤٠٠ ألف ؟. تقول كلا أيضاً؟.. اذن هي ٦٠٠ ألف؟ ٧٠٠ ألف؟ ٨٠٠ ألف؟ ٩٠٠ ألف؟

وهنا أشار المسيو نوارتييه اشارة الموافقة، فكرر المسجل سؤاله:

ـ هل تملك ٩٠٠ ألف فرنك؟.. حسناً!.. وهل هي عقارات؟ كلا؟ اذن أسهم وسندات؟. حسناً يا سيدي وهل الاسهم في حيازتك؟

وهنا نظر نوارتيه الى خادمه (باروا) نظرة فهم الاخير معناها فخرج من الحجرة ثم عاد بعد حين يحمل صندوقاً صغيراً.. فسأل المسجل الموصى: «هل تسمح لنا بفتح هذا الصندوق؟».

فأغمض المشلول عينيه علامة الموافقة.. فلما فتحوا الصندوق وجدوا فيه أسهماً وأوراقاً مالية قيمتها ٩٠٠ ألف فرنك بالضبط، فقال المسجل:

ـ واضح أن المسيو نوارتييه محتفظ بقواه العقلية ونشاطه الذهني كاملا!

ثم التفت الى الموصي يسأله: «الى من تريد أن تترك هذه الثروة؟».

.. فقالت مدام دي فيللفور مقاطعة: «أوه!. ليس ثمة شك كبير في هذا الصدد، فان مسيو نوارتييه يحب حفيدته الآنسة دي فيللفور.

وهنا التفت المسجل يسأل نوارتييه: «اذن فأنت تترك هذه الثروة لحفيدتك الآنسة دي فيللفور؟».

وتأهب المسجل لأن يسجل موافقة الموصي على ذلك.. وكانت فالنتين خلال ذلك قد انزوت في أحد أركان الغرفة وأطرقت تبكي!.. فنظر جدها اليها نظرة تفيض رقة وعطفاً.. ثم حرك أهدابه مرات، علامة الاجابة عن سؤال المسجل بالنفي!

وكانت مفاجأة.. بددها سؤال المسجل للموصي: «اذن، هل تبغي ترك ثروتك لحفيدك ادوار دي فيللفور؟».

لكن الشيخ حرك أهدابه أيضاً بما ينم عن الرفض البات!

فعاد المسجل يسأله: « أترفض ذلك أيضاً؟.. اذن ربما يكون قصدك الايصاء بثروتك لابنك مسيو دي فيللفور؟.. ولا هذا أيضاً؟».

وهنا انتقلت نظرة المشلول بسرعة من فيللفور وزوجته، الى حيث استقرت على يد فالنتين.. فسألته في دهشة:

ـ يدي؟.. نعم؟.. ثم صاحت الفتاة: «آه، فهمت.. أنت تقصد زواجي، أليس كذلك يا جدي العزيز؟».

فكرر الجد اشارة الموافقة ثلاث مرات، وهو ينظر الى حفيدته نظرة عرفان بالجميل لكونها فهمت مراده.. بينما قال فيللفور: «حقا ان هذا أمر شاذ للغاية!».

فأجابه المسجل: «اسمح لي يا سيدي أن أقول ان الأمر على العكس، فالمعنى الذي يقصده المسيو نوارتييه واضح تماماً في نظري، في وسعي أن أربط تسلسل الافكار التي تدور في ذهنه بسهولة!».

وهنا سألت فالنتين جدها: «أنت تريدني ألا أتزوج من مسيو ديبيناي؟».

فأجابتها ايماءة عين جدها مؤمنة على كلامها.

وعندئذ استطرد المسجل يسأله: «وأنت تبغي تجريد حفيدتك من الارث لانها خطبت الى رجل بلا موافقة منك؟.. حسناً!.. هل اذا عدلت الفتاة عن الزواج من ذلك الرجل تصبح وريثتك الوحيدة؟».

فأومأ الشيخ المشلول موافقاً!

ثم ساد صمت عميق، قطعه المسجل مستطرداً:

ـ كيف تبغي أن توزع ثروتك فيما لو أصرت الآنسة دي فيللفور على الزواج من مسيو فرانز؟. هل تريد تخصيصها للاعمال الخيرية؟ نعم؟.. لكنهم قد يثيرون نزاعاً حول تنفيذ الوصية بعد وفاتك؟ كلا؟

وهنا تدخل فيللفور في المناقشة قائلا: «إن أبي يعرفني و يثق من أن رغباته سوف تعتبر مقدسة في نظري.. ثم أنه يدرك تماماً أني بحكم مركزي لا أستطيع اتخاذ موقف عدائي نحو الطبقات الفقيرة!».

وهنا مضت عينا نوارتييه ببريق الانتصار.. فسأل المسجل دي فيللفور: «وماذا تعتزم اذن يا سيدي؟». فأجاب هذا: «لا شيء. لقد اتخذ أبي قراراً وأنا أعلم أنه لا يغير رأيه مطلقاً، فلم يبق أمامي غير الاذعان.. ثم غادر دي فيللفور الغرفة على الأثر، مصحوباً بزوجته، تاركين للمشلول أن يفعل ما يشاء..!

وفي اليوم نفسه سجلت الوصية بحضور الشهود، وأقرها الموصي، وختمت أمام الجميع ثم سلمت الى مسيو «ديشان» المشرف على تنفيذ وصايا الأسرة.

مناورات في البورصة

غادر الكونت دي مونت كريستو باريس في اليوم التالي لتسجيل الوصية، متخذاً الطريق المؤدي الى «أورليان»، فبلغ برج «مونتليري» الواقع في أعلى بقعة من السهل المعروف باسمه.. وعند سفح التل ترجل الكونت وبدأ يتسلق ممراً ملتو ياً يؤدي الى حديقة صغيرة.. حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل في نحو الخمسين من عمره يقطف ثمار «الفراولة» و يضعها على أوراق العنب.. فابتدره الكونت قائلا وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الشعور بالعطف: «هدىء من روعك يا صديقي.. اني لست مفتشاً، بل سائحاً حضر مدفوعاً بفضول يكاد يأسف الآن عليه اذ يراك توشك أن تضيع جانباً من وقتك معه».

فقال الرجل: «هل حضرت يا سيدي لترى البرقية؟».

فقال الكونت: «نعم.. اذا لم يكن ذلك مخالفا للقواعد.. لقد قيل لي انك أنت نفسك لا تفهم دائماً الاشارات التي تكررها.».

فأجاب الرجل وهو يبتسم: «هذا صحيح يا سيدي، وهذا ما أفضله، لانه يريحني من المسئولية و يجعلني أشبه بالآلة لا أكثر ولا أقل.. وما دمت أعمل فلن يطلب مني أحد شيئاً آخر!».

وصعدا الى غرفة البرق، في الطابق الثالث، فنظر الكونت الى المقبضين الحديدين اللذين تدار بهما الآلة، ثم قال: «هذا أمر مسل للغاية، وهل أنت حقا لا تفهم شيئاً من هذه الاشارات؟».

فقال الرجل: «هناك اشارات توجه الى خاصة. وهي دائماً تتكرر، دون تغيير ما، ونصها: (لا جديد.. أمامك ساعة.. أو غداً!).. وهكذا ترى أني لا يمكن أن أفهم شيئاً مطلقاً من هذه الاشارات؟».

فقال الكونت: «هذا أمر بسيط، ولكن انظر.. ألا يخاطبك مراسلك الآن؟.. ماذا يقول؟ هل فهمت شيئاً؟».

فقال الرجل: «انه يسألني أأنا مستعد؟. ومتى أجبته بالاشارة التي تنبىء باستعدادي، فان مراسلي ـ الذي الى اليمين ـ نفهم ذلك أيضاً، بينما مراسلي الذي الى اليسار يأخذ أهبته بدوره!».

فقال الكونت: «انه ابتكار ينم عن الذكاء الخارق!».

فقال الرجل مزهواً: «سوف ترى.. انه سيتكلم خلال خمس دقائق».

وهنا حدث مونت كريستو نفسه قائلا: «أمامي اذن خمس دقائق.. انها أكثرمما يلزم..» ثم استطرد يسأل الرجل:

ـ هل أنت شغوف بفلاحة الحدائق يا سيدي؟. وهل يسرك أن يكون لك بدلا من هذه الحديقة التي طولها عشرون قدما بستان مساحته فدانان!».

فقال الرجل: «اني لكفيل بأن أجعل منها جنة أرضية!».

فقال الكونت: «اذن.. أنت توافق لقاء هذا على تغيير بسيط أريده في رسالة مراسلك؟!».

فتساءل الرجل: «ماذا تعني يا سيدي؟.. ان هذا لا يمكن أن يحدث ما لم تقهرني على القيام به!».

فقال الكونت: «أعتقد أن في وسعي أن أقهرك!».

ثم أخرج من جيبه ظرفاً، مد يده به الى الرجل قائلا:

ـ هاك خمسة وعشرين ألف فرنك، تستطيع أن تشتري بخمسة آلاف منها منزلا صغيراً جميلا تحيط به أرض مساحتها فدانان... وبقية المبلغ تدر عليك ايراداً سنوياً قدره الف فرنك!

ـ منزل له حديقة مساحتها فدانان؟. وماذا يطلب مني أن أفعل مقابل ذلك؟

ـ لا شيء سوى أن ترسل هذه الاشارات الى وزير الداخلية!

وأخرج مونت كريستو من جيبه ورقة كتب عليها ثلاث اشارات موضح أمام كل منها رقم ترتيبها بالنسبة الى الاشارتين الاخريين!

وبعد حوار قصير، نفذ الرجل ما طلب منه وقد احتقن وجهه وتصبب العرق من جبهته، وأرسل الاشارات الثلاث الى وزير الداخلية كما طلب الكونت!

وبعد وصولها الى الوزير بخمس دقائق، أمر سكرتيره «دبراي» باعداد عربته وهرع الى منزل «دانجلر».. وحين لم يجده في البيت سأل زوجته البارونة: «هل يملك زوجك اسهما اسبانية؟».

فقالت: «أعتقد ذلك.. أذكر أن عنده منها ما قيمته ستة ملايين من الفرنكات»!

ـ اذن يجب أن يبيعها فوراً بأي سعر، فلقد فر «دون كارلوس» من «بورج» وعاد الى اسبانيا!

وهرعت البارونة الى زوجها، الذي هرع بدوره الى وكيله. وأمره ببيع تلك الاوراق المالية فوراً بأي ثمن.. وحين رئي في البورصة ان دانجلر يبيع ما عنده هبط سعر الاسهم الاسبانية في الحال.. وقد خسر دانجلر في البيع خمسمائة الف فرنك، ولكنه تخلص من جميع أسهمه الاسبانية.. وفي الليلة نفسها، نشرت جريدة «لوميساجير» النبأ التالي:

«من مراسلنا بالبرق: غافل الملك دون كارلوس حراسه في «بورج»

وعاد الى اسبانيا مخترقاً حدود قطالونيا، فهبت برشلونة لمؤازرته ونصرته!».

وفي تلك الامسية لم يكن للناس من حديث غير بعد نظر دانجلر وحظه المواتي الذي جعله يبيع كل أسهمه الاسبانية قبل انهيار أسعارها بساعات، فلم يخسر فيها غير خمسمائة ألف فرنك، بينما خسر الذين لم يبيعوا أسهمهم والذين اشتروا أسهمه خسارة مروعة تجعلهم في عداد المفلسين!

وفي صباح اليوم التالي نشرت صحيفة «لومنتيور» التكذيب التالي:

ـ لم يكن للنبأ الذي نشرته «لوميساجير» أمس عن فرار الملك دون كارلوس من منفاه والثورة التي شبت في برشلونة أي نصيب من الصحة.. فالملك ما زال في «بورج» لم يبرحها، وشبه الجزيرة ينعم بسلام وسكينة تامين.. وقد نتج الخطأ عن رسالة برقية أسيء تفسيرها بسبب الضباب الذي كان منتشراً أمس!

وعلى أثر نشر هذا التكذيب عادت أسعار الاسهم فارتفعت الى أكثر مما كانت قبل الهبوط، فبلغت خسارة دانجلر من البيع مليون فرنك!

وما وافت الساعة الخامسة مساء حتى وصل الكونت دي مونت كريستو الى منزله الريفي في «أوتوى»، يتبعه «علي» خادمه العربي الأمين. وفي تمام الساعة السادسة سمع وقع حوافر جواد عند مدخل البيت.. وكان «مكسمليان موريل» هو الفارس القادم!

وفي اللحظة نفسها وصلت عربة تجرها جياد مطهمة يحف بها جوادان آخران يمتطي صهوتهما رجلان، هبط أحدهما ـ وكان «دبراي» سكرتير وزير الداخلية ـ وتقدم نحو باب العربة ففتحه ومد يده لراكبتها البارونة، فأخذت يد الشاب بطريقة لم تغب عن فطنة الكونت دي مونت كريستو. ثم لاحظ الكونت أيضاً أن البارونة دست في

يد الشاب ورقة صغيرة، وقد فعلت ذلك في يسر وسهولة، شأن المرأة التي ألفت هذه المناورات!

ثم ألقت البارونة على الفناء المحيط بها وعلى واجهة المنزل نظرة استطلاع سريعة لم يغب مغزاها على الكونت، وراحت تصعد السلم وهي تقمع انفعالها جاهدة!

وعلى أثر ذلك أعلن رئيس الخدم وصول «البكباشي بارتلميو كافالكانتي» و «الكونت أندريا كافالكانتي».. ودخل الاثنان يختالان في ثيابهما الجديدة الأنيقة!

وفجأة شحب وجه «برتوشيو» وكيل الكونت دي مونت كريستو، حين وقع بصره من خلال باب الدخول المفتوح على مصراعيه، على المرأة التي تصعد السلم، فهتف هامساً لسيده: «رباه!.. هذه المرأة ذات الثوب الابيض والجواهر الثمينة..!».

فسأله سيده: «ما لها؟.. انها مدام دانجلر!».

ـ لست أعرف اسمها، لكنها هي بعينها العشيقة التي رأيتها في هذه الحديقة بالذات ليلة الجريمة.. المرأة التي كانت تنتظر مولوداً، والتي رأيتها من خلال السور تتمشى بين الاشجار في انتظار...

ـ في انتظار من؟

وثقل لسان بوتوشيو في حلقه ووقف شعر رأسه فزعاً، وهو يحملق في الداخلين ويشير نحو المسيو دي فيللفور كما يشير الى شبح قائم من بين القبور: «في انتظار هذا.. اذن فأنا لم أقتله؟».

فقال له الكونت: «طبعاً ما دمت تراه حياً أمامك الآن فأنت لم تقتله!. انك قد طعنته بين الضلعين السادس والسابع، حسب مألوف عادتكم أيها القرويون، في حين كان ينبغي أن تطعنه في مكان يعلو أو يهبط قليلا عن ذلك الموضع.. فان هؤلاء المحامين يتشبثون بالحياة

أكثر من سواهم!.. والآن انظر الى المسيو أندريا كافالكانتي، الشاب ذي السترة السوداء..!».

وكاد برتوشيو يصرخ دهشة، لو لم تسكته نظرة حازمة من سيده، فاكتفى بأن غمغم «بنديتو!».. وإذ ذاك قال له الكونت متجاهلا كل ما مضى: «الساعة الآن السادسة والنصف، وقد أمرت باعداد العشاء في هذه الساعة، ولست أحب الانتظار!».. ثم تركه وعاد الى ضيوفه، بينما استند برتوشيو الى الجدار حتى تمالك نفسه فمضى متجهاً الى غرفة الطعام!

وبعد خمس دقائق فتح برتوشيو باب القاعة المفضى الى الصالون على مصراعيه وصاح: «العشاء معد!».

وهنا نهض الكونت دي مونت كريستو فقدم ذراعه الى السيدة دي فيللفور، وقال يخاطب زوجها: «هل لك أن ترافق البارونة دانجلر الى المائدة؟».

وبعد الفراغ من العشاء الفاخر، تناول الكونت دي مونت كريستو ذراع البارونة دانجلر وقادها ودي فيللفور الى الحديقة، حيث وجدوا دانجلر يتناول قدحاً من القهوة وقد جلس بين كافالكانتي الاب وكافالكانتي الابن..فقال الكونت بعد أن مهد لحديثه:

ــ لكم أن تصدقوني أو لا تصدقوا.. لكني أعتقد أن جريمة ما قد ارتكبت في هذا المنزل!».

فهتفت السيد دي فيللفور: «خذ حذرك، فان قاضي التحقيق هنا!».

فأجاب الكونت على الفور: «اذا كان الامر كذلك فسأنتهز فرصة وجوده كي أعلن ما عندي أمام شهود.. تعالوا من هذا الطريق يا سادة، تعال يا مسيو دي فيللفور، فان ما سأعلنه ينبغي أن يعلن في مواجهة السلطات المختصة!».

ثم أخذ ذراع دي فيللفور من ناحية، وذراع البارونة دانجلر من الناحية الاخرى، وقادهما الى ظل احدى الاشجار الكثيفة، فتبعهما الباقون.. ثم قال الكونت فجأة وهو يدق الارض بقدمه:

ــ هنا.. في هذه البقعة بالذات، كان بستاني يحفر الارض كي يزودها بتربة جديدة خصبة تعين هذه الاشجار القديمة على الازدهار، فعثر على هيكل صندوق صغير من الحديد، بداخله جثة طفل وليد!».

وأحس الكونت دي مونت كريستو بذراع البارونة دانجلر يتصلب، وذراع دي فيللفور يرتجف، بينما تساءل البكباشي كلفالكانتي في براءة: «وبماذا يقضي القانون هنا على قتلة الاطفال الحديثي الولادة؟».

فأجابه رأي الكونت أن الشخصين اللذين أعد من أجلهما هذا المشهد يعجزان عن تحمل وطأته، ورغبة منه في أن يتدارك الامر عند هذا الحد مؤقتاً، قال في بساطة متقنة:

ــ هيا أيها السادة نتناول القهوة، لقد كدنا ننساها!

ولم يتكلم اندريا الا قليلا خلال العشاء، فقد كان فتى نكياً، خشي أن ينطق بحماقة ما أمام هذا الجمع الحاشد من علية القوم، اللذين كان من بينهم رجل القانون والمالي الكبير... الخ ــ وكان دانجلر قد نقل بصره بين الاب والابن اللذين تبدو عليهما مظاهر الثراء الفاحش، فخيل اليه أنه في حضرة أمير من أمراء بلد شرقي بعيد قد أحضر ابنه ليتم تعليمه في باريس!.. فلما انتهى العشاء راح دانجلر يستجوب عميلي بنكه الجديدين، عن أسلوبهما في المعيشة، بحجة التحدث في «الاعمال».. فأبدى كلاهما من اللطف والدمثة في الاستجابة لفضوله ما أدهشه.

وفي خلال الحديث خاطبه كافالكانتي الاب قائلا في أدب مفرط:

ــ سوف يسرني أن أتشرف غداً يا سيدي بزيارتك بصدد بعض الاعمال.

فأجابه دانجلر: «وسوف يسعدني أن أستقبلك».

ثم عرض عليه البارون أن يأخذه في عربته الى حيث يقيم لفندق «دي برانس».. ما لم يحرمه ذلك من صحبة ابنه.. فأجاب الضابط على هذه العبارة الاخيرة بقوله:

ـ ان ابني قد ألف أن يعيش بعيداً عني، وأن لكل منا عربته وجياده، بحيث يستطيع أن يذهب و يجيء مستقلا عن الآخر!

وهكذا استقل الاب عربة دانجلر وجلس الى جواره.

أما الابن فقد نادى حوذيه وراح يعنفه لأنه وقف بعربته أمام الباب الخارجي لا الداخلي، الأمر الذي سيكلفه أن يمشي على قدميه ثلاثين خطوة حتى يبلغ مكانها!.. واذ فرغ الشاب من هذا التأنيب و تأهب للركوب، أحس يدأ توضع على كتفه، فلما التفت طالعه وجه رجل قد لوحته الشمس ذي لحية كثة وعينين براقتين وأسنان حادة مدببة كأسنان الذئب أو ابن آوى، وقد ربط رأسه بمنديل أحمر، وارتدى ثياباً قذرة ممزقة لا تكاد تستر عظامه النحيلة الشبيهة بهيكل عظمي.. وكانت يده التي وضعها على كتف الشاب بالغة الضخامة، فذعر لرؤيته وتراجع متسائلا: «ماذا تريد مني؟».

فأجابه الرجل ذو المنديل الأحمر:

ـ اغفر لي يا صديقي ازعاجي اياك، لكني أريد أن أتحدث اليك، وأن تجنبني مشقة العودة الى باريس على قدمي، اني جائع جداً..! ولم أتناول عشاء فاخراً مثلك! وهأنذا لا أكاد أقوى على الوقوف.. ومن ثم أريد أن تحملني معك في عربتك.. فهل فهمت يا سيد «بنديتو»؟

ولدى سماع هذا الاسم فكر الشاب في الأمر لحظة، ثم اتجه الى حوذيه قائلا:

ـ هذا رسول كلفته بمهمة وقد جاء ليبلغني أنباءها... فاذهب أنت بأية وسيلة أخرى واتركنا في العربة وحدنا.

وانسحب الحوذي متعجباً، بينما انطلق الرجلان بالعربة، حتى غادرا حدود «أوتوي»، واذ ذاك تلفت الشاب حوله ليستوثق من أن أحداً لا يمكن أن يره أو يسمعه، ثم عقد ذراعيه فوق صدره وابتدر الرجل الغريب قائلا:

ـ لماذا جئت تزعج حياتي؟

فقال الرجل: «دعني أسألك أولا لم خدعتني؟.. لقد ذكرت لي عندما افترقنا في (بون دي فار) انك ذاهب الى اقليمي (بيدمونت) و (توسكاني).. لكنك بدلا من ذلك جئت الى باريس!».

فقال له الشاب: «اذن أنت تتجسس على حركاتي؟.. دعني أحذرك يا سيد (كادروس) من مغبة ذلك.. والآن حدثني ماذا تريد مني؟».

فقال كادروس: «أعتقد اني أستطيع العيش بمبلغ مائة فرنك في الشهر، لكني لو حصلت على مائة وخمسين أكون أسعد حالا».

وهنا مد اليه الشاب يده بمائتي فرنك وقال له: «في وسعك أن تمر على وكيلي في بداية كل شهر فيعطيك مثل هذا المبلغ.. والآن وقد حصلت على مبتغاك، وصرنا متفاهمين.. أقفز من العربة واغرب عن وجهي!».

وفي اليوم التالي أمر دانجلر حوذيه بأن يحمله في عربته الى المنزل رقم ٣٠ بشارع الشانزليزيه، حيث يقيم الكونت دي مونت كريستو وهناك استقبله مرحباً وقال له:

ـ انك تبدو متعباً محطماً يا عزيزي البارون، بحيث يزعجني أمرك..

ـ لقد طاردني سوء الحظ خلال الأيام الأخيرة، فتوالت علي الأنباء السيئة.. وقد بلغني اليوم نبأ جديد، هو أن ماليا آخر في «تريستة» قد أشهر إفلاسه!

ــ حقاً؟ أترى هل يكون هذا المالي «جاكوبو مانفريدي؟».

ــ هو بعينه!.. هل تصدق أن يفلس مالي مثله كان طيلة السنوات الطويلة التي تعاملت معه خلالها مثالا للانتظام في الدفع، دون أي مماطلة.

ــ اذن فقد خسرت ما يقرب من المليونين هذا الشهر؟

ــ نعم، ولهذه المناسبة حدثني عما يطلب مني أن أفعله لمسيو كافالكانتي؟

ــ اذا كان أحد قد أوصاك به وكانت التوصية موثوقاً بها، فلا بأس بأن تعطيه ما يطلب من مال.

ــ لقد قدم لي هذا الصباح صكاً بمبلغ أربعين ألف فرنك مسحوباً عليك ومحولا منك الي، وهو بتوقيع «بوزوني».. وقد صرفت قيمته له فوراً بالطبع.. ولكن ليس كل شيء فتح عندي حساباً لابنه هذا الصباح أيضاً!

ــ هل لي أن أسألك كم يعطي ابنه من المال؟

ــ خمسة آلاف فرنك شهرياً!

ــ أي ستين ألفاً في السنة؟.. لقد صدق ظني في مبلغ تقتير الرجل وشحه.. كيف يعيش شاب مثله بخمسة آلاف فرنك في الشهر؟

ــ ولكن في وسع الفتى اذا أراد أن يحصل على بضعة آلاف أخرى!

ــ اياك أن تدفعها له، فلن يسددها الاب لك.. انك لا تعرف هؤلاء الاثرياء المحدثين، انهم غاية في البخل!

ــ ألا تثق بكافالكانتي؟

ــ أنا؟.. اني أدفع ستة ملايين من الفرنكات بضمان توقيعه لا غير!

فقال دانجلر في عدم مبالاة: «آه، ان النبلاء يتزاوجون فيما بينهم، فهم يحبون أن يوحدوا ثرواتهم!».

ـ هذا طبيعي، بلا شك.. ولكن كافالكانتي مبتكر، لا يفعل ما يفعله الآخرون.. وقد أحضر ابنه الى فرنسا لينتقي له زوجة!

ـ آه، اذن فسوف يجد له أميرة من بافاريا أو بيرو، فهو يطمع في تاج أو ثروة طائلة!

ـ كلا، بل ان هؤلاء السادة العظام الذين يعيشون في الجانب الآخر من الالب غالباً ما يتزوجون من أسرات بسيطة. ولذا لا أحسبك تفكر في الآنسة دانجلر، الا اذا أردت أن يموت أندريا مذبوحاً بيد ألبرت المسكين!

فقال دانجلر وهو يهز كتفيه: «ألبرت؟. آه.. انه لن يعبأ بالأمر كثيراً فيما اعتقد!».

ـ كيف؟. أليست مخطوبة له؟

ـ لقد تحدثنا في الأمر، أنا وأبوه المسيو دي مورسيرف.. لكن مدام دي مورسيرف وألبرت..

ـ لا أحسبك تعني انها لن تكون صفقة موفقة!

ـ اني أفضل مسيو اندريا كافالكانتي على مسيو البرت ديمورسيرف، فرغم أني لم أولد بارونا من النبلاء، فأن اسمي الحالي هو اسمي الاصلي الحقيقي على أية حال، أما هو فليس اسمه مورسيرف.. ان مورسيرف كان صياداً حقيراً يدعى فرناند مونديجو!

ـ اذن لماذا فكرت في اعطائه ابنتك؟

ـ لأن كلا من فرناند ودانجلر قد صار نبيلا وغنياً، مساو ياً للآخر في مركزه الأدبي، فيما عدا أن هناك بضعة أشياء تقال عنه ولا تقال عني أنا مثلا!

ـ هذا الذي تقوله يذكرني بأني سمعت اسم فرناندو مونديجو يقرن في بلاد اليونان باسم علي باشا!

ـ هذا هو السر الذي أنا على استعداد لأن أدفع أي ثمن في سبيل الوقوف عليه!

الأمر غاية في السهولة.. اكتب اذا شئت الى وكيلك في «بانينا» واسأله عن الدور الذي لعبه فرنسي يدعى فرناندو مونديجو في كارثة علي باشا!

فقال دانجلر وهو ينهض مسرعاً: «انت على حق.. سأكتب اليه اليوم؟».

اقتيدت مدام دانجلر خلال ممر خاص نحو مكتب مسيو دي فيللفور، فوجدته جالساً في مقعده يكتب، وظهره الى الباب.. ولم يتحرك حين سمع الباب يفتح والحاجب يقول للزائرة: «تفضلي بالدخول يا سيدتي». ثم يغلق الباب من جديد.. لكن خطوات الحاجب لم تكد تبتعد حتى نهض قاضي التحقيق فأغلق خشب النوافذ والستائر وفحص كل ركن في الغرفة، ثم قال:

ـ مضى زمن طويل منذ كانت لي متعة التحدث اليك على حدة يا سيدتي.. وانه ليحزنني اننا لم نلتق اليوم الا لنتبادل حديثاً مؤلماً، فاستجمعي كل شجاعتك يا سيدتي، فانك لم تعرفي بعد غير طرف من الموضوع!».

وكانت البارونة تعرف مبلغ هدوء دي فيللفور الطبيعي في الاحوال العادية، فأفزعها ما بدا من انفعاله بحيث فتحت فاها لتصيح، لكن الصيحة اختنقت في حلقها.. بينما استطرد هو فقال:

ـ أرأيت كيف بعث ماضينا الرهيب من مرقده في أعماق ضمائرنا حيث دفن.. كي يمثل أمامنا الآن مثل الشبح فيجلل وجوهنا بالعار و يكسوها شحوب الأموات؟».

فقالت له هرمين: «انها المصادفة ولا شك!».

ــ المصادفة؟. كلا يا سيدتي!. لا يوجد شيء اسمه المصادفة!

ــ بل يوجد.. أليست المصادفة التي كشفت كل ذلك؟.. أليست هي التي جعلت الكونت دي مونت كريستو يبتاع هذا المنزل بالذات، و يحفر أرض الحديقة في ذلك الموضع بالذات، فيعثر على الطفل التعس مدفوناً حتى أن أقبله مرة واحدة، والذي طالما بكيته بدموعي الحارة؟».

فأجابها دي فيللفور في صوت أجوف: «كلا يا سيدتي.. وهذا هو النبأ الرهيب الذي أصارحك به اليوم..لم يوجد شيء مدفوناً تحت الشجرة، لم توجد جثة طفل.. انك لا ينبغي أن تبكي، بل يجب أن ترتجفي هلعاً..!».

ــ اذن فأنت لم تدفن طفلي المسكين هناك؟. لماذا اذن خدعتني؟. أين وضعته؟ قل لي.. أين؟

هناك! ولكن أصغي الي.. ولسوف ترثين لحال شخص حمل العبء الثقيل وحده طيلة عشرين عاماً.. العبء المفجع الذي يوشك أن يبوح لك بسره الآن، دون أن يلقي أبسط جزء منه على عاتقك! فمنذ عدت الى وعيي بعد أن شفيت من طعنة ذلك الكورسيكي اللعين، جعلت همي أن أبحث عن جثة الطفل، فعمدت إلى الاستفسار فوراً عن مصير البيت الذي كنا نلتقي فيه، وحين علمت أن أحداً لم يقطنه منذ تركناه هرعت إليه من فوري، فلم أدع موضعاً من الحديقة لم أضر به بفأسي، آملا أن تصطدم الفأس بسطح الصندوق الحديدي، ولكن دون جدوى!.. لم أعثر بشيء!.. فجعلت أسائل نفسي: «ما الذي يجعل ذلك الرجل يأخذ جثة الطفل؟ ان الأجسام الميتة لا تقتنى بل تعرض على قاضي التحقيق كي يستقي منها الادلة التي يريدها ثم تدفن.. لكن شيئاً من هذا لم يحدث!».

فتساءلت هرمين وهي ترتعد في عنف: «اذن ما الذي حدث؟».

ــ شيء أفظع وأقسى عاقبة.. قد يكون القاتل وجد الطفل حياً فأنقذه!».

وهنا أطلقت البارونة دانجلر صيحة ثاقبة وأمسكت يد دي فيللفور هاتفة:

ــ ابني كان حياً؟.. هل دفنته حياً؟ دفنته دون أن تستوثق من موته؟. ربّاه!

لست أدري، وانما أناأفترض ذلك، كما أفترض أي فرض آخر..!

وزاغت عينا الرجل، ودلت نظرته على أن عقله الثاقب قد بلغ حافة اليأس والجنون.. وراح يغمغم: «اذا كان الامر كذلك، وصح هذا الفرض فاننا نكون قد هلكنا.. يكون الطفل ما يزال على قيد الحياة، و يكون هناك شخص يعرف سرنا.. وما دام الكونت دي مونت كريستو قد تحدث أمامنا عن طفل وجد في الحديقة، في حين أن ذلك الطفل لا يمكن أن يكون قد وجد.. اذن فهو الذي يقف على سرنا!».

و بعد بضعة أيام كان دي فيللفور جالساً في بيته مكتئبا، حين سمع صوت عجلات تدنو من الباب، ثم تلاه وقع خطوات تصعد السلم.. وفتح الباب بعد ذلك، فدخلت منه عجوز تحمل معطفها على ذراعها وقبعتها في يدها.. وكان منظرها مؤلما بشعرها الأبيض؟ وجبينها الأصفر، وعينيها اللتين غضنتهما الشيخوخة وكادتا تختفيان وراء أجفانها التي قرحها البكاء!

وهتفت المرأة في لوعة: «أواه يا سيدي!.. أية كارثة حلت بي!.. انني سأموت حزناً بلا شك!».

فنهض دي فيللفور وخف لاستقبال حماته ــ الأولى ــ متسائلا: «ماذا حدث؟. ما الذي أزعجك؟. هل مسيو دي سانت ميران معك؟».

فأجابت المركيزة العجوز دون مقدمات ودون أي تعبير على وجهها، من فرط ذهولها: «ان مسيو دي سانت ميران قد مات».

فتراجع دي فيللفور وهو يضم يديه صائحاً: «مات؟.. هكذا فجأة؟».

فقالت المركيزة: «منذ اسبوع خرجنا معاً في العربة بعد الغداء. وكان زوجي متوعك الصحة منذ أيام، لكن فكرة رؤية عزيزتنا فالنتين مرة أخرى أمدته بالشجاعة، فأغفل أمر مرضه.. وعلى بعد ستة فراسخ من مرسيليا، بعد تناول الأقراص التي ألف تناولها، نام نوماً عميقاً الى درجة شعرت معها أنه نوم غير طبيعي... لكنني ترددت مع ذلك في ايقاظه، ولو اني لاحظت احتقاناً في وجهه وعنفاً غير عادي في نبضات عروق صدغه!.. ولم ألبث أن أغفيت أنا بدوري، ثم صحوت بعد حين على حشرجة كالتي تصدر من شخص يتألم من كابوس.. وفجأة القى رأسه الى الخلف بشدة، فاستعملت الأملاح التي تزيل الاغماء.. لكن كل شيء كان قد انتهى! ولم نصل الى «ايكس» حتى كان جثة هامدة!».

وكان دي فيللفور يصغي الى القصة وقد فغر فاه من فرط ذهوله.. ولم ينطق بحرف!

وفي مساء اليوم التالي غادر دي فيللفور المنزل ومعه الطبيب.. وقال القاضي لمرافقه: «أواه يا عزيزي!. لقد أعلنت السماء الحرب على بيتي!.. يا لها من ميتة فظيعة، أية كارثة! لا تحاول مواساتي، فما من شيء يستطيع ان يخفف من فداحة حزني، ان الجرح عميق وحديث!»

فأجابه الطبيب: «يا عزيزي دي فيللفور، ما صحبتك الى هنا كي أواسيك، بل على العكس، فان وراء الخطب الذي أصابك خطباً آخر أمر وأدهى. لقد ماتت المركيزة دي مانت ميران من جرعة قوية من «بروسين الستركتين» لعلها قد اعطيت لها خطأ».

فتناول دي فيللفور يد الطبيب وقال: «هذا مستحيل.. لا بد أني أحلم!».

ــ هل للمركيزة دي سانت ميران أعداء؟

ـ لست أعلم أن لها أي أعداء.

ـ ألا يحتمل أن يكون الخادم باروا قد أخطأ فأعطاها جرعة كانت معدة لسيده؟

ـ لا أدري.. ولكن كيف يكون دواء مسيو نوارتييه ساماً للمركيزة؟

ـ هذا أمر غاية في البساطة، فهناك سموم تغدو أدمية للعلاج في بعض الحالات، ومنها حالة الشلل.. وقد وصفت لمسيو نوارتييه في آخر زيارة ست حبات من البروسين، وهي جرعة يحتملها هو لأنه أخذ من المادة جرعات سابقة صغيرة، لكنها لو اعطيت لأول مرة لأي انسان لقتلته فوراً!

ـ ولكن ليس هناك يا عزيزي أي اتصال بين جناح مسيو نوارتييه وجناح المركيزة دي سانت ميران، ولم يدخل باروا مخدع حماتي قط!

ـ يا عزيزي دي فيللفور، لو كان في طاقة الطب أن ينقذ المركيزة دي سانت ميران لأنقذتها، لكنها قد ماتت.. وواجبي الآن ينحصر في حماية الأحياء. فلندفن هذا السر الرهيب في أعمق أعماق قلوبنا، وأنا على استعداد ـ فيما لو ارتاب أحد في الأمر ـ أن أعزو سكوتي عن التبليغ الى جهلي.. وفي أثناء ذلك عليك أن تشدد رقابتك، فلعل الشر لا يقف عند هذا الحد. وحين تكتشف المجرم ـ اذا عثرت عليه ـ سأقول لك: «أنت قاضي التحقيق وأعرف بواجبك!».

سر مصرع الجنرال

على أثر الجنازة المزدوجة للمركيز والمركيزة دي سانت ميران، عاد دي فيللفور بصحبة فرانز دي ديبيناي الى حي سانت أونوريه، فمضى القاضي الى مكتبه مباشرة، دون أن يعرج على حجرة زوجته أو ابنته.. وهناك قدم للشاب مقعداً وهو يقول:

ـ مسيو ديبيناي، اسمح لي أن أذكرك في هذه اللحظة بأن الفقيدة قد أعربت، وهي على فراش الموت، عن رغبتها في ألا يتأخر زفاف فالنتين عن موعده. وليس في هذا الأمر ما يجافي الذوق كما قد يبدو لأول وهلة، فان تنفيذ رغبات الموتى أول ما يجب لهم على الاحياء!

فقال الشاب: «كما تشاء يا سيدي!». وواصل دي فيللفور كلامه فقال:

ـ اذن أرجو أن تتكرم بالانتظار نصف ساعة ريثما تهبط فالنتين من غرفتها.. وسأرسل في استدعاء مسيو «ديشان» كي نقرأ عقد الزواج ونوقع عليه قبل أن نفترق.. ولسوف تصحب السيدة دي فيللفور فالنتين الليلة الى ضيعتها على أن تلحق بهما بعد اسبوع!

وحين حضر مسجل العقود ابتدر فرانز بقوله: «ينبغي أن أخبرك يا سيدي، بناء على طلب مسيو دي نوارتييه نحو حفيدته، فجردها من ثروته التي كانت سترثها!. وأضيف الى ذلك أن الموصي ـ الذي لا يملك غير حق التصرف في جزء من ثروته فقط ـ قد تصرف في ثروته كلها، الأمر الذي يجعل الوصية قابلة للطعن والالغاء!».

وهنا أردف مسيو دي فيللفور: «نعم، لكني أبادر فأنبه مسيو ديبيناي الى أن الوصية أبي لن ينازع فيها خلال حياتي، فان مركزي يحول دون تجريحها!».

ولم يكد الشاب يفرغ من هذا القول حتى فتح الباب وبرز على عتبته «باروا» وقال: «سادتي. ان مسيو نوارتييه يرغب في أن يتحدث الآن الى مسيو فرانز دي ديبيناي!».

فالتفت دي فيللفور الى ابنته وقال لها: «فالنتين.. يجب أن تذهبي لتبحثي هذه النزوة الجديدة من جانب جدك!».

فنهضت الفتاة على عجل وأسرعت نحو الباب مغتبطة، ولكن صوت أبيها ما لبث أن لاحقها اذ غير رأيه فقال: «انتظري.. سأذهب معك!».

وكان نوارتييه متأهباً للقائهم، فلما دخل الاشخاص الثلاثة الذين كان ينتظرهم، نظر الى الباب.. فأغلقه خادمة واذ ذاك همس دي فيللفور في اذن ابنته، التي عجزت عن إخفاء فرحتها: «أصغي الي.. اذا أراد مسيو نوارتييه أن يتخذ أي اجراء يؤخر موعد زواجك فاني أمنعك من أن تفهمي اشارته!».

وأومأ نورتييه الى فالنتين كي تقترب، وأدركت هي من أول اشارة أن جدها يريد مفتاحاً.. ثم استقرت عيناه على درج في خزانة صغيرة تقع بين النوافذ، ففتحت الدرج، وهنا أدار الشيخ المشلول عينيه نحو منضدة مكتب صغيرة مهملة منذ سنوات، بحيث ما كان أحد ليعتقد أنها تضم أوراقاً ذات قيمة... ففتحتها الفتاة وأخرجت منها حزمة من الأوراق مربوطة برباط أسود، تناولها فرانز وقرأ على غلافها هذه العبارة: «تسلم عقب وفاتي الى الجنرال «دوران»، الذي سوف يوصي بالحزمة الى ابنه بعد أن ينبهه الى ضرورة المحافظة عليها باعتبارها تضم مستندات هامة!».

ثم فض فرانز الحزمة وقرأ بصوت مسموع وسط سكون الحجرة: «صورة من محضر جلسة نادي أنصار بونابرت الكائن بشارع سان جاك، يوم ٥ فبراير سنة ١٨١٥».

وعندئذ توقف فرانز عن القراءة وقال: «٥ فبراير سنة ١٨١٥.. انه اليوم الذي قتل فيه أبي!».

فلم ينبس دي فيللفور أو فالنتين بكلمة، بينما أومأ الشيخ المشلول الى الشاب كي يواصل القراءة.. لكن هذا قال وكأنه يحدث نفسه: «لقد اختفى ابي عند مغادرته هذا النادي!».. فلما استحثته عين المريض، قرأ:

«يعلن الموقعون على هذا المحضر انهم قد تلقوا يوم ٤ فبراير خطاباً من جزيرة (البا) يوصي بأن يضم النادي الى عضويته (الجنرال فلافيان دي كينيل) الذي خدم الأمبراطور من سنة ١٨٠٤ وما زال يخص بعواطفه أسرة نابليون، بغض النظر عن لقب البارون وضيعة دابيناي اللتين منحه اياهما لتوه الملك لويس الثامن عشر!.. ومن ثم طلب المجتمعون الى المرشح الجديد أن يحضر الجلسة التي تعقد في اليوم التالي ــ ٥ فبراير ــ فلما حضر بدأ الحاضرون يستجوبونه عن عواطفه السياسية، لكنه اكتفى بالقول انها واضحة من الخطاب المرسل من جزيرة البا.. فحاول الرئيس اغراءه بأن يتكلم بمزيد من الوضوح والتحديد.. وحين شدد المجتمعون عليه الخناق قال: (لم تمض أيام على اعلاني ولائي للملك لويس الثامن عشر، بحيث يصعب علي أن أحنث بعهدي فانضم الى الأمبراطور السابق!).. وكان الرد من الوضوح بحيث لا يدع مجالا للشك في حقيقة عواطف الرجل.. فنهض الرئيس وقال يخاطب الجنرال: (سيدي ان كلامك يدل بوضوح على أن سلطات جزيرة البا خدعت فيك وخدعتنا، ونحن لن نجبرك على أن تساعدنا ضد ضميرك، لكننا سنرغمك على أن تتصرف تصرفاً كريماً!). فأجاب الجنرال (تقصدون أن أقف على مؤامرتكم ولا أبلغ عنها؟ اني اسمي

هذا اشتراكاً معكم فيها.. وهكذا ترون اني أكثر صراحة منكم!).. فأجابه الرئيس: (ان أحداً لم يرغمك على حضور هذا الاجتماع، وأنت من الفطنة بحيث تدرك موقفنا الحالي. وصراحتك تملي علينا الشروط التي ينبغي أن نفرضها عليك!).. فنظر الرجل فيما حوله في قلق ثم تذرع بكل صلابة وقال: (انني لم أقسم يمين الولاء).. وعندئذ قال الرئيس في هدوء: (اذن يجب أن تموت!).. ونهض الرئيس فأشار الى ثلاثة من الأعضاء كي يتبعوه، ثم ركب الجميع العربة مع الجنرال بعد أن عصبوا عينيه.. حتى بلغوا ذلك الجزء من رصيف (أورم) الذي يقود سلمه الى النهر، وهناك وضع المصباح على الارض ووقف الخصمان متواجهان.. ثم بدأت المبارزة.. وبرغم أن الجنرال دبيناي كان من أبرع رجال الجيش في المبارزة، فانه سقط ميتاً بعد خمس دقائق.. وعندئذ القيت جثته في النهر وعاد الشهود من حيث أتوا. وهكذا يتبين أن الجنرال مات في مبارزة شريفة وليس في كمين غادر كما أشيع، وقد حررنا هذا المحضر وذيلناه بتوقيعاتنا اثباتاً لهذه الحقيقة خشية أن يجيء اليوم الذي يتهم فيه أحد ظلماً بقتل الرجل عمداً أو بخرق قواعد الشرف وأصول المبارزة التوقيعات: بوربير.. ديشامبي.. ليشاربال».

وهنا قال ديبيناي يحدث نوارتييه: «سيدي، ما دمت على علم بكل هذه التفصيلات التي يقرها شهود شرفاء، وما دمت تهتم بأمري ـ برغم أنك أظهرت هذا الاهتمام في صورة عكسية سببت لي مزيداً من الأسى ـ فلا تضن علي باجابة مطلب واحد أخير.. أذكر لي اسم رئيس ذلك النادي، حتى أعرف على الأقل اسم قاتل أبي».

ثم التفت الى فالنتين وقال لها: «آنستي، ضمي جهدك الى جهدي كي نكتشف اسم الرجل الذي جعلني يتيماً في سن الثانية من عمري!».

لكن فالنتين بقيت جامدة صامتة، بينما نظر نوارتييه الى القاموس، فتناوله فرانز وهو يرتجف في عصبية وراح يكرر على مسمع المريض

جميع الحروف الأبجدية على التتابع حتى أوقفه هذا عند حرف «أ» ثم عند حرف «ن» ثم حرف «ا».. وهي الحروف التي تكون كلمة «أنا».. فهتف فرانز مذعوراً: أنت؟. أنت يا مسيو نوارتييه الذي قتلت أبي؟».

فأجاب نوارتييه وهو ينظر الى الشاب نظرة ذات جلال:

ـ «نعم!» واذ ذاك تهالك فرانز على مقعد خائر القوى، بينما فتح دي فيللفور الباب ولاذ بالفرار، فقد راودته فكرة اخماد البقية الباقية من الحياة في قلب الشيخ المسن الرهيب!

في سوق الرقيق

جلس الكونت دي مونت كريستو وألبرت دي مورسيروف ــ بعد عودتهما من حفلة استقبال في بيت دانجلر ــ يتناولان الشاي في صالون منزل الكونت، ثم تطلع مورسيرف نحو الباب الذي كانت تنبعث من ورائه أصوات تشبه أنغام القيثارة.. فقال له الكونت كريستو:

ــ لقد قسم لك يا عزيزي الفيكونت أن تسمع الكثير من الموسيقى هذا المساء.. فانك لم تكد تنجو من بيانو الآنسة دانجلر لاحقتك قيثارة «هايدي»!

فقال ألبرت: «هايدي؟. يا له من اسم ساحر!. هل هناك حقا نساء يحملن اسم هايدي، في غير شعر بيرون؟»،

ــ بلا شك.. ان اسم هايدي اسم نادر في فرنسا. لكنه شائع منتشر في «ألبانيا» وجزيرة «أبيروس»... وقد ولدت وارثة لكنوز لا تعد كنوز «ألف ليلة وليلة» بالقياس اليها شيئاً مذكوراً!

ــ لا بد اذن انها أميرة؟

ــ أنت على حق، بل انها من أعظم أميرات بلدها!

ــ اذن كيف صارت جارية لك وهي أميرة عظيمة؟

ــ انها نتائج الحرب يا عزيزي الفيكونت، وتقلباتها ونزواتها.

ــ وهل اسمها الكامل وشخصيتها سر من الاسرار؟

ــ هل تعرف تاريخ علي باشا والي يانينا؟

ــ علي باشا؟.. أوه، نعم.. انه الوالي الذي كون أبي ثروته وهو في خدمته.

ــ هذا صحيح، لقد نسيت ذلك.. اذن فلتعلم أن هايدي هي ابنة علي باشا من الحسناء «فاسيليكي».

ــ وكيف صارت جارية لك؟

ــ لقد اشتريتها ذات يوم وأنا مار في سوق القسطنطينية.

ــ هذه مصادفة رائعة.. ولهذه المناسبة هل لي أن أطمع في أن تقدمني لها؟

ــ أقبل ذلك بشرطين: أولهما ألا تبوح يوماً لأحد بأني منحتك هذه الفرصة.. والثاني ألا تخبرها قط بأن أباك كان يوماً في خدمة أبيها!

ــ حسناً!.. اني أقبل هذين الشرطين!

جلست هايدي في انتظار زائريها في الحجرة الأولى من جناحها، وهي حجرة الاستقبال.. وكانت عيناها الواسعتان تفيضان دهشة وترقباً، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمح فيها الكونت دي مونت كريستو لانسان بزيارتها!. وكانت جالسة على أريكة في زاوية من الحجرة، وقد عقدت ساقيها تحتها على الطريقة الشرقية.

وقال ألبرت بالايطالية: «يا صديقي العزيز، وسيدتي السنيورة، اغفرا لي غبائي الظاهر، فاني جد حائر.. ومن الطبيعي أن أكون كذلك، فأنا الآن في قلب باريس، مع ذلك أحس كأني نقلت فجأة الى الشرق.. لا كما رأته عيناي، بل كما رسمه خيالي.. آه يا سنيوره لو أنني كنت أستطيع أن أتكلم باليونانية، لكان حديثك الطلي، بالاضافة الى المناظر الساحرة الخيالية التي تحيط بي، يمنحني سهرة ممتعة يستحيل علي أن انساها!

فأجابت هايدي في هدوء: «اني اعرف قليلا من الايطالية يتيح لي أن أجاذبك الحديث بها.. واذا كنت مولعاً بكل ما هو شرقي فسوف أبذل جهدي كي أتيح لك ما يرضي ذوقك أثناء وجودك هنا!».

فقال ألبرت للكونت بصوت خافت: «اسمح للسنيورة يا كونت أن

تسرد علي طرفاً من تاريخها، لقد منعتني من الاشارة الى اسم والدي على مسمع منها.. ولكن لعلها تشير اليه من تلقاء نفسها أثناء الحديث، وأنت لا تستطيع أن تتصور كم يلذ لي أن أسمع اسم أسرتنا تنطق به هاتان الشفتان الجميلتان!».

وهنا التفت الكونت الى هايدي، ثم قال لها باليونانية، وعلى وجهه تعبير آمر: «حدثينا بقصة مأساة أبيك، ولكن دون أن تذكري اسم الخائن ولا تفصيل الخيانة!».

فتنهدت هايدي من قلب مكلوم، وكست وجهها سحابة من الحزن.. ثم قالت: «تريدني اذن أن أسرد تاريخ أشجاني الماضية؟. حسناً!.. كنت في الرابعة من عمري حين أيقظتني أمي فجأة ذات ليلة، وكنا في قصر يانينا، فلم أكد أفتح عيني حتى رأيت عينيها مغرورقتين بالدموع.. ثم انتزعتني من الفراش الوثير الذي كنت نائمة عليه، دون أن تنبس بكلمة، كي تلوذ بالفرار.. وقد قيل لي بعدئذ: ان حامية قصر يانينا التي أضناها العمل المتواصل، قد استسلمت لخورشيد باشا الذي أرسله السلطان للقبض على أبي.. وبعد قليل كنا جميعاً في (الملجأ) الذي أعده أبي من قبل وأطلق عليه اسم «المخبأ»، بعد أن أرسل الى السلطان كتاباً مع ضابط فرنسي كان يوليه ثقته الكاملة!».

فسألها ألبرت: «ألا تذكرين اسم هذا الضابط يا سنيورة؟».

وهنا تبادل الكونت مع هايدي نظرة سريعة لم يلحظها الشاب، فأجابت قائلة:

ـ لست أذكره الآن، ولكن اذا تذكرته أثناء حديثنا فسوف أذكره لك!

وهنا كاد ألبرت أن ينطق باسم أبيه، لولا أن ذكره الكونت بوعده السابق باشارة تحذير بسبابته، فلاذ بالصمت.. بينما استأنفت الفتاة كلامها فقالت:

ـ كان المخبأ الذي لجأنا اليه جزيرة صغيرة تتوسط احدى البحيرات. وكان هناك كثف تحت الارض فأخذت اليه مع أمي وحاشيتنا من النساء.. وكان في الكهف ستون ألف حافظة تحوي ٢٥ مليون جنيه من الذهب، ومائتا برميل من البارود بها ثلاثون ألف رطل من البارود!.. والى جوار البراميل وقف وكيل أبي الوفي المفضل «سليم» يحرس الكهف ليل نهار وفي يده حربة مزودة بثقاب دائم الاشتعال.. وكان لديه أمر بأن ينسف الكهف بكل من فيه وما فيه حتى ان كان أبي بداخله في اللحظة التي يتلقى فيها الاشارة المتفق عليها من قبل!

«وذات يوم أرسل أبي يدعونا اليه، وكانت أمي قد قضت ليلتها مؤرقة تبكي، وهي فريسة لأشد حالات التعاسة.. فوجدنا الباشا هادئاً، ولكن أكثر شحوباً من المألوف.. وابتدر أمي قائلا: (تشجعي يا فاسيلكي، فاليوم يصل المرسوم السلطاني الذي يقرر مصيري.. فاذا كان قد منحني عفواً كاملا فسنعود منتصرين الى يانينا.. أما لو كانت الانباء مريبة، فينبغي أن نفر الليلة!).

«فقالت له أمي: (وماذا نصنع اذا حال عدونا دون هذا الفرار؟).. فأجابها وهو يبتسم: (لا تقلقي بشأن ذلك، ففي هذه الحالة يتكفل سليم وحربته بحسم الموقف. انهم سوف يسرون برؤيتي ميتاً، لكنهم لن يسروا بأن يموتوا معي!).

«كان ذلك في الساعة الرابعة بعد الظهر، وبرغم أن النهار كان مشرقاً في الخارج، كنا داخل الكهف في ظلمة تامة، فيما عدا بصيص من الضوء في ركن منها، ينبعث من حربة سليم.. كان أشبة بنجمة وحيدة في سماء معتمة!.. وفجأة سمعنا صيحات عالية، تبينا فيها رنين الفرح، وتجاوب الحراس في الخارج باسم الضابط الفرنسي الذي أوفده أبي الى السلطان، فأدركنا جميعاً ان الرجل عاد يحمل رداً مرضياً.

«وازداد الضجيج، واقتربت خطوات تهبط السلم الى داخل الكهف، وأعد سليم العدة لاشعال البارود في حالة حدوث ما يستلزم ذلك.

وعندئذ ظهر في مدخل الكهف شخص لم يتبين سليم وجهه بسبب الظلام، فصاح به: (من أنت؟.. حذار أن تتقدم خطوة واحدة أخرى!).. فأجابه الآخر هاتفاً: (عاش السلطان! لقد منح جلالته علي باشا وزيره عفواً كاملاً.. ولم يرد اليه حياته وحدها، بل رد اليه أيضاً ثروته وممتلكاته!).

«وهنا سأله سليم: (باسم من تتكلم؟)».

«فأجاب: (باسم سيدنا علي باشا)».

«فقال له سليم: (اذا كنت قادماً من عند علي باشا نفسه، فأنت تعرف العلامة التي يجب أن تظهرها لي؟!)».

«وقال الضابط: (نعم.. ها أنذا أحمل اليك خاتمه!).. ثم رفع يده فوق رأسه ليظهر العلامة، لكن المسافة كانت بعيدة والضوء أضعف من أن يسمح لسليم بتمييزها.. فقال له: (لست أرى ما في يدك.. ولن أسمح لك بأن تقترب، بل لن أقترب أنا منك قبل أن تضع الشيء الذي تحمله في الضوء الذي يشع هناك، ثم تنسحب ريثما أفحصه).

«ووضع الرسول العلامة في المكان الذي عينه له سليم، ثم انسحب فاقترب سليم من المكان، وتناول العلامة وتأملها ملياً ثم قبلها وهتف قائلا: (انها هي.. انها خاتم سيدي!).. ثم ألقى الشعلة من يده وداسها بقدمه فأطفأها!.. وعند ذلك أطلق الرسول صيحة ظفر وصفق بيديه.. وسرعان ما ظهر فجأة أربعة من جنود (خورشيد) وسقط سليم على الفور مصاباً بخمس طعنات ثم تقدم الضابط والجنود الأربعة والخوف يكسو وجوههم شحوباً، وراحو يفتشون أنحاء الكهف ليستوثقوا من زوال خطر الحريق والانفجار.. وعندئذ انقضوا على حقائب الذهب ينهبونها!

«وفي تلك اللحظة حملتني أمي بين ذراعيها، ثم هرعت في سكون عبر ممرات وسراديب خفية لم يكن يعرفها غيرنا، حتى وصلت الى سلم

آخر يفضي الى مدخل مستقل من مداخل الكهف، وهناك كانت تسود المكان ضجة واضطراب شديدان. كان جنود خورشيد يملأون الحجرات السفلى. وفيما كانت أمي توشك أن تفتح باباً صغيراً سمعنا صوت أبي يصيح مهدداً فنظرنا من خلال فرجات بين الاخشاب، واذا أبي يقول لبضعة أشخاص يحمل أحدهم في يده ورقة مكتوبة بأحرف من ذهب: (ماذا تريدون؟). فأجابوه: (نريد أن نبلغك ارادة صاحب الجلالة. هل ترى هذا الفرمان؟.. ان جلالة السلطان يطلب رأسك فيه).. وأطلق أبي ضحكة مدوية مخيفة، ثم أطلق مسدسه فصرع اثنين من الجنود.. وفي هذه اللحظة بدأ اطلاق النار من الجهة المقابلة، واخترقت الرصاصات الحوائط من كل جانب، ورغم ذلك بدا أبي جليل المظهر وهو يكر على خصومه فيفزعهم و يلجئهم الى الفرار، وكان في الوقت نفسه يصيح بحارسه: (سليم!.. سليم!.. أد واجبك!).. فأجابه صوت كأنه صادر من جوف الارض: (لقد مات سليم، وأنت قد ضعت يا علي!).. وفي هذه اللحظة دوى المكان بانفجار قوي، وتناثرت أرض الحجرة التي كان فيها أبي. وكان الجنود يطلقون النار من أسفل).. وعندئذ مد أبي أصابعه وهو يزأر بشدة الى الثغرات التي أحدثتها الطلقات في أرض المكان وانتزع واحداً من الالواح الخشبية وعلى الفور انطلقت من جوف الأرض عشرون طلقة قوية وتدافعت ألسنة اللهب كأنما يقذف بها بركان فالتهمت محتويات الغرفة.. وخلال هذا الضجيج المروع والصرخات المفزعة انطلقت طلقتان واضحتان تبعتهما صرختان حادتان جعلتا الدم يتجمد في عروقي.. فقد أصابتا أبي، ورغم ذلك ظل واقفاً، متشبثاً بالنافذة.. بينما حاولت أمي اقتحام الباب، كي تموت بجانبه، لكنه كان مغلقاً من الداخل..!

«وهنا تداعت فجأة أرض المكان بأكملها، فسقط أبي على احدى ركبتيه، وفي اللحظة عينها امتدت نحوه عشرون يداً مسلحة بالخناجر والمسدسات.. عشرون هجمة ركزت كلها ضد شخص واحد، فاختفى والدي وسط اعصار من النار والدخان، حتى لكأن الجحيم قد فغر فاه

تحت قدميه.. وشعرت بنفسي أسقط الى الارض، بينما أغمي على أمي!.. وحين أفاقت من اغمائها كنا نمثل أمام خورشيد، فهتفت به أمي: (اقتل، ولكن أبق لأرملة علي باشا شرفها!)..

«فأجابها: (لست أنا الذي ينبغي أن تلجئي اليه.. بل ينبغي أن تلجئي الى سيدك الجديد!).. قال هذا وهو يشير الى شخص بجانبه كان قد ساهم أكثر من سواه في قتل أبي!».

ولاحظ ألبرت أن هايدي ازدادت لهجتها حدة وهي تنطق بهذه العبارة. ثم استطردت فقالت:

– على أن هذا الشخص لم يجرؤ على الاحتفاظ بنا، وهكذا باعونا الى بعض تجار الرقيق المسافرين الى القسطنطينية، فعبرنا بلاد اليونان حتى وصلنا الى أبواب عاصمة السلطان ونحن بين الموت والحياة. وكانت تحيط بالبوابة جمهرة من الناس أفسحت لنا طريقاً لنمر. وفجأة حانت من أمي نظرة الى شيء كانوا جميعاً يتأملونه، فأطلقت صرخة مروعة وسقطت على الارض وهي تشير الى رأس كان معلقاً فوق البوابة، وتحته لوحة كتب فيها (رأس علي باشا والي يانينا).

«ولم أكد أقرأ ما في اللوحة حتى صرخت في مرارة، وحاولت أن أرفع أمي عن الارض، لكنها كانت جثة هامدة!.. ومن ثم أخذت الى سوق الرقيق حيث اشتراني ثري أرمني تولى تعليمي وتثقيفي فأحضر لي المعلمين والاساتذة، فلما بلغت الثالثة عشرة باعني الى السلطان «محمود».

وسكتت هايدي، فقال الكونت متمماً قصتها: «منه اشتريتها أنا!».

أما ألبرت فبقي بعض الوقت مأخوذاً مشدوهاً من كل ما سمع، الى أن قال له الكونت: «هيا، أفرغ قدح القهوة الذي أمامك.. فقد انتهت القصة!».

شراب قاتل

لو أتيح لفالنتين أن ترى اضطراب خطوات فرانز والانفعال الذي بدا على وجهه حين غادر حجرة مسيو نوارتييه، لأشفقت عليه، برغم كل شيء!

وكان دي فيللفور قد غمغم ببضع عبارات متقطعة ثم انسحب الى حجرة مكتبه، حيث تلقى بعد ساعتين الخطاب التالي: «بعد الأمور التي انكشفت هذا الصباح، لا بد أن يقدر مسيو نوارتييه دي فيللفور استحالة عقد أي صلة بين أسرته وأسرة فرانز دييبيناي. وانه ليدهش مسيو دييبيناي و يصدمه أن مسيو دي فيللفور ـ الذي ظهر أنه كان على علم بكل الظروف التي انكشف أمرها هذا الصباح ـ لم يبادر الى أخطاره بها قبل الآن!».

وفي اليوم التالي دعا نوارتييه مسجل العقود وجعله يلغي الوصية الاولى و يسجل بدلا منها وصية أخرى يترك فيها كل ثروته لحفيدته فالنتين بشرط ألا تنفصل عنه مدى حياته.. وعندئذ شاع في كل مكان أن الآنسة دي فيللفور وريثة المركيز والمركيزة دي سان ميران، قد استردت رضا جدها، وانها سوف تصبح ذات ايراد يبلغ ثلاثمائة ألف ريال.

وفي الساعة التاسعة من ذلك الصباح ارتدى ألبرت دي مورسيرف سترة سوداء ومضى في خطوات سريعة مضطربة في اتجاه دار الكونت دي مونت كريستو في الشانزلزيه.. وفيما هو يعبر شارع «ممر الأرامل» رأى عربة الكونت واقفة أمام حانوت لأسلحة الرماية هناك، ثم خرج الكونت في هذه اللحظة من الحانوت فابتدره الشاب من دون أن يؤدي

له التحية المفروضة: «اني سوف أبارز اليوم، وقد جئت أرجو منك أن تكون شاهدي..!».

فأجابه الكونت: «هذه مسألة أخطر من أن تناقش في الطريق.. فلندع الحديث فيها حتى نصل الى البيت!».

ثم استقل كلاهما عربة الكونت الى منزله فبلغاه بعد دقائق.. وهناك أخذ الكونت ضيفه الى حجرة مكتبه.. وبعد أن جلسا قال له: «فلنتحدث الآن في الأمر بهدوء.. من الذي تعتزم مبارزته؟».

ـ بوشان.. فقد نشر في صحيفته في الليلة الماضية.. ولكن انتظر واقرأ بنفسك..

وأعطى ألبرت الصحيفة للكونت، فقرأ فيها الفقرة التالية: «تلقينا من مراسلنا في يانينا ما يكشف الستار عن حقيقة كنا نجهلها حتى الآن، وهي أن القلعة التي كانت تحمي المدينة قد سلمت الى الاتراك بواسطة ضابط فرنسي يدعى (فرناند) كان الوالي علي باشا قد وضع فيه ثقته الكاملة!».

وقال له الكونت بعد أن أتم القراءة: «ماذا يهمك من أن قلعة يانينا سلمت بواسطة ضابط فرنسي؟».

فقال ألبرت: «ان أبي الكونت دي مورسيرف هو الضابط المقصود، فان اسمه الأول فرناند!».

فقال الكونت مهدئاً ثائرة الشاب: «ما أظن أن في فرنسا من يعرف أن الضابط فرناند والكونت دي مورسيرف اسمان لشخص واحد؟.. ثم من ذا الذي يعنى الآن بقلعة يانينا وقد سقطت سنة ١٨٢٢ أو سنة ١٨٢٣؟.. ولم يعد أحد يذكر عن ذلك شيئاً بعد مضي هذا الوقت الطويل؟».

ولكن الشاب بقي ثائراً وقال: «هذا يدل على حقارة القرية. لقد سكتوا كل هذا الوقت ثم جاءوا الآن فجأة فبعثوا الحوادث التي كانت

قد نسيت ليتخذوها مادة للفضيحة يلطخون بها مركزنا الرفيع.. اني ذاهب الى (بوشمان) الذي نشرت صحيفته هذا النبأ وسوف أصر على مطالبته بتكذيبه!».

وتناول مورسيرف قبعته وغادر الغرفة الى حيث استقل عربته واتجه بها فوراً الى بوشان. فاستقبله هذا مرحباً وهو يطلق صيحة دهشة لرؤية صديقه يقذف بالصحف التي على المكتب الى الارض و يدوسها بقدمه في انفعال.. بينما استمر هو يصيح به وهو يمد يده لمصافحته «هيه، هيه، يا عزيزي ألبرت، هل فقدت وعيك؟ أم هل جئت لتتناول الافطار معي؟».

فأجابه الشاب: «بوشان، لقد جئت أحدثك في شأن نبأ نشرته صحيفتك أمس و ينبغي أن تكذبه فوراً. ولكن يبدو أنك تجهل تماماً علاقتي بهذا الخبر».

ــ هذه هي الحقيقة وأقسم بشرفي.

ثم أخذ بوشان يبحث عن نسخة من الصحيفة، فقال له ألبرت: «اليك نسختي فقد أحضرتها معي!».

فتناول بوشان الصحيفة وقرأ النبأ الذي أشار اليه صديقه، فلما فرغ من ذلك سأله: «هل الضابط المشار اليه قريبك؟».

ــ انه أبي، مسيو فرناند مونديجو ــ الكونت دي مورسيرف ــ الذي حارب في عشرين معركة وحصل على أوسمة الشرف، من الجروح والاصابات التي يحاولون الآن اعتبارها وصمات عار!

فهز بوشان رأسه أسفاً وقال:

ــ أهو والدك؟. هذا أمر آخر!. في هذه الحالة أستطيع أن أفهم سبب غضبك يا عزيزي ألبرت. لكن الخبر المنشور ليس فيه ما يدل على أن الضابط فرناند هو والدك!

فقال ألبرت وقد استبد به الغضب والحنق: «سوف أرسل اليك شهودي، ولك أن تتفق واياهم على مكان اللقاء وموعده ونوع السلاح!».

فقال: «حسناً!. انني أقبل أن أبارزك، لكني أطلب مهلة قدرها ثلاثة أسابيع، وسوف أجيئك في نهايتها لأقول لك: (لقد كان النبأ كاذباً وسأكذبه).. أو لأقول: ان الخبر المنشور لا شك في صحته.. ثم أستل سيفي من غمده أو مسدسي من جرابه ـ حسبما تشاء ـ لأ بارزك!».

فصاح ألبرت وهو ينهض لينصرف: «ثلاثة أسابيع!.. انها سوف تمر كأنها ثلاثة قرون!».

وقبل أن يغادر مكتب بوشان، صب غضبه على كومة من الصحف راح يطوح بها في أرجاء الغرفة بعصاه!

وفيما هو في عربته لمح مكسمليان موريل يسير في الطريق بخطى سريعة ونظرة مشرقة، فحدث نفسه قائلا: «انه لسعيد ولا شك!».

ولم يخطىء في رأيه، فقد كان مكسمليان سعيداً جداً في تلك اللحظة، اذ كان في طريقه الى مسيو نوارتييه الذي أرسل يدعوه لسبب لا يعلمه!.. وحين وصل الى الدار أدخله الخادم باروا من مدخل خاص، ثم أغلق عليه باب حجرة سيده، وسرعان ما سمع الشاب حفيف ثوب يعلن قدوم فالنتين.. وابتدرته الفتاة قائلة:

ـ مسيو موريل: لقد اعتزم جدي أن ينتقل من هذا البيت، وقد شرع باروا يبحث له عن مسكن ملائم!

فسألها: «وماذا تفعلين أنت يا آنسة دي فيللفور، وهو لا غنى له عنك؟».

فأجابت بقولها: «اني لن أترك جدي.! هذا شيء مفهوم فيما بيننا، ولسوف يكون مسكني قريباً من مسكنه.. واذا وافق أبي على ذلك

فسوف أترك البيت على الفور. أما اذا لم يوافق فسوف أضطر الى الانتظار حتى أبلغ من الرشد بعدَ نحو عشرة شهور، وعندئذ أغدو حرة وتكون لي ثروة مستقلة أستطيع بفضلها، وبموافقة جدي، أن أنجز وعدي لك!».

ثم التفتت الى جدها وقالت له: «هل أحسنت التعبير عن رغبتك يا جداه؟».

فأومأ المشلول موافقاً، بينما هتف الشاب وقد استبد به رغبة في أن يجثو على ركبتيه خاشعاً أمام نوارتييه وفالنتين: «رباه ماذا فعلت في دنياي كي أستحق كل هذه السعادة؟!».

وأشار نوارتييه الى ابريق يحوي شراب الليمون وبجانبه كأس فارغة، وكان الابريق مملوءاً حتى آخره تقريباً، باستثناء القدر الذي شربه منذ حين.. فقالت فالنتين للخادم الوفي: «هيا يا باروا، خذ بعض هذه «الليموناضة» فاني أراك تشتهيها!».

فأجاب باروا: «أعترف يا آنستي بأني أكاد أموت ظمأ، وما دمت قد تعطفت فأذنت لي في ذلك فلست أزعم اني سأمانع في أن أشرب قليلا منها، نخب صحتك!».

وفيما كانت فالنتين ومكسمليان يتبادلان تحية الوداع في حضور جدها، سمعا جرس الباب الخارجي يدق، فنظرت الفتاة الى ساعتها.. وفي هذه اللحظة دخل باروا، فسألته فالنتين: «من القادم؟».

فأجاب الخادم وهو يكاد يترنح كمن يوشك أن يسقط: «انه الدكتور دافريني!».

واذ ذاك سألته سيدته: «ماذا بك يا باروا؟».. لكنه لم يجب بل حملق في سيده بعينين جاحظتين، وهو يستند بيده الى قطعة من الاثاث كي يتجنب السقوط!..

وازدادت حدة الاعراض التي بدت على الخادم بالتدريج، فاستدار وخطا بضع خطوات ثم سقط عند قدمي نوارتييه.

وفي هذه اللحظة أقبل مسيو دي فيللفور على صوت الضجيج.. بينما صاحت فالنتين بزوجة أبيها وهي تصعد السلم لملاقاتها: «تعالي بسرعة، واحضري معك زجاجة الاملاح المنبهة!».

فأجابتها السيدة دي فيللفور في صوت خشن غاضب وهي تهبط السلم وقد أمسكت باحدى يديها منديلها تمسح به وجهها، وأمسكت باليد الأخرى زجاجة الاملاح المنعشة: «ماذا حدث؟».. واتجهت بنظرتها الاولى لدى دخولها الغرفة نحو نوارتييه، الذي كان وجهه ـ باستثناء الانفعال الذي لا بد يحدثه فيه مثل هذا الحادث ـ ينم عن اكتمال العافية!.. وعندئذ نقلت المرأة بصرها الى الخادم المحتضر، فشحب وجهها على الفور وعادت تنظر الى سيده..!

وفي أثناء ذلك هتفت فالنتين بمكسمليان: «اذهب أنت بأسرع ما تستطيع، وابق حيث أنت حتى أرسل في طلبك.. اذهب!».

ونظر الشاب الى نوارتييه مستأذناً في الانسحاب، فمنحه العجوز اذنه وهو محتفظ بهدوئه المألوف، فقبل الشاب يد فالنتين مودعاً، ثم غادر المنزل عن طريق السلم الخلفي.. وفي اللحظة التي ترك فيها الحجرة دخلها فيللفور والطبيب قادمين من باب آخر، وكان الخادم المصاب يبدو كأنما استرد بعض وعيه، فاشترك الرجلان في حمله الى أريكة مريحة.. وهتف دي فيللفور:

ـ انظر، انظر يا دكتور.. ها هو ذا يعود الى رشده ثانية، اني لا أعتقد في الواقع أنه أمر ذو بال!».

فأجابه الطبيب بابتسامة ساخرة وهو يستجوب المريض الذي أفاق: «بماذا تشعر يا باروا؟.. ماذا أكلت اليوم؟».

فأجاب باروا: «لم آكل بعد، وانما شربت قدحاً من شراب الليمون الذي يخص سيدي!».

ـ وأين هذا الشراب؟

ـ لقد أعدته منذ لحظات الى المطبخ!

فهرع الطبيب نحو السلم الخلفي المؤدي الى المطبخ، وكاد أثناء اندفاعه يصطدم بالسيدة دي فيللفور التي كانت بدورها متجهة الى المطبخ، فصاحت تستوقفه. لكنه لم يعبأ بها وهبط الدرجات الأربع الباقية في قفزة واحدة ثم اقتحم المطبخ فوجد الابريق وقد بقي فيه نحو ربع الشراب، فأخذه في يده وعاد الى الغرفة التي كان فيها، وأثناء عودته صادف السيدة فيللفور صاعدة الى غرفتها في خطوات بطيئة!

وسأل الطبيب الخادم المصاب: «هل هذا هو الابريق الذي شربت منه؟».

فأجابه: «نعم».

وصب الطبيب قطرات من الشراب في راحة يده ثم تذوقها وبصقها في المدفأة.. بينما صاح به باروا: أغثني يا دكتور، النوبة ستعود ثانية».

فأجابه الطبيب: «كلا أيها الصديق!. انك لن تلبث أن تستريح».

فقال الخادم التعس: «آه، اني أفهم ما تعنيه، يا الهي، ارحمني!».

ثم أطلق صرخة مروعة وسقط على ظهره كأنما أصبته صاعقة!.. فجذبه الطبيب من ابطيه الى غرفة مجاورة ثم عاد ليأخذ ابريق شراب الليمون وقال مخاطباً دي فيللفور: «تعال هنا».

وحين جلسا في الغرفة التي رقد فيها المصاب سأله دي فيللفور:

ـ هل النوبة مستمرة يا دكتور؟

فأجاب: «بل انه قد مات.. لكن هذا ينبغي ألا يدهشك، فقد سبقه كل من المركيز والمركيزة سانت ميران الى مثل هذا المصير العاجل الغريب!».

فصاح هذا في رعب وفزع: «ماذا؟.. أما زلت تحوم حول تلك الفكرة الرهيبة؟».

فأجابه الطبيب: «نعم يا عزيزي، وسوف أظل كذلك دائماً، فأن الفكرة لم تبرح ذهني لحظة واحدة.. ولكي تكون على ثقة من أني لم أخطىء هذه المرة، أرجو أن تصغي جيداً لما سأقول: هناك نوع من السموم يقتل دون أن يخلف أثراً، وأنا أعرفه وقد درسته في جميع أشكاله ووسائل تركيبه في حالة المركيزة دي سانت ميران، وسوف أجزم بذلك أمام الله والناس!».

فلم يجب فيللفور بكلمة، واكتفى بأن ضم يديه وفتح عينيه الجاحظتين ثم غاص في أقرب مقعد..!

الأنتقام الالهي

انطلق الكونت دي مونت كريستو في طريقه الى داره الريفية في «أوتوى» يصحبه تابعه «علي» وبعض خدمه الآخرين، كما أخذ معه بعض جياده الجديدة ليستوثق من قدرتها.

وبعد حين دخل عليه خادمه «بابتستان» يحمل خطاباً على طبق من الفضة، وقدمه له قائلا: «رسالة هامة عاجلة!».

ففض الكونت الخطاب، وقرأ فيه: «يهمني أن أنبه الكونت دي مونت كريستو الى أن رجلا سيتسلل الليلة الى بيته في الشانزلزيه بغية سرقة بعض الاوراق الهامة المفروض أنها من منضدة مكتبه الصغير».

وكان أول خاطر جال بذهن الكونت لدى قراءة الرسالة أنها خدعة مكشوفة يراد بها تحويل انتباهه الى خطر تافه في سبيل تعريضه لخطر أعظم!.. فكاد يبلغ الأمر الى البوليس، برغم نصيحة كاتب الخطاب. ثم خطر له أن السارق المجهول قد يكون خصماً شخصياً له، فحدث نفسه:

«انه لا يريد أوراقي، بل يريد قتلي.. انه ليس سارقاً وانما هو قاتل!».

واذ ذاك نادى خادمه «باتستان» وقال له: «عد الى باريس حالا واجمع خدمي جميعاً واحضرهم الى هنا!».

ثم أعرب الكونت عن رغبته في أن يتناول طعامه وحده وألا يخدمه خلاله غير تابعه «علي».. واذ فرغ من تناوله، بهدوئه واعتداله المأثورين. أشار الى «علي» كي يتبعه، ثم خرج من باب جانبي فاستقل

عربته الى غابة بولونيا، وهناك استدار ــ دون خطة مرسومة ــ نحو طريق باريس.. فلما حان الغروب وجد نفسه تجاه داره في الشانزلزيه!

ودلف الى مخدعه، ثم أشار الى علي كي يقف هناك، ومضى هو وحده الى غرفة الزينة ففحصها بدقة، ووجد كل شيء فيها كما تركه، ومنضدة المكتب الثمينة في مكانها، والمفتاح على درجها.. فأغلقه بعناية وأخذ المفتاح عائداً الى باب المخدع ففتح مزلاجه المزدوج ودخل.. وفي أثناء ذلك كان «علي» قد جهز الاسلحة التي طلبها الكونت، فتسلمها منه ثم وقف خلف نافذة من نوافذ المخدع موازية لنافذة غرفة الزينة ومطلة على الشارع.

وانقضت ساعتان على هذا المنوال، ودقت ساعة الانفاليد مؤذنة بانتصاف الليل. ولم يكد صدى الدقة الاخيرة من دقاتها يتلاشى حتى خيل الى الكونت أنه سمع صوتاً خفيضاً صادراً من حجرة الزينة ثم تكرر الصوت مرة ثانية، فثالثة، فرابعة.. وعندئذ أدرك الكونت أن يداً بارعة ذات خبرة تحاول كسر زجاج النافذة بماسة!.. وكانت تلك النافذة مواجهة للفتحة التي يستطيع الكونت أن يرى خلالها، من مكانه ما يجري في غرفة الزينة.. ومن ثم ركز بصره على النافذة، فرأى في الظلام شبحاً يمد يده من خلال الثغرة التي فتحها في الزجاج فيفتح النافذة، من الداخل ثم يثب منها الى الغرفة.. فهمس الكونت: «يا له من جريء!».

وفي تلك اللحظة لمس «علي» كتف سيده، مشيراً له من خلال النافذة المطلة على الطريق، الى شخص يقف في الشارع فهمس الكونت: «اذن.. هما شخصان. أحدهما يتسلل الى البيت والآخر يراقب مدخل الدار!».

ثم أوصى علي بألا يدع الشريك الذي في الشارع يغيب عن بصره، واستدار هو ليرقب الشخص الذي دخل حجرة الزينة.. فرآه يتجه الى منضدة المكتب و يحاول فتحها بطائفة من المفاتيح المصطنعة مستعيناً

على اختيار المفتاح المناسب بضوء (بطارية) ما لبث ضوؤها الشاحب أن وقع على وجهه و يديه، فحدث الكونت نفسه قائلا وهو يتراجع: «يا الهي!».

وفي تلك اللحظة لمح الكونت تابعه «علي» يرفع في يده آلة حادة أشبه بالفأس فهمس له: «لا تتحرك، ودع فأسك، فلن يحوجنا الأمر الى سلاح!».

ثم همس له ببضع كلمات أخرى، مضى هذا على أثرها دون أن يحدث صوتاً ثم عاد بعد حين يحمل رداء أسود وقبعة مثلثة الأركان!. وفي أثناء ذلك كان الكونت قد خلع سترته وصداره وقميصه ثم ارتدى درعاً من الفولاذ وفوقه رداء رجال الدين الكهنوتي الاسود، وأخفى شعره تحت جمة من الشعر المستعار كالتي يرتديها القساوسة، وحين وضع فوقها القبعة المثلثة الاركان تحول الكونت في لحظة الى قسيس!.. ثم أخرج من أحد الادراج شمعة أضاءها.. وفيما كان اللص مستغرقاً في محاولة فتح القفل فتح الكونت الباب دون صوت وهو يحمل الشمعة بحيث يقع ضياؤها مباشرة على وجهه.. فذعر اللص بينما قال له الكونت:

ـ طاب مساؤك يا عزيزي كادروس.. ماذا تفعل هنا في هذه الساعة؟

فهتف كادروس في دهشة وذعر: «الأب بوزوني؟!».. وأفلتت يده المفاتيح فسقطت على الارض، وراح يتطلع حواليه باحثاً عن وسيلة للهرب، فلاحقه الكونت قائلا: «أرى انك ما زلت كما عهدتك دائماً: قاتلا!.. ألم تقتل الجوهري الذي ابتاع منك الماسة التي أعطيتك اياها؟..

فأجاب في صوت مرتجف: «نعم، هذا صحيح يا سيدي القس!».

فعاد يسأله: «من الذي أخرجك من السجن؟».

فأجاب: «اللورد و يلمور!».

فسأله: «أكان ذلك الثري الانجليزي يتولى حمايتك؟».

فأجاب: «لا.. لم يكن يحميني أنا، بل كان يحمي شاباً كورسيكياً كان زميلي في السجن يدعى «بنديتو».. وقد صار هذا الشاب الآن ابناً لثري عظيم هو الكونت دي مونت كريستو الذي نحن في بيته الآن!».

فقال له الكونت وقد أخذه العجب هو الآخر:

ـ بنديتو صار ابناً للكونت دي مونت كريستو؟!.. كيف كان ذلك؟

فقال كادروس: «أعتقد ذلك، فان الكونت قد أولد له أباً زائفاً، وصار يعطيه راتباً شهرياً قدره أربعة آلاف فرنك، فضلا عن نصف مليون فرنك تركها له في وصيته!».

فقال الكونت وقد بدأ يفهم: «ما هو الاسم الذي يحمله ذلك الشاب الآن؟.. أتعني أندريا كافالكانتي ذلك الشاب الذي استقبله صديقي الكونت دي مونت كريستو في منزله، والذي سيتزوج من الآنسة دانجلر؟».

فأومأ كادروس موافقاً، بينما واصل الكونت كلامه قائلا:

ـ كيف تصدق ذلك أيها التعس، وأنت تعرف حياته وجرائمه؟

فقال: «لم أشأ أن أقف عقبة في سبيل صديق من زملائي!».

فرد عليه الكونت قائلا: «أنت على حق، واذن.. سأتولى أنا لا أنت ابلاغ هذه الحقيقة الى البارون دانجلر.. سأكشف له كل شيء!».

وغمغم كادروس قائلا: «انك لن تفعل مثل هذا يا سيدي القس!».

وفي مثل لمح البرق، استل كادروس خنجره وطعن به الكونت في صدره!. وشدما كان عجبه وفزعه حين ارتد الخنجر مكسوراً بدلا من أن يثقب صدر القس المزعوم. وفي اللحظة نفسها قبض الكونت بيسراه

على معصم كادروس وضغط بقوة جعلت الخنجر يسقط من بين أصابعه المتقلصة. فأطلق صرخة ألم حادة، لكن الكونت استمر يضغط معصم الشقي حتى اضطره الى أن يرتمي على الارض وهو يتأوه.. وعندئذ وطأ الكونت رأسه بقدمه قائلا: «لست أدري ما الذي يمنعني من أن أسحق جمجمتك؟!».

فصرخ كادروس: «الرحمة.. الرحمة!».

واذ ذاك سحب الكونت قدمه وقال له: «انهض، خذ هذا القلم والورق واكتب ما أمليه عليك».

فجلس كادروس وقد أذهلته قوة القس الخارقة، وكتب:

«سيدي.. ان الرجل الذي تستقبله في بيتك، والذي تعتزم أن تزوجه لابنتك، هو قاتل فر معي من السجن المؤبد في طولون، وقد كان يعرف باسم بنديتو، وكان رقمه (٥٩) بينما كان رقمي أنا (٥٨). وهو يجهل اسمه الحقيقي لانه لم يعرف لنفسه أباً!».

واستطرد الكونت فقال لكادروس: «هيا.. وقع على الخطاب.. واكتب العنوان: (الى البارون دانجلر، المالي الكبير، شارع دي لاشوسيه دانتان)».

فكتب كادروس ما أملى عليه، وحين فرغ من ذلك صاح به الكونت وهو يشير الى النافذة: «والآن اغرب عن وجهي».

وحين خرج كادروس من النافذة وبدأ يهبط أدنى الكونت الشمعة منه، كي يرى من في الشارع أن شخصاً كان يمسك الشمعة للص أثناء نزوله!. ثم تركه ومضى مسرعاً الى مخدعه حيث أطل من نافذته، فرأى كادروس يسير على الجدار متجهاً نحو الواجهة الجانبية للبيت ــ كمن يحاول الهروب من رفيقه الذي ينتظره في أسفل ــ ثم ينزلق على الانابيب بعد أن استوثق من أن صاحبه لم يره.. لكنه لم يكد يبلغ

الارض حتى تلقاه هذا بطعنة حادة في ظهره، فصاح مذعوراً: «النجدة!».

وعلى أثر ذلك فتح باب الدار الخلفي، وظهر منه الكونت في ثياب القس، ومعه علي خادمه يحملان مصباحين، وما لبثا أن نقلا الجريح الى احدى الحجرات حيث فحص الكونت جراحه الفظيعة وقال محدثاً نفسه: «يا الهي!. ان انتقامك قد يتأخر أحياناً، ولكن كي يتم آخر الأمر على أكمل وجه!».

بينما نظر علي الى سيده في انتظار تعليماته، فقال له هذا: «استدع فوراً قاضي التحقيق مسيو دي فيللفور، وهو يقطن في شارع سانت أونوريه. وعند مرورك بالمسكن أيقظ البواب وأرسله كي يحضر جراحاً».

وحين فتح كادروس عينيه مرة أخرى قال للكونت: «لقد خذلني وقتلني بعد أن أعد خطة اقتحام هذا البيت، آملا بلا شك أن أقتل الكونت فيصبح هو وارثه، أو أن يقتلني الكونت فيستريح هو مني الى الابد!».

فقال له: «تستطيع أن تملي علي اعترافك ثم توقع عليه بنفسك!».

فلمعت عينا الجريح ارتياحاً لفكرة هذا الانتقام السريع، بينما كتب مونت كريستو هذه العبارة: «إني أموت مقتولا بيد الكورسيكي المدعو (بنديتو) رفيقي في سجن تولوز، رقم ٥٩».. ثم أعطى الريشة لكادروس، فاستجمع هذا كل قواه ووقع عليها.. ثم خر على فراشه وقد بدأ يحتضر.

وهنا قال الكونت دي مونت كريستو وهو يقرب الضوء من وجهه: «انظر الي جيداً!».. ثم خلع الشعر المستعار وترك شعره الطبيعي يسقط على رقبته.. واذ ذاك هتف كادروس كالمصعوق: «أوه، لولا شعرك الاسود لقلت انك ذلك الانجليزي، اللورد و يلمور!».

فقال له: «كلا!.. لست اللورد و يلمور، كما اني لست الأب بوزوني».

ثم اقترب الكونت من الجريح وانحنى فوقه هامساً: «أنا.. أنا».. ولفظت شفتاه شبه المغلقتين اسماً بصوت خافت.. فأجفل كادروس مذعوراً وحاول أن يتراجع، ثم ضم يديه ورفعهما الى أعلى، وهو يهتف: «أواه يا الهي!.. اغفر لي إنني أنكرتك.. انك موجود ولا شك». ثم تنهد تنهدة عميقة وسقط على ظهره. وما لبث أن لفظ نفسه الأخير!

محاكمة في مجلس الشيوخ

استيقظ «البرت ديمورسيرف» ذات صباح فاذا خادمه يعلن اليه قدوم الصحفي بوشان، ففرك عينيه وأمر خادمه بأن يقود الزائر الى حجرة الاستقبال التي في الطابق الأرضي.. ثم ارتدى هو ثيابه على عجل وهبط اليه فوجده يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة، ثم توقف حين شعر بدخوله، فابتدره قائلا:

ـ ان قدومك الى هنا بلا انتظار لزيارتي لك اليوم يبدو فألا طيباً.. فهل ترى استطيع أن أصافحك قائلا: (اعترف يا بوشان بأنك قد أسأت الي، واسترد صداقتي).. أم انك ستلجئني الى أن أقترح عليك اختيار السلاح الذي يروقك؟!

فقال بوشان: «يا عزيزي ألبرت.. اني عائد لتوي من (يانينا) وقد كان يسرني يا صديقي أن أعتذر اليك، لكن ذلك النبأ كان صحيحاً مع الأسف، وذلك الضابط الفرنسي فرناند، الخائن الذي سلم قلعة الوالي وهو يعمل في خدمته، كان بعينه والدك!.. واليك الدليل في هذه الورقة!».

ونشر ألبرت الورقة التي قدمها له صديقه، وكانت اقراراً موقعاً عليه من أربعة من كبار أهل يانينا البارزين، يشهدون فيه بأن الكولونيل فرناند مونديجو الذي كان يعمل في خدمة علي باشا والي المدينة قد سلم القلعة مقابل مليوني ريال! وكانت التوقيعات الأربعة صحيحة وشرعية!

ولم يكد ألبرت يفرغ من قراءة الورقة حتى ارتمى متهالكاً على مقعد في الحجرة ولم يعد لديه أي شك في أن اسم أسرته قد لطخ بالعار الى الأبد! وبعد فترة صمت كئيبة طويلة فاض به الحزن فأطلق لدموعه العنان!

ونهض بوشان بعد قليل للانصراف تاركاً لألبرت تلك الورقة فتناولها هذا بيد مرتعشة وأحرقها ثم ألقى بها في النار!

وبعد ثلاثة أيام نشرت صحيفة أخرى الفقرة التالية: «ان الضابط الفرنسي الذي كان في خدمة علي باشا والي يانينا، وأشارت اليه صحيفة (امبارسيال) منذ ثلاثة أسابيع، لم تقتصر فعلته على تسليم قلعة المدينة، بل أنه باع ولي نعمته للأتراك.. وقد كان اسمه وقتئذ فرناند، لكنه أضاف اليه فيما بعد لقباً من ألقاب النبلاء فصار يدعى الآن الكونت دي مورسيرف، وبات يعتبر في مصاف الأمراء!».

وهكذا بعث السر الرهيب من قبره فجأة كالشبح المخيف.. وفي اليوم نفسه ثارت ضجة كبرى في مجلس الشيوخ بين الاعضاء الوقورين بطبعهم، فحرص كل منهم على أن يصل الى المجلس قبيل الموعد المعتاد، وتبادل الجميع الحديث في الحدث المروع الذي سوف يسترعي انتباه الجماهير نحو واحد من زملائهم اللامعين.. وكان بعضهم يفيد قراءة النبأ في الصحيفة، والآخرون يعلقون عليه و يذكرون وقائع وملابسات تزيد التهمة توكيداً.

وبقي الكونت دي مورسيرف وحده يجهل تلك الأنباء، فانه لم يكن قد طالع الصحيفة التي نشرتها، بل انفق الصباح في كتابة الخطابات وفي تجربة جواد جديد!.. وهكذا وصل الى دار المجلس في الموعد المألوف وعلى وجهه سيماه المعتادة من العجرفة والوقاحة، فهبط من عربته، ومر خلال ممرات الدار، ودخل قاعة الجلسة، دون أن يلاحظ همهمة الحراس أو فتور زملائه نحوه. وكانت الجلسة قد بدأت منذ نِصف ساعة، وأمسك كل عضو في يده بصحيفة الاتهام.. ولكن كما هي

العادة دائما ـ لم يشأ واحد من الأعضاء أن يأخذ على عاتقه مسئولية البدء بالمهاجمة.. وأخيراً نهض عضو له مكانته ـ وكان ألد خصوم مورسيرف ـ فارتقى المنصة في صرامة توحي باقتراب اللحظة الحاسمة، ثم بدأ يتلو ما ورد في الصحيفة.. ولم يتنبه الكونت في البداية للمقدمة.. ولكن لم يكد المتكلم ينطق باسم (يانينا) واسم الكولونيل فرناندو مونديجو حتى شحب وجهه شحوباً مخيفاً جعل كل عضو يتوجس شراً وهو يسلط عليه عينيه!

وبلغ من مفاجأة مورسيرف بهذه الكارثة غير المتوقعة انه لم يجد جواباً فلم ينطق بغير بضع كلمات مبهمة وهو ينظر حواليه الى أعضاء المجلس في ذهول.. فعرض الرئيس أخذ الأصوات، وأسفر الاقتراع عن الموافقة على وجوب التحقيق.. فسئل المتهم عن المهلة التي يطلبها لتحضير دفاعه، فأجاب من فوره: «أنا اليوم تحت تصرفكم!».

وألفت لجنة من اثني عشر عضواً لفحص أدلة الاتهام والنفي، وتقرر أن تبدأ اللجنة عملها في الساعة الثامنة من ذلك المساء.. فطلب مورسيرف الاذن له في الانسحاب كي يجمع المستندات التي أعدها منذ زمن لمواجهة هذه العاصفة.

وفي الموعد المحدد اجتمع أعضاء لجنة التحقيق، ودخل الكونت دي مورسيرف يحمل في يده أوراقاً. وكان هادىء الوجه، حازم الخطى، مفرط العناية بزيه العسكري. وفي تلك اللحظة دخل حارس يحمل خطاباً الى رئيس اللجنة، فقال الرئيس وهو يفض الخطاب، موجهاً كلامه الى الكونت دي مورسيرف: «لك أن تبدأ دفاعك يا مسيو مورسيرف».

فقدم الكونت مستندات تثبت أن والي يانينا كان يخصه بثقته الكاملة حتى آخر لحظة، بحيث أنه عهد اليه في مفاوضة السلطان بشأن حياته أو موته!.. ثم قدم الكونت الخاتم الذي كان علي باشا يختم به أوراقه الرسمية وخطاباته، وقد اعطاه اياه كي يمكنه من

الدخول عليه في أية ساعة بالليل أو النهار حتى وهو في جناح الحريم!.. ثم أوضح الكونت كيف أن مفاوضاته مع السلطان بشأن العفو عن الوالي قد فشلت، فلما عاد ليدافع عن ولي نعمته و يدفع عنه الاذى وجده قد مات.. ثم قال الكونت:

ـ لقد بلغ من ثقة علي باشا بي أنه وهو يودعني قبيل سفري عهد الي في رعاية محظيته المفضلة وابنتها في حالة وفاته!».

وكان رئيس اللجنة قد فض الخطاب الذي سلم اليه، وقرأه باهتمام، مرة بعد مرة وهو يرمق المتهم بنظرات حادة، ثم خاطبه قائلا: «انك ذكرت أن والي يانينا عهد اليك في رعاية ابنته وزوجته، فماذا تم في أمرهما؟».

فاجاب مورسيرف: «مما يؤسف له يا سيدي أن سوء الحظ لاحقني في هذا الشأن كما حدث في مناسبات أخرى، فحين عدت كانت «فاسيليكي» وابنتها «هايدي» قد اختفتا، وقد سمعت فيما بعد أنهما سقطتا فريسة لأحزانهما، وربما لفقرهما.. ولما لم أكن غنياً، وكانت حياتي معرضة لخطر دائم، لم استطع مواصلة البحث عنهما!».

وهنا تجهم وجه الرئيس والتفت الى أعضاء اللجنة قائلا:

ـ أيها السادة.. لقد سمعتم دفاع الكونت دي مورسيرف. وبقي أن نسأله هل يستطيع أن يقدم لنا شهوداً يثبتون صحة كلامه».

فأجاب الكونت: «الواقع يا سيدي، أن جميع الذين كانوا يحيطون بالوالي أو الذين عرفوني في بلاطه قد ماتوا أو اختفوا».

وهنا استطرد الرئيس فقال:

لعلك ترحب اذن بسماع شهادة شخص يعتبر نفسه شاهداً هاماً في النزاع. انه ولا شك قد جاء ليثبت براءة الكونت.. وهأنذا أتلو الخطاب الذي تلقيته منه وهو. «سيدي الرئيس.. في استطاعتي أن أزود لجنة

التحقيق بما يلقي الضوء على مسلك اللفتنانت جنرال الكونت دي مورسيرف في «ايبيروس» ومقدونيا، فلقد حضرت وفاة علي باشا، وأعرف مصير فاسيليكي وهايدي، و يسرني أن أضع نفسي تحت تصرف اللجنة، بل وأطالب بمنحي شرف سماع شهادتي.. وسوف أكون في حجرة الانتظار بالمجلس حين تسلم هذه الورقة إليكم!».

وبعد خمس دقائق ظهر الحارس ومعه تلك الشاهدة فنظر اليها الكونت دي مورسيرف في دهشة ورعب.. وابتدرها رئيس اللجنة: «هل كنت شاهدة عيان للأحداث موضوع التحقيق؟».

فأجابت الحسناء المجهولة بذلك الصوت العذب الرنان المأثور عن الشرقيات.: «نعم، كنت في الرابعة من عمري، ولكن لما كانت تلك الأحداث وثيقة الصلة بحياتي فقد وعيت جميع تفصيلاتها!».

فسألها الرئيس: «من أية ناحية كانت الأحداث وثيقة الصلة بحياتك؟».

فأجابت: «انني هايدي بنت علي باشا ولي يانينا من زوجته فاسيليكي!».

فقال الرئيس وهو ينحني لها في احترام عميق: «هل تستطيعين اثبات هذه الصفة التي تدعينها لنفسك؟

فقالت: «نعم استطيع ذلك.. فهذه شهادة ميلادي موقع عليها من أبي وكبار موظفيه الرسميين، وهذه شهادة معموديتي ـ فقد أنشأتني أمي على دينها ـ ثم هذا خطاب مختوم من رئيس وزراء مقدونيا وايبيروس.. وأخيراً ـ لعله الدليل الأعظم ـ هذه وثيقة بيعي وبيع أمي الى التاجر الأرمني (الكوبير) بواسطة الضابط الفرنسي الذي احتفظ لنفسه ـ في مساومته الدنيئة مع الباب العالي ـ بزوجة ولي نعمته وابنته ثمناً لخيانته اياه!.. وقد باعنا بمبلغ أربعمائة ألف فرنك!».

وأخرجت الفتاة الوثائق من حقيبة حريرية كانت تمسك بها تحت نقابها، ثم سلمتها لرئيس اللجنة!

وغامت على وجه الكونت سحابة من الشحوب المخيف، واندفع الدم الى عينيه ازاء هذه الاتهامات الفاضحة التي أصغى اليها أعضاء اللجنة واجمين.. بينما ظلت هايدي محتفظة بهدوئها الذي أقسى من كل ثورة ثم شرع المترجم يقرأ بصوت مسموع ترجمة وثيقة البيع المكتوبة بالعربية!

ولم ينطق الكونت دي مورسيرف بكلمة أثناء تلاوة هذه الوثيقة، وقد تجلت تعاسته على وجهه واضحة الخطوط!

وقال الرئيس يخاطب المتهم: «ان الكونت دي مورسيرف يعلم يقيناً أن عدالة المحكمة من عدالة الله، وهي لا تعرف غير وجه الحق، وعلى هذا النوع لن تدع خصومك يسحقونك دون أن تتيح لك فرصة الدفاع عن نفسك! هل تطلب مزيداً من التحقيقات والأدلة؟ هل نرسل عضوين من اللجنة الى يانينا لهذا الغرض؟.. تكلم، أجب!».

فقال الكونت بصوت خائر: «ليس عندي ما أجيب به!».

فقال له الرئيس: «هل تعني ان ابنة علي باشا صادقة فيما تقول؟

ونظر الكونت حواليه نظرة تلين قلوب الوحوش، لكنها لم تستطع أن تنسي قضاته واجبهم.. وعندئذ شق سترته التي أحس أنها تخنقه، وفر من القاعة كالمجنون لا يلوي على شيء!

وحين سكنت الجلبة التي أعقبت ذلك قال الرئيس يخاطب أعضاء اللجنة: «أيها السادة، هل ترون ادانة الكونت دي مورسيرف باعتباره قد ارتكب جريمة الخيانة وما يلابسها من التصرفات التي تجعله غير مستحق لأن يكون عضواً في هذا المجلس؟».

فوافق أعضاء لجنة التحقيق على ذلك بالاجماع!

مبارزة لم تتم

حمل بوشان الى صديقه المحطم ألبرت دي مورسيرف أنباء محاكمة أبيه، فلما انتهى من سردها رفع الشاب وجهه الذي كسته حمرة العار وغسلته الدموع، وأمسك بذراع بوشان قائلا:

ـ يا صديقي.. ان حياتي قد انتهت!.. وبودي لو أعرف خصمي الذي يلاحقني بهذه الكراهية العمياء لكي أقتله أو يقتلني!.. وأنا أعتمد على صداقتك كي تساعدني في هذا البحث، واذا لم يكن الاحتقار قد اقتلع هذه الصداقة من قبلك!».

فقال بوشان: «أنكر لك ما أحجمت عن الاشارة اليه لدى رجوعي من يانينا!.. لقد توجهت أثناء قيامي بتحقيق الأمر هناك الى مدير البنك الرئيسي في المدينة كي أسأله عن معلوماته.. وما كدت أشير الى الموضوع قبل أن أذكر اسم أبيك، حتى بادرني الرجل قائلا: «انني أعرف الأمر الذي جاء بك الى هنا. فقد سألني منذ أيام عميل لي من رجال المال الباريسيين هو مسيو دانجلر».

فصاح ألبرت: «يا للشيطان.. آه، انه هو حقاً الذي طالما لاحق أبي بغيرته العمياء من المكانة التي بلغها.. ثم هناك فسخ مشروع زواجي من ابنته دون سبب، الأمر الذي يزيد المسألة وضوحاً!.. اذا كان دانجلر هو المسئول فسوف يموت أحدنا قبل أن تغرب شمس هذا اليوم!».

فقال بوشان: «اذا كنت حقاً تعني ما تقول فينبغي أن تنفذ هذا القرار فوراً. أعني أن تذهب الآن لمقابلة دانجلر».

وبعد قليل كان خادم البارون دانجلر يعلن سيده برغبة ألبرت في مقابلته، لكن دانجلر ـ اذ تذكر اليوم السابق ـ أبى أن يستقبله.. على أن رفضه هذا لم يجده فتيلا فان ألبرت كان قد تبع الخادم الى قرب باب الحجرة التي يجلس فيها سيده فلم يكد يسمع كلمة الرفض حتى اقتحم الباب، و يتبعه بوشان.. فصاح به دانجلر: «سيدي.. أليس لي أن أستقبل أو لا أستقبل في بيتي من أشاء؟. ماذا تبغي مني؟!».

فأجابه الشاب وهو يدنو منه: «أبغي أن أقترح لقاء في مكان منعزل لا يزعجنا فيه أحد لمدة عشرة دقائق، هذا يكفي.. وبعدها لن يبقى على قيد الحياة سوى أحدنا فقط!».

فأجابه دانجلر وقد شحب وجهه من الغضب والخوف:

ـ دعني أحذرك اذن، فمن عادتي حيثما التقيت بكلب مسعور أقتله!.. هل هي غلطتي أن يجلب أبوك على نفسه العار؟».

فقال ألبرت: «نعم أيها النذل التعس انها غلطتك!. من الذي كتب الى يانينا يستفسر عن الأمر؟».

فقال دانجلر: «أنا الذي كتبت بلا شك!. وأحسب أن من حق كل أب يعتزم تزويج ابنته من شاب أن يستفسر ما شاء عن أسرة ذلك الشاب وماضيه!.. أنا أجزم لك بأنه ما كان ليدور بخلدي قط أن أسأل أهل يانينا من تلقاء نفسي!».

ـ اذن فمن الذي حثك على الكتابة؟

ـ ليس غير صديقك الكونت دي مونت كريستو.

ـ وهل عرف الكونت الرد الذي تلقيته؟

وأحس البرت أن دمه يصعد الى مخه، ولم يعد لديه شك في أن الكونت دي مونت كريستو متحالف مع خصوم أبيه!.. ومن ثم انتحى ألبرت بصديقه بوشان جانباً وصارحه بهذه الخواطر، فقال له هذا:

ـ انت على حق! ان مسيو دانجلر لم يكن غير عامل ثانوي في هذه المأساة المحزنة.. أما المسئول الأول الذي ينبغي أن تطلب منه ايضاحاً فهو الكونت دي مونت دي كريستو!

وهنا التفت ألبرت الى دانجلر قائلا: «فلتعلم اذن أن هذا ليس فراق نهائياً بيننا، إلا إذا ثبت لي صحة كلامك، واني أهب الآن لأطلب ايضاحاً عن الأمر من الكونت دي مونت كريستو!».

وعلم ألبرت أن الكونت موجود في دار الأوبرا فقصد الى هناك، ولم يكد ينتهي الفصل الثاني حتى اقتحم مقصورة الكونت يتبعه شاهداه: بوشان وشاتو رينو.. فابتدره الكونت مرحباً: «طابت ليلتك يا مسيو دي مورسيرف».

فأجابه ألبرت: «نحن لم نأت الى هنا يا سيدي كي نتبادل التحيات القائمة على الرياء والنفاق والأدب الزائف أو الصداقة المزعومة.. وإنما جئنا لنطلب ايضاحاً!».

فقال الكونت في هدوء: «الحق اني لست أفهمك يا سيدي وإذا كنت أفهمك فلا مفر لي من أن أنبهك الى أن صوتك مرتفع أكثر مما ينبغي.. فأنا المضيف هنا، وأنا وحدي صاحب الحق في أن يعلو صوتي على صوت سواي.. فلتغادر مقصورتي حالا!».

ثم أشار له نحو الباب، في أروع مظاهر الوقار!

فأجابه ألبرت وهو يضرب يده بقفازه: «حسناً!.. سأعرف كيف أجعلك تخرج من مكمنك!».

فقال الكونت في هدوء: «مرحى، مرحى، أرى أنك تريد أن تتشاجر معي، لكني سأعطيك نصيحة واحدة في هذا الصدد يحسن بك أن تعيها جيداً. انه لمن سقم الذوق أن تتظاهر بالتحدي، فان التظاهر لا يخدع كل انسان يا مسيو دي مورسيرف!».

وعلى كل حال لنتفق من الآن، ولتكن المبارزة بالمسدسات، في

الساعة الثامنة، في غابة فنسين!

وبعد حين استقل الكونت عربته، وكان هادئاً باسماً، فوصل الى منزله بعد خمس دقائق.. ولم يكد يدخل حتى نادى تابعه عليا وابتدره قائلا:

ــ أحضر لي مسدساتي ذات الصليب العاجي..

وحين أحضرها تناول أحدها فصوبة نحو طبق حديدي كان يتخذه هدفاً يتدرب عليه، وفي هذه اللحظة طرق الباب ودخل خادمه بابتستان..وقبل أن ينطق بكلمة رأى الكونت في الغرفة المجاورة امرأة تضع على وجهها نقاباً مقبلة في أثر الخادم، فلما رأت المسدس في يد الكونت والسيوف التي على المنضدة أمامه اندفعت داخلة.. واذ ذاك خرج الخادم واغلق الباب.. فدارت المرأة بعينها فيما حولها كأنما لتستوثق من أنهما وحيدان، ثم انحنت كمن تتأهب للركوع، وضمت يديها في توسل يائس وهتفت في ضراعة:

ــ ادمون!.. انك لن تقتل ابني يا إدمون!

فتراجع الكونت وأطلق آهة تعجب، ثم ترك المسدس يسقط من يده وسألها:

ــ ما هذا الاسم الذي نطقت به يا مدام دي مورسيرف؟

فصاحت وهي تزيح النقاب عن وجهها: «انه اسمك!.. اسمك الذي أنا وحدي لم أنسه.. ان مدام دي مورسيرف ليست هي التي تتوسل اليك الآن.. بل مرسيديس!»

فقال الكونت: «ان مرسيديس قد ماتت يا سيدتي، ولست أعرف الآن امرأة بهذا الاسم!»

فقالت: «كلا! ان مرسيديس على قيد الحياة يا سيدي، وهي ما تزال تذكر، فهي وحدها التي عرفتك حين رأتك، بل عرفتك بصوتك قبل أن تراك يا أدمون!. ومنذ تلك اللحظة تتبعت خطاك وراقبتك، وخشيت

بأسك، ولست في حاجة الى أن أسأل عن اليد التي أنزلت الضربة التي يترنح تحت وطأتها الآن مسيو دي مورسيرف.. بل أن أبني بدوره قد استنتج من تكون، وقد عزا المصائب التي دهمت أباه الى تدبيرك!»

ـ أنت مخطئة يا سيدتي، فهي ليست مصائب، وانما هي عقاب!.. ولست أنا الذي يضرب مسيو دي مورسيرف، وانما هي العناية الالهية التي تعاقبه!

ـ ولماذا تمثل أنت العناية الالهية؟ لماذا تذكر أنت ما أرادت هي أن يطو يا النسيان؟. ماذا يهمك من أمر يانينا وواليها؟. أدمون!. أي أذى ألحقه بك فرناند موندبجو بخيانته لعلي باشا؟

ـ آه يا سيدتي، كل هذا أمر يخص الضابط الفرنسي وابنة فاسيليكي ولا يخصني أنا، أنت محقة في ذلك.. واذا كنت قد أقسمت لأنتقمن لنفسي فان هدف انتقامي لم يكن الضابط الفرنسي، أو الكونت دي مورسيرف وانما هو صياد السمك فرناند، زوج مرسيديس سليلة عشيرة كاتالان..

فصاحت الكونتيس: «آه يا سيدي، يا له من انتقام رهيب من أجل غلطة كان القدر هو المسئول عن جعلي ارتكبها.. فالواقع إنني أنا المذنبة الوحيدة يا أدمون، واذا كنت تبغي الانتقام من أحد فليكن انتقامك مني أنا التي لم يكن لي من قوة الخلق ما يمكنني من احتمال غيابك ووحدتي..!»

ـ ولكن.. من كان السبب في غيابي، وفي دخولي السجن؟

ـ لست أعلم.. وصدقني!

ـ انني أصدقك يا سيدتي، أو هذا ما أرجوه على الاقل!.. لكني سأذكر لك السبب. لقد اعتقلت وسجنت لأنه في اليوم السابق لموعد زواجي منك، وفي مقهى (لاريزرف)، كتب شخص يدعى دانجلر خطاباً أرسله الصياد فرناند بنفسه الى الجهة الموجه اليها!

ثم مضى الكونت الى درج مكتبه ففتحه وأخرج منه ورقة حال لونها وبهت حبرها من طول الزمن، فوضعها في يد مرسيديس. ولم تكن سوى خطاب دانجلر الى قاضي التحقيق!

فقالت مرسيديس بعد أن قرأتها، وهي تمر بيدها على جبينها المبلل بالعرق:

ــ يا للفظاعة!.. وكانت نتيجة هذا الخطاب أن..

ــ كانت نتيجته ما تعرفينه جيداً يا سيدتي، من اعتقالي على المائدة وايداعي السجن.. لكنك لا تعرفين كم بقيت في السجن. لا تعرفين أني عشت أربعة عشر عاماً في زنزانة بقصر «أيف»، على بعد بضعة كيلومترات منك!.. لا تعرفين أني قضيت تلك المدة أجدد القسم كل صباح على أن انتقم.. ولو إني لم أكن أعلم وقتئذ أنك قد تزوجت من فرناند ــ جلادي ــ وأن أبي قد مات من الجوع!

فقالت مرسيديس وهي ترتجف: «هذا ما عرفته عند خروجي من السجن.. وهذا ما جعلني أحرص على الانتقام لنفسي من فرناند، وقد فعلت!

ونكست المرأة التعسة رأسها، وتركت ذراعيها تسقطان الى جانبها، وتخاذلت ساقاها تحتها.. ثم ركعت على ركبتيها متوسلة قائلة: «أصفح يا أدمون، أصفح من أجلي أنا التي ما زلت أحبك!»

فاندفع الكونت نحوها ورفعها عن الارض.. فلما جلست على مقعد نظرت الى وجهه المهيب الناطق بالرجولة، وبالحزن والكراهية ولم تتكلم، فسألها هو: «أتريدين ألا أسحق تلك الشجرة اللعينة، وأن أتنازل عن هدفي في اللحظة التي بلغته فيها؟ هذا مستحيل يا سيدتي.. مستحيل!»

فهتفت الأم التعسة: «أدمون!.. عندما أناديك باسم أدمون، لم لا تناديني باسم مرسيديس؟»

ـ مرسيديس؟!.. حسناً يا مرسيديس!. أنت على حق ولا شك فما زال الاسم سحره القديم. وانها المرة الاولى منذ زمن طو يل التي أنطق فيها به في وضوح. أواه يا مرسيديس! لقد هتفت باسمك في ظلمة اليأس والحزن والجنون.. مرسيديس!. يجب أن أنتقم لنفسي، فقد تعذبت أر بعة عشر عاماً.. بكيت أر بعة عشر عاماً، والآن أصارحك بأني ينبغي أن أنتقم لنفسي!

ـ انتقم لنفسك يا ادمون، ولكن دع انتقامك يحل بالمذنبين لا بالأبرياء.. انتقم منه، ومني، ولكن ليس من أبني!»

ـ مكتوب في التوراة أن ذنوب الآباء تقع على الأبناء حتى الجيلين الثالث والرابع.. فاذا كان الله ذاته قد أملى هذه الاحكام على نبيه، فلماذا أكون أنا أرحم من الله؟

فاستطردت مرسيديس قائلة وهي تمد ذراعيها نحو الكونت:

ـ أدمون!. منذ عرفتك في البداية عبدت اسمك واحترمت ذكراك.. أدمون يا صديقي!. لا تلطخ الصورة النبيلة النقية التي تنعكس على مرآة قلبي!.. لو عرفت الصلوات التي رفعتها الى الله من أجلك وقت أن كنت أحسبك حياً ومنذ رجحت أنك مت!.. لقد ظللت عشر سنوات أحلم كل ليلة بحلم واحد هو أنك حاولت الهرب من السجن بوضع نفسك في كفن سجين آخر ميت ثم ألقيت من قمة قصر أيف فسقطت على الصخور وتحطمت جمجمتك!.. أدمون، أقسم لك برأس ابني الذي ألتمس الآن عفوك عنه أني لبثت أرى تفاصيل هذه الفاجعة المخيفة كل ليلة طيلة عشر سنوات، وأسمع صرختك المروعة ورأسك يصطدم بالصخر، فكنت أستيقظ من نومي أرتجف من الفزع وأنا أحس بقشعريرة كالبرد.. وهكذا ترى يا أدمون أني بدوري قد قاسيت آلاماً مروعة.. والآن هأنذا أرى من أحببت على أهبة أن يقتل أبني!»

فاهت مرسيديس بهذه الكلمات في لهجة أسى و يأس مريرة، لم يستطع الكونت دي مونت كريستو ازاءها أن يقمع زفرة حسرة موجعة!

أن الأسد روض نفسه والمنتقم قد هزم!.. ولم يلبث أن قال لها: «ماذا تطلبين مني؟. حياة أبنك!. حسناً، أنه سوف يعيش!»

وهنا أطلقت مرسيديس صيحة جعلت الدموع تلمع في عيني الكونت، وقالت وهي تمسك بيده وترفعها الى شفتيها.

ـ شكراً! شكراً لك يا أدمون! الآن حققت ظني فيك، في الرجل الذي أحببت على الدوام.. دعني أعترف بذلك الآن!

ـ ليس في ذلك من يأس على كل حال، فان أدمون المسكين لن يعيش طويلا كي يستمتع بحبك. ان الموت لن يلبث أن يعيده الى القبر، شبحاً يختفي في الظلام!

ـ ما تعني يا أدمون؟

ـ أعني أنني ينبغي أن أموت، فما أحسبك تفترضين أن في مقدوري مواجهة الحياة لحظة واحدة بعد أن أهنت أمام الملأ من فتى سوف ينتشي بصفحي كما لو كان انتصاراً له!.. ان أول شيء أحببته بعدك يا مرسيديس هو كرامتي، وتلك هي القوة التي جعلتني أسمو على الآخرين.. والآن جئت أنت فسحقتني بكلمة واحدة منك.. لذلك ينبغي أن أموت!

ـ لكنك تعدني بشرفك أن المبارزة لن تتم، أليس كذلك؟

ـ بل انها ستتم، ولكن بدلا من أن يسيل دم ابنك على الارض، سوف يسيل دمي أنا!

فشهقت مرسيديس، واندفعت نحو الكونت، لكنها توقفت فجأة وقالت: «أدمون!. ما دمت قد نجوت من كل ما مر بك، ما دمت قد رأيتك ثانية على قيد الحياة، فهناك اذن اله تعلو ارادته ارادتنا.. وأنا أومن به من صميم قلبي، وفي انتظار معونته أركن الى وعدك بأن ابني سيعيش، أليس كذلك؟

فأجاب الكونت وقد أدهشه تقبل المرأة لتضحيته المميتة دون تردد:

ــ نعم يا سيدتي، سوف يعيش!

ــ أدمون لم تبق لي غير كلمة واحدة أقولها لك: لئن كنت ترى أن وجهي قد ذبل، وعيني قد انطفأتا، وجمالي قد ذهب، فلم تعد مرسيديس تشبه المخلوقة التي كانتها فيما مضى.. فانك سترى أيضاً أن قلبي لم يتغير.. فوداعاً اذن يا أدمون، ليس لي ما أطلبه من السماء أكثر مما حبتني به. لقد رأيتك ثانية يا أدمون، ووجدتك نبيلا عظيماً كعهدي بك في الماضي.. فوداعاً يا أدمون، وداعاً.. وشكراً!»

.. ثم فتحت مرسيديس باب حجرة المكتب واختفت قبل أن يفيق الكونت من الصدمة الموجعة التي أحدثها له حبوط انتقامه المرموق!

وحين دقت ساعة الانفاليد ايذانا بحلول الساعة الاولى بعد الظهر، كانت عربة مدام دي مورسيرف تبتعد بها في طريق الشانزليزيه.. بينما رفع الكونت دي مونت كريستو رأسه وهتف محدثاً نفسه كمن يفيق من حلم:

ــ يالي من غبي!.. كيف لم أمزق قلبي وعواطفي في هذا اليوم الذي اعتزمت فيه أن أنتقم لنفسي؟

وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي مضى الكونت وشاهده مكسمليان موريل الى مكان المبارزة، حيث تقدم مكسمليان نحو «بوشان» و«شاتو رينو» شاهدي خصمه، فانحنى الثلاثة بعضهم لبعض في أدب، ثم وصل ألبرت دي مورسيرف فقفز من جواده على بعد خطوات وانضم اليهم!

كان ألبرت شاحب الوجه غائر العينين، شأن من لم يذق طعم النوم طيلة الليل.. وبعد أن شكر الحاضرين على تجشمهم عناء الحضور قال:

ـ عندي كلمة أريد أن أقولها للكونت دي مونت كريستو أمامكم جميعاً!

فتقدم الكونت منه في هدوء واتزان يتناقضان مع اضطراب خصمه، ووقف الاثنان تفصل بينهما ثلاث خطوات.. فقال ألبرت في صوت مختلج:

ـ سيدي الكونت!.. لقد وجهت اليك اللوم على تصرفك بصدد مسلك مسيو دي مورسيرف في «ايبيروس».. وكان من رأيي بصرف النظر عن آثامه التي ارتكبها أن ليس لك حق في مؤاخذته عليها!.. لكني وقفت بعد ذلك على ما بدل رأيي وأقنعني بأنك تملك هذا الحق... وليس غدر فرناند مونديجو بعلي باشا هو الذي من أجله ألتمس لك العذر، وانما هو غدر الصياد فرناند بك أنت، والتعاسة البالغة التي لحقت بك بسببه.. وهأنذا أقول علانية وعلى رؤوس الأشهاد أنك كنت محقاً في الانتقام لنفسك من أبي... وإني ـ بوصف كوني أبنه ـ أشكرك لأنك لم تقس عليه أكثر مما فعلت!»

ومد الكونت كريستو يده الى ألبرت وقد تندت عيناه بالدموع، فصافحه هذا في احترام وتوقير أقرب الى الخشوع!.. بينما غمغم الكونت: «حقاً إن الله موجود.. الآن فقط اكتمل ايماني بأني مبعوث من السماء للانتقام!»

عاد ألبرت الى منزل أبيه في شارع هلدر. وبعد أن ألقى نظرة ساخرة على كل أسباب الترف التي جعلت حياته منذ الطفولة سعيدة سهلة.. بدأ يجمع كل حاجياته مبتدئاً بصورة أمه، وأسلحته، وتحفه، ثم ترك في أحد الأدراج المفتوحة جميع النقود التي كانت في جيبه، وكشفا بكل الاشياء التي تركها في الخزائن. وحين فرغ من ذلك سمع صوت عربة تقف أمام الباب، ورأى أباه يستقلها ثم تسير مبتعدة به.. فاستدار الابن عن النافذة واتجه نحو حجرة أمه. وكأنما تحرك الاثنان بوحي فكرة واحدة، فقد وجد أمه تفعل مثلما كان يفعله هو منذ برهة!. رأى

كل ثيابها ومجوهراتها ونقودها مرتبة في أدراجها، وهي تجمع مفاتيحها..ففهم ألبرت مغزى ذلك، وهتف بأمه وقد كاد تأثره يعجزه عن الكلام «أوه يا أمي، لا يمكن أن تكوني اعتزمت مثل ما اعتزمته.. لقد جئت لأودع بيتك، وأودعك!»

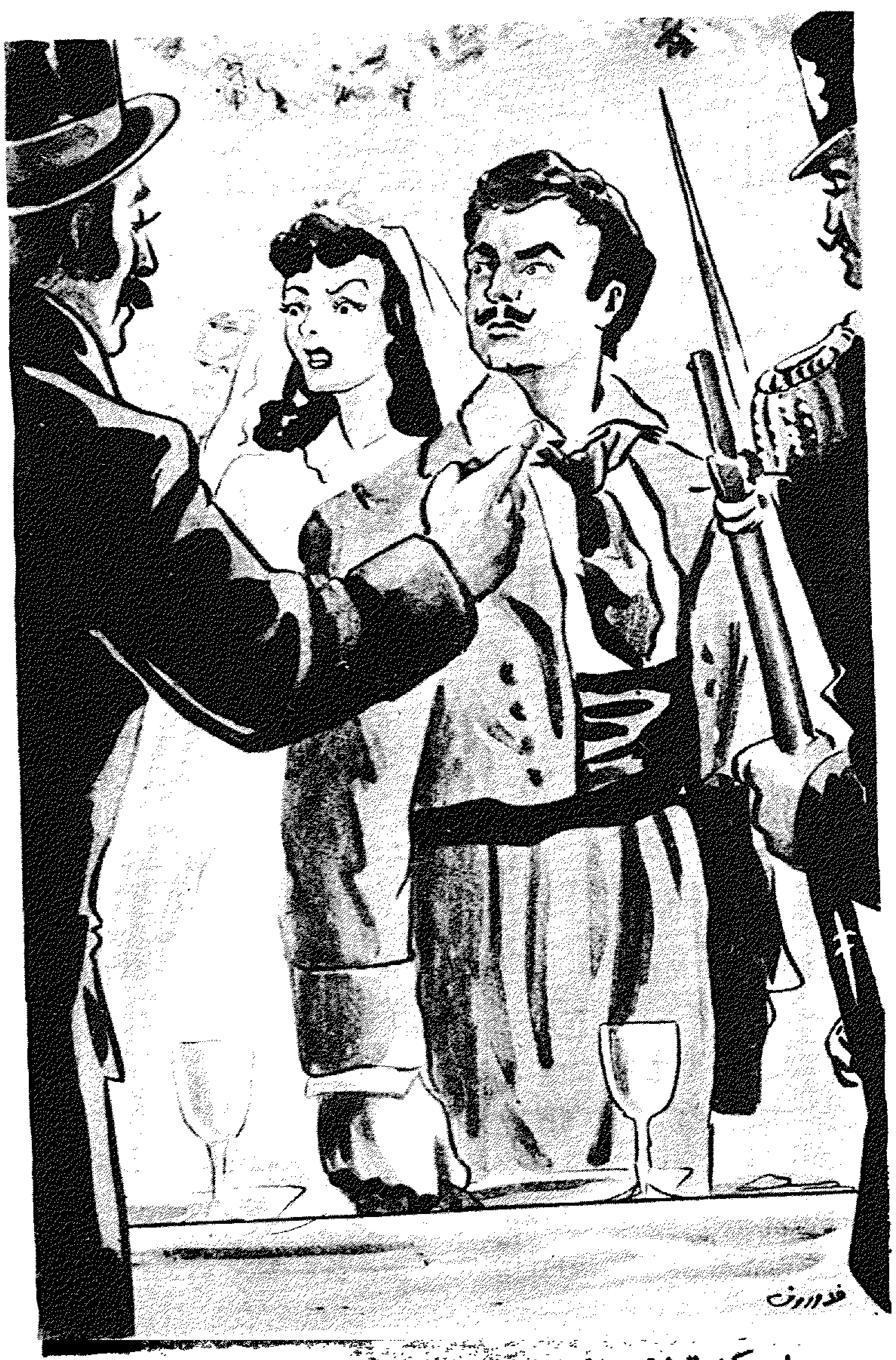
فأجابته قائلة: «أنا أيضاً ذاهبة!. وقد وطنت نفسي على أنك سترافقني فهل تراني خدعت في ظني؟»

ـ سأنفذ جميع رغباتك يا أمي العزيزة، وما دام عزمك قد استقر على هذا القرار فلنتصرف بحكمة. لقد خرج أبي منذ هنيهة، والفرصة الآن سانحة كي نذهب دون أن نقدم له ايضاحاً!»

ـ أنا على أتم استعداد يا ابني!

وخرج ألبرت ليستدعي عربة، وقد أعد في ذهنه خطة الانتقال الى مسكن مفروش متواضع في شارع «دبي سانت بير».. وحين عاد بالعربة وهبط منها لينادي أمه اقترب منه شخص مجهول وسلمه رسالة قائلا: «انها من الكونت» ثم اختفى «برتوسيو» من حيث أتى!

ولم يكد الشاب يقرأ الرسالة حتى لمعت في عينيه الدموع، ودون أن ينطق بحرف سلم الرسالة الى أمه، فقرأت فيها: «عزيزي ألبرت.. لقد اكتشفت خططك، وأرجو أن أقنعك بوجهة نظري. أنت حر في أن تغادر بيت أبيك وتأخذ أمك الى بيتك، ولكن أذكر يا ألبرت أنك مدين لها بأكثر مما يستطيع قلبك المسكين النبيل أن يبذل لها. فاحتفظ بالصراع لنفسك واحتمل جميع آلامك، ولكن جنب أمك محنة الفقر التي لا بد ستقترن بمحاولتك، ولو في البداية.. فهي لا تستحق شيئاً من النكبة التي حلت بها اليوم، والله لا يحب أن يتألم البرىء من أجل المذنب!.. أنا أعلم انكما قد اعتزمتما مغادرة منزل شارع دي هيلدر دون أن تأخذا شيئاً من أموالكما أو متاعكما. لا تسألني كيف علمت بذلك، وانما حسبك أني علمت به وكفى..!»



وصاح وكيل النيابة : « ادمون دانتيس .. أنا أقبض عليك باسم القانون »

وكان الكونت دي مورسيرف قد توجه بعربته الى دار الكونت دي مونت كريستو، حيث أمر رب البيت بادخاله الى الصالون وفيما كان هذا يذرع الحجرة للمرة الثالثة، دخل مضيفه، قائلا في هدوء:

ـ أهذا أنت يا مسيو دي مورسيرف؟ حسبت اني أخطأت السمع!

فقال دي مورسيرف وشفتاه تختلجان في انفعال عاقه عن الاستمرار في الكلام: «نعم، انه أنا!»

ـ وهل لي أن أعرف سبب تشرفي بزيارتك في هذه الساعة المبكرة؟

ـ جئت لأقول لك: انني بدوري أنظر اليك باعتبارك عدوي.. جئت لأقول لك اني أمقتك بوحي الغريزة، بحيث يخيل الي أنني طالما عرفتك، وطالما كرهتك.. وبالاختصار، ما دام شباب اليوم لن يتبارزون، فقد بقي علينا أن نفعل. هل أنت مستعد؟.. أنت تعلم أننا سنظل نقتتل حتى يموت أحدنا!

فأومأ الكونت دي مونت كريستو موافقاً، وواصل دي مورسيرف كلامه فقال:

ـ اذن فلنبدأ!. لسنا في حاجة الى شهود!

ـ هذا صحيح، فنحن نعرف أحدنا الآخر تمام المعرفة..

ـ بل بالعكس، فنحن لا يكاد أحدنا يعرف الآخر شيئاً يذكر!

وهنا شحب وجه الكونت دي مونت كريستو شحوباً مخيفاً، ولمعت عيناه كاللهب، ثم اندفع نحو غرفة مجاورة وعاد بعد لحظات مرتدياً سترة البحار وقبعة ينسدل من تحتها شعره الأسود الطويل، وقد عقد ذراعيه فوق صدره وتقدم من غريمه شامتاً، بينما اصطكت أسنان هذا وارتجفت قدماه تحته فأخذ يتراجع في فزع حتى اصطدم بمنضدة فاستند اليها.. بينما صاح به الكونت دي مونت كريستو:

ـ فرناند!. من بين المائة اسم التي أطلقها على نفسي لست في حاجة الى أن أذكر لك غير اسم واحد، لعلك عرفته الآن من هيئتي.. فانني برغم الأحزان والعذاب الذي قاسيته أطالعك اليوم بوجه ترد اليه سعادة الانتقام والتشفي شبابه القديم!.. وجه لا بد أنك رأيته مراراً في أحلامك منذ زواجك من مرسيديس، خطيبتي!

ومد الجنرال يديه مستنجداً من الرعب الشديد الذي اعتراه، ومضى يتلمس الجدار حتى بلغ الباب فانسحب منه وهو يطلق هذه الصرخة اليائسة: «أدمون دانتيس؟!».. وما بلغ الباب الخارجي حتى ارتمى بين ذراعي حوذيه الذي عاونه على ركوب العربة، وعاد به الى البيت!

.. وأمام البيت كانت تقف عربة متواضعة ـ لم تر من قبل أمام بيت نبيل مثله ـ فدلف الجنرال الى الداخل، بينما كانت زوجته وابنه يهبطان السلم، والفتى يخاطب والدته:

ـ تشجعي يا أماه، فلم يعد هذا بيتنا!

فاختفى الأب وراء احدى الستائر في آخر لحظة وهو يشهق شهقة مروعة لم يصدر مثلها يوماً من صدر انسان.. شهقة رجل تهجره زوجته وابنه في يوم واحد!

وحين بلغ مخدعه أطل ليلقي نظرة أخيرة على العربة وهي تبتعد حاملة أعز من له في الوجود.. وفي اللحظة التي كانت العربة تختفي فيها عن ناظريه سمعت طلقة نارية تصاعد على أثرها الدخان من خلال ثغرة في زجاج النافذة أحدثها الانفجار!

سم ينقذ من سم

كان مكسمليان موريل قد عاد من مكان المبارزة الى منزل أسرة فيلفور، حيث كانت فالنتين في انتظاره في غرفة جدها.. وأثناء حديثها عن اعتزام جدها الانتقال بها الى مسكن مستقل بسبب عدم ملاءمة طقس ذلك الحي لصحتها، قالت له:

ـ الواقع أني فقدت شهيتي وصرت أحس كأن معدتي تجاهد كي تألف شيئاً ما!

فسألها مكسمليان: «وأي علاج تستعملين لمداواة هذه الحالة؟!

ـ أبتلع كل صباح ملعقة صغيرة من المزيج الذي أعد من أجل جدي.. أعني أني بدأت بملعقة واحدة والآن أتناول أربع ملاعق.. وهو مزيج مر الطعم الى أقصى حد!

شحب وجه نوارتييه وهو يصغي الى كلام حفيدته، كأنما أدرك خطورته، فأشار لها كي تحضر القاموس لأنه يريد أن يتكلم..

وفي تلك اللحظة اندفع الدم الى وجنتي الفتاة، وصاحت وهي تترنح قليلا: «أوه، هذا غريب!.. لست أدري، لكأن الشمس تسطع في عيني!»

واستندت الى النافذة، فهرع مكسمليان نحوها منزعجاً، لكنها ابتدرته مطمئنة: «لا تقلق، انه عارض طارىء، وقد زال.. ولكن، أليس هذا صوت عربة تقف أمام الباب؟»

وفتحت الباب وأطلت، ثم قالت: «نعم، انها مدام دانجلر وابنتها، جاءتا لزيارتنا.. الى اللقاء، فانه ينبغي أن أذهب قبل أن ترسلا في طلبي.. أبق مع جدي يا مكسمليان، والى اللقاء!»

لبث الشاب يراقبها وهي تهبط السلم المؤدي الى جناح مدام دي فيلفور وجناحها هي.. وما كادت تنصرف حتى أشار الشيخ المشلول الى مكسمليان كي يحضر القاموس و يترجم اشاراته، وكان الشاب قد عرف طريقة التفاهم معه هكذا من فالنتين.

وقال نوارتييه للشاب: «احضر الابريق والكوب اللذين في غرفة فالنتين!»

فدق الشاب الجرس للخادم، وأمره باحضار الآنيتين، وكانتا فارغتين تماماً، فسأله سيده:

ــ كيف ذلك وفالنتين قالت انها لم تشرب غير نصف محتو يات الابريق؟

وأجاب الخادم بأنه لا يدري، ولعل الخادمة أفرغت الباقي.

وأشار اليه سيده أن يسأل الخادمة، فأومأ مطيعاً ثم انصرف وعاد بعد حين يقول: «كانت الآنسة دي فيلفور تعبر غرفتها الى غرفة زوجة أبيها، حين أحست بالظمأ فشربت ما تبقى في القدح، أما الابريق فقد أفرغه السيد ادوارد كي يصنع بحيرة تمرح فيها بجعاته!»

وفي أثناء ذلك كانت مدام دانجلر تنهي الى مضيفتها بشرى خطبة الأمير كافالكانتي لابنتها، وأثناء الحديث التفتت الضيفة الى فالنتين قائلة: «ماذا بك يا ابنتي؟ لقد تعاقب الشحوب والاحمرار على وجهك أربع مرات في دقيقة واحدة؟»

وانتهزت مدام دي فيلفور الفرصة فقالت للفتاة: «يحسن أن تذهبي لتستريحي يا فالنتين، فانك لست على ما يرام، ولتشربي قدحاً آخر من الماء، فهو ينفعك!»

وعلى أثر انصرافها قالت المرأة لضيفتيها: «ان أمر هذه الفتاة يزعجني وأخشى أن تكون مصابة بمرض خطير!»

وأثناء عودة فالنتين الى حجرة جدها غامت على عينيها سحابة جعلتها تنزلق من السلم وتسقط على الارض، فلحق بها مكسمليان ورفعها بين ذراعيه.. وطفرت من عيني نوارتييه صرخة رعب شلت على فمه.. ثم أقبل دي فيلفور فهرع نحو ابنته وأخذها بين ذراعيه وصاح قائلا: «طبيب.. طبيب.. مسيو دافريني.. أو لعل الأفضل أن أدعوه بنفسي». وخرج على عجل، بينما خرج مكسمليان من الباب الآخر!

وحين عاد مسيو فيلفور وبصحبته الطبيب، كانت فالنتين قد عادت الى وعيها، لكنها ظلت عاجزة عن الحركة أو الكلام. وبعد أن فحصها وكتب لها العلاج مضى الى غرفة نوارتييه وأغلق الباب وراءه.. ثم قال له: «أتعتقد أن اليد التي أصابت باروا هي التي تهاجم فالنتين الآن؟». فأومأ موافقاً، ثم ابتسم وهو ينظر الى زجاجة المزيج الذي يتناول منه كل صباح.. فهتف الطبيب:

ـ حسناً!.. فهمت يا سيدي.. انك جعلت جسمها يألف هذا السم بالتدريج قبل أن تعطي الجرعة القاتلة.. ولولا هذا الاحتياط لماتت فالنتين قبل أن نتمكن من اسعافها!

وفي الوقت الذي عاد فيه الطبيب الى مخدع فالنتين، برفقة أبيها، استأجر راهب ايطالي يدعى السنيور جياكومو بوزوني المنزل الملاصق لبيت فيلفور!

في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم نفسه كان البارون دانجلر يذرع حجرة صالونه في قلق ظاهر، في انتظار دخول ابنته التي طلبت أن تتحدث اليه على انفراد في تلك الغرفة بالذات. ولم تلبث أوجيني أن دخلت مرتدية ثوباً من «الساتان» الأسود، وقد صففت شعرها وأمسكت قفازيها كما لو كانت ذاهبة الى دار الأوبرا!

وسألها أبوها: «ماذا تريدين أن تقولي لي؟»

فأجابته في لهجة حازمة جعلته يقفز من مقعده كالملدوغ:

ـ أريد أن أقول باختصار: انني لن أتزوج الكونت أندريا كافالكانتي!

ـ ماذا؟.. اصغي الي يا ابنتي، ولسوف أحدثك بالصراحة التي تحبينها. انني حين طالبتك باتمام هذا الزواج كنت أنظر الى هدف خطير من ورائه!

ـ تعني أن مركزك المالي مهدد؟

ـ نعم يا بنيتي، وأنا أريد تزويجك من الكونت كافالكانتي لأنه سوف يضع بين يدي ثروته الطائلة البالغة ثلاثة ملايين من الجنيهات.

فقالت الفتاة باحتقار: «هذا عظيم!»

ـ انت تخشين أن أحرمك من هذه الثروة؟ ولكن هذه الملايين الثلاثة سوف تدر ربحاً قدره عشرة ملايين أو أثنا عشر مليوناً، بفضل مشروع امتياز للسكك الحديدية حصلت عليه بالاشتراك مع زميل لي.. ومطلوب مني أن أودع خلال أسبوع أربعة ملايين، مقدار حصتي في المشروع، على أن زواجك نفسه من هذا الثري كفيل بأن يرد لي سمعتي المالية.

ـ هل تعدني بأن تسترد مركزك المالي باستغلال هذه السمعة، دون أن تمس مبلغ الثلاثة الملايين ذاته؟ وأن تدفع مهري البالغ نصف مليون فرنك عند الزواج، وأن تترك لي حريتي الشخصية كاملة؟

ـ أعدك بذلك!

ـ اذن سأتزوج مسيو كافالكانتي!

وحددت الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه موعداً لتحرير عقد الزواج، فارتدت العروس ثوباً بسيطاً أنيقاً، بينما جلست أمها تثرثر مع بوشان وشاتو رينو ودبراي.. وجلس دانجلر يتحدث الى نفر من رجال

المال المدعوين عن مشروعات الضرائب التي يعتزم تنفيذها اذا عين وزيراً.. ثم تحدث الكونت أندريا كافالكانتي عن ألوان الترف التي قرر ادخالها على المجتمعات الرفيعة بفضل ايراده السنوي الضخم!

وفي الساعة التاسعة أعلن وصول الكونت دي مونت كريستو، وقد دخل بينما كانت مدام دانجلر تضع توقيعها على عقد زواج ابنتها، قائلة لصديقتها مدام دي فيلفور: «أليس من سوء الحظ أن يحول حادث سرقة دار الكونت دي مونت كريستو، دون حضور صديقنا مسيو دي فيلفور؟»

وهنا قال الكونت دي مونت كريستو، الذي كان قليل الكلام بحيث كانت كل كلمة ينطق بها تلفت الاسماع:

ـ أخشى أن أكون أنا المتسبب بلا قصد في اعاقة مسيو فيلفور عن الحضور.. فلقد عثر خدمي اليوم على سترة السارق الذي قتله شريكه عند هبوطه من نافذة داري، وكانت قد فقدت أثناء فحص رجال البوليس والاسعاف لجراحه.. وبتفتيشها وجدت فيها ورقة تتضمن خطاباً موجها الى البارون دانجلر!

وهنا هتف دانجلر متعجباً: «لي أنا؟!»

فقال الكونت: «نعم! ولما كانت هي والسترة هما الدليل المادي في الجريمة فقد أرسلتهما الى قاضي التحقيق، خشية أن تكون هناك مؤامرة مدبرة ضدك!»

فقال دانجلر: «هذا معقول!.. ألم يكن السارق القتيل قاتلا من «خريجي» الليمان؟»

ـ نعم.. وهو يدعى «كادروس»!

وهنا شحب وجه دانجلر قليلا، بينما تسلل الكونت أندريا كافالكانتي في سكون الى خارج الغرفة.. فقال الكونت دي مونت كريستو:

ـ أرى أن قصتي قد أثارت جوا من الانزعاج ينبغي الاعتذار بسببه للبارونة والآنسة دانجلر.. فهل لكم أن تتابعوا اجراءات العقد؟»

وكانت البارونة قد فرغت من التوقيع، وردت الريشة لمسجل العقود، فصاح هذا منادياً: «الامير كافالكانتي!.. أين سمو الأمير؟»

وفي تلك اللحظة اقتحم الصالون نفر من جنود البوليس يتقدمهم ضابط اقترب من البارون دانجلر في حركة مريبة، فأطلقت البارونة صرخة وسقطت مغشياً عليها، بينما بدا على وجه دانجلر رعب شديد!

وتساءل ضابط البوليس: «أيكم يا سادة يدعى أندريا كافالكانتي؟»

فساد المكان هرج ومرج، وراح الكل يبحثون عن الامير المختفي، بينما هتف دانجلر مستفسراً: «لماذا تبحثون عنه؟»

فأجاب الضابط: «.أنه مجرم هارب من ليمان طولون، وهو متهم الآن بقتل زميله السابق في الليمان، المدعو كادروس، أثناء فراره من دار الكونت دي مونت كريستو!»

لكن أندريا كان قد لاذ بالفرار..!

دقت الساعة الحادية عشرة، وفالنتين راقدة في فراشها تغالب الحمى، بعد أن انصرفت المرضة منذ عشر دقائق.. وكانت الحمى قد هيأت للمريضة ألواناً من الأخيلة والهواجس والرؤي المتتابعة المختلفة.. وكان المصباح يرسل ضوءه الضئيل المرتعش، الذي يرسم أشكالا وأشباحاً تزيد في هواجس المحمومة. وفجأة خيل الى فالنتين أنها ترى باب غرفتها يفتح على مهل في سكون، و يتسلل منه الى الداخل شبح يقترب من فراشها متلصلصاً. وتذكرت فالنتين أن خير وسيلة لتبديد تلك الرؤي هي أن تشرب جرعة من الدواء الذي أعده لها الطبيب، فمدت يدها تتلمسه.. وفي هذه اللحظة هرع الشبح نحوها كأنما ليمنعها من أن تشرب، فاسترنت هي ذراعها مذعورة، بينما

تناول هو الكأس فسكب فيها ملعقة من دواء كان معه... ثم همس لها:

ـ الآن يمكنك أن تشربي!

كادت فالنتين تصرخ مذعورة، لولا أن وضع الشبح يده على فمها، فغمغمت وقد تبينت شخصيته: «الكونت دي مونت كريستو؟».

فأجابها: «اصغي الي، أو بالاحرى انظري الى شحوب وجهي واحمرار عيني!.. انني منذ أربع ليال لم يغمض لي جفن، كي أسهر على حمايتك، من أجل مكسمليان!»

فغمغمت فالنتين وقد عاودها الاطمئنان: «هل حدثك بما كان؟»

فقال الكونت لها: «نعم لقد ذكر لي كل شيء، وأكد أن حياتك عنده أثمن من حياته، وقد وعدته بأنك ستعيشين!»

ـ تقول انك سهرت على حمايتي؟.. لكني لم أرك!

ـ قضيت معظم وقتي مختبئاً خلف هذا الباب، الذي يقود الى المنزل الملاصق، وقد استأجرته خصيصاً لهذا الغرض.. وأثناء مراقبتي الطويلة رأيت الاشخاص الذين يزورونك، والطعام والشراب الذي يعد لك. وكنت كلما وضع لك سم قاتل استبدلت به شراباً صحياً منعشاً!

ـ سم قاتل؟!.. ما هذه الاشياء المرعبة التي تحدثني عنها؟

ـ لم تكوني أولى من تعرض لهذا الخطر هنا.. هل نسيت ما حدث للمركيز والمركيزة دي سان ميران، ولذلك الخادم الأمين (باروا)؟.. لقد سقطوا جميعاً صرعى بالطريقة نفسها!.. وكان المنتظر أن يلقي المسيو نوارتييه مثل هذا المصير فيموت بالسم أيضاً، لولا أن العلاج الذي يتعاطاه منذ ثلاث سنوات أعطاه مناعة ضده!

ـ يا للسماء.. اذن فهذا هو السبب الذي جعل جدي يسقني من دوائه طيلة الشهر الاخير؟

ـ انه دواء مر المذاق، أليس كذلك؟ اذن فجدك يعلم أن قاتلا يعيش تحت سقف هذا البيت، ولعله يرتاب في شخصه.. وقد حرص على أن يحضنك ـ وأنت محبوبته ـ ضد ذلك السم. ولكن حتى هذا التحصين لم يكن لينقذك من سلاح آخر مميت استعمل ضدك خلال هذه الايام الاربعة الأخيرة!

ـ ولكن من يكون هذا القاتل؟

ـ ألم تري أحداً يدخل غرفتك أثناء الليل؟

ـ لقد طالما رأيت أشباحاً تقترب ثم تبتعد، لكني حسبتها من خيالات الحمى، كما حسبتك أنت في البداية!

ـ اذن تذرعي بكل شجاعتك، وارهفي سمعك لكل صوت، وراقبي كل شيء جيداً خلال تظاهرك بالنوم.. وعندئذ ترين كل شيء!

فأمسكت فالنتين بيد الكونت وهمست: «أعتقد أني أسمع صوتاً يقترب.. اتركني الآن!»

ـ الى اللقاء اذن.

ومشى الكونت على أطراف أصابعه الى الباب الذي دخل منه، فاختفى وراءه.. ومرت عشرون دقيقة، بطيئة، رهيبة، ثم فتح باب غرفة فالنتين دون صوت.. ولمحت شبحاً يقترب من فراشها، ثم يهمس: «فالنتين!.. فالنتين!» فلما لم تجب، سمعت سائلا يصب في الزجاجة التي تشرب منها. واذ ذاك بذلت جهدها كي تفتح أجفانها قليلا وتنظر من خلالها.. فرأت امرأة تصب في الماء سائلا من قارورة معها.. ولم تكن هذه المرأة سوى زوجة أبيها، مدام دي فيلفور!

ولم تفق فالنتين من ذهول المفاجأة الذي استمر دقائق بعد خروج المرأة الآثمة الا حين فتح الباب المقابل في سكون ودخل منه الكونت دي مونت كريستو وقال لها: «تنزعجي من أي شيء يحدث لك، حتى

لو شعرت بأنك فقدت النظر أو السمع أو الوعي.. أو حتى لو صحوت فوجدت نفسك داخل نعش مغلق!.. وانما قولي لنفسك عندئذ: (هناك صديق، بمثابة أب، يعيش من أجل سعادتي وسعادة مكسمليان، وهو سيحميني).. ذلك لانني وحدي من يستطيع انقاذك، وسأفعل!»

ثم أخرج من جيبه حبة في حجم الحمصة وقدمها لها، فابتلعتها..واذ ذاك قال لها: «الآن يا طفلتي المحبوبة، وداعاً الى حين».. ثم اختفى!

وفي الصباح استبطأت الممرضة يقظة المريضة فدخلت لتوقظها.. فلما رأتها هامدة، بيضاء الشفتين صرخت مذعورة.. فدخل على صوت صرختها الطبيب دافريني وقال: «ماذا؟ أهي الأخرى أيضاً؟ رباه!»

هبط الكونت دي مونت كريستو من عربته أمام منزل البارون دانجلر، واستقبله هذا بابتسامة حزينة قائلا:

ــ أجئت تعزيني؟.. لقد تكاثرت المصائب في بيتي، فقد فرت ابنتي وهجرتني، بعد فضيحة كافالكانتي!

فقال الكونت في هدوء: «ان أي حادث من النوع الكفيل بتحطيم من لا يملك كنزاً غير ابنته، يصبح محتملا في نظر من يملك الملايين!»

فقال البارون دانجلر: «اذا كان الثراء يجلب التعزية فينبغي أن أتعزى فاني ثري.. وفي اللحظة التي دخلت فيها كنت قد فرغت من توقيع صكوك بمبلغ خمسة ملايين من الفرنكات!»

فسأله الكونت: «هل هي مستحقة الدفع فوراً؟». واذ أومأ موافقاً قال له:

ــ اذن سأقبل المغامرة!. لقد فتحت عندك حساباً بستة ملايين من الفرنكات، لم أسحب منها حتى الآن الا تسعمائة ألف فرنك، أي أن لي عندك خمسة ملايين ومائة ألف، لكني سآخذ هذه الصكوك التي

تساوي خمسة ملايين وأعطيك ايصالا بأني تسلمت كل حسابي!.. اني في حاجة الى هذا المبلغ اليوم!

وسارع الكونت الى وضع الصكوك في جيبه، فبدا الفزع على دانجلر وقال له: «ولكن.. ولكني مدين بهذا المبلغ لجهة ما، وقد وعدت بدفعه اليوم!»

ـ اذن تدفع لي المبلغ بأية وسيلة أخرى غير هذه الصكوك.. ولو أني كنت سأفاخر بأن بنك دانجلر قد دفع لي خمسة ملايين من الفرنكات في اللحظة التي طلبتها فيها.. انه أمر يدعم الثقة فيك!

وطافت بذهن دانجلر فكرة مفاجئة، فرضخ لطلب الكونت.

وفيما كان الكونت دي مونت كريستو يتأهب للانصراف دخل ممثل الجهة التي تدين دانجلر بالخمسة الملايين، فقال له البارون:

ـ لقد سبقك الكونت دي مونت كريستو فأخذ من حسابه مبلغ خمسة ملايين من الفرنكات، ولو اني حررت في يوم واحد صكوكاً بعشرة ملايين لأحدث ذلك هزة في السوق، فهل لك أن تحضر ظهر غد؟

فوافق الرجل على ذلك وانصرف، بينما همس دانجلر لنفسه:

ـ في هذا الموعد سوف أكون في مكان بعيد!

أما فالنتين فدفنت في مقبرة «الأب لاشيز»، وأغرق أبوها نفسه في العمل، لكنه عجز مع ذلك عن أن ينساها.. فدخل ذات يوم جناح زوجته، وكانت جالسة تقلب بعض الصحف والمجلات، وقد ارتدت ثيابها وقفازيها تأهباً للخروج.. وبادر فيلفور فأحكم اغلاق الباب بالرتاج ثم وقف بين زوجته وبين الباب، فسألته وهي تحاول أن تقرأ أفكاره: «ماذا هناك؟»

فقال لها: «سيدتي.. أين تحتفظين بالسم الذي تستعملينه؟»

فانطلقت من المرأة صرخة أو شهقة مكتومة، وشحب وجهها شحوب

الأموات، وأجابته متلعثمة: «اني.. اني لا أفهم ماذا تعني!»

ــ لقد سألتك أين تخفين السم الذي قتلت به صهري وحماتي وخادم أبي ثم ابنتي؟

ــ ما هذا الذي تقول؟

ــ ليس لك أن تسألي بل عليك أن تجيبي فقط!

ــ هل أجيب القاضي أم الزوج؟

ــ القاضي يا سيدتي.. القاضي!

فأخفت المرأة وجهها بين يديها وغمغمت: «أواه يا سيدي!.. أتوسل اليك.. لا تصدق الظواهر!»

ــ يا لك من جبانة! لقد طالما لاحظت جبن أمثالك من الذين يقتلون بالسم. ولكن فاتك وأنت تعدين سمومك وتزيلين آثارها ببراعة تبلغ حد الاعجاز، أن تقدري النهاية التي سوف تقودك اليها آثامك. ولكن لعلك قد احتفظت ببقية من سمك العجيب كي ينجيك من العقاب الذي تستحقينه..!

فركعت الزوجة الشابة على ركبتيها ومدت اليه يدها مناشدة، فقال لها: «أرى انك تعترفين بجرائمك، لكن الاعتراف للقاضي في آخر لحظة لا يخفف من شدة العقوبة. على أن زوجة القاضي الاول في العاصمة ينبغي ألا تموت على المشنقة فتلطخ بضربة واحدة سمعة زوجها وابنها. سيدتي، انه لتصرف حكيم منك أن تموتي بذلك السم نفسه!

وارتمت عند قدمي زوجها وهي تطلق ضحكة هستيرية مخيفة، فقال لها وهو يهم بمغادرة الغرفة: «فكري في الأمر يا سيدتي، وسأخرج الآن فاذا وجدت عند عودتي أن العدالة لم تأخذ مجراها فسوف أبلغ ضدك بلساني، وأقبض عليك بيدي!»

تمكن البوليس من لقاء القبض على المجرم الهارب اندريا كافالكانتي ــ أو «بنديتو» ــ ثم قدم للمحاكمة بفضل الجهود التي

بذلها مسيو دي فيلفور قاضي التحقيق، وقد افتن في صياغة تقرير الاتهام بأسلوبه القوي الصارم. وفي الجلسة نودي المتهم وتليت عليه التهمة ثم سأله القاضي:

ـ اسمك ولقبك؟

ـ اسمح لي يا سيدي أن أجيب عن أسئلتك بغير الترتيب التقليدي المتبع، والا فلن أجيب على الاطلاق!

فنظر القاضي الى المحلفين في دهشة، ونظر هؤلاء بدورهم الى فيلفور.. بينما ظل المتهم محتفظاً بهدوء عجيب!

ـ سنك؟

ـ سوف أبلغ الحادية والعشرين بعد أيام قلائل، فقد ولدت ليلة ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٧ في صاحية أوتوي القريبة من باريس!

وهنا رفع فيلفور رأسه عن الاوراق التي كان يكتب فيها، وشحب وجهه لدى ذكر تاريخ الميلاد ومكانه.. بينما مسح المتهم شفتيه بمنديل فاخر!

وعاد فيلفور يسأله: «مهنتك؟»

فأجاب: «في البداية كنت مزيفاً، ثم صرت لصاً، وأخيراً أصبحت قاتلا!»

وأحدثت هذه السخرية ضجة في صفوف المحلفين والنظارة، ونظر الجميع الى المتهم الوقح باشمئزاز، بينما احمر وجه فيلفور وتململ في مقعده كمن يبغي هواء يتنفسه.. فسأله المتهم وهو يبتسم: «هل تبحث عن شيء يا سيدي المحقق؟»

ولم يجب فيلفور، فتابع الرئيس استجواب المتهم:

ـ والآن، هل لك أن تذكر اسمك؟

ـ لست أستطيع ذلك، لاني لا أعرفه.. لكني أعرف اسم أبي، وفي وسعي أن أذكره لكم!

وهنا تساقطت قطرات العرق من جبين فيلفور على الاوراق التي أمسكها بيده المتقلصة.. بينما استطرد المتهم فقال في هدوء:

ـ ان أبي يشغل منصب قاضي تحقيق!

فتساءل الرئيس ذاهلا، دون أن يلحظ الانزعاج البادي على فيلفور: «قاضي تحقيق؟.. تقول قاضي تحقيق؟»

ـ نعم، واذا أردتم معرفة اسمه فسأذكره لكم.. انه يدعى «فيلفور»!

واذ ذاك انفجرت بين النظارة العاصفة التي حاولوا في البداية قمعها توقيراً للمحكمة.. وشخصت العيون جميعاً نحو فيلفور، وكان كأنما حولته الصدمة الى جثة هامدة.. بينما تابع المتهم اعترافه في صوت قوي فقال:

ـ أيها السادة.. اني مدين لكم بالبراهين المثبتة لأقوالي. لقد ولدت في المنزل رقم ٢٨ شارع «النافورة» في حجرة مبطنة بالحرير الاحمر..ثم أخذني أبي بين ذراعيه، بعد أن ذكر لأمي أني ولدت ميتاً، ولفني في منشفة عليها حرفا «ه. ن» ثم حملني الى الحديقة حيث دفنني حياً!

وسرت بين المحلفين قشعريرة رهيبة، بينما تابع الرئيس أسئلته:

ـ كيف وقفت على كل هذه التفصيلات؟

ـ كان هناك شخص أخذ على نفسه أن ينتقم من أبي، فكمن له في الحديقة في تلك الليلة، حتى رآه يدفن صندوقاً في الارض، فطعنه بسكينه ثم أخرج الصندوق الذي حسبه يحوي كنزاً، فلما وجدني حياً أخذني الى ملجأ اللقطاء في باريس حيث بقيت به ثلاثة أشهر حتى أخرجتني منه زوجة أخيه وعادت بي الى بيتها في (كورسيكا).. وهناك نشأت في رعاية أولئك القوم الطيبين. لكن الوضع المقلوب الذي صاحب مولدي طغي على الفضائل التي حاولوا بثها في قلبي.. فنموت في الرذيلة حتى صرت مجرماً. وذات يوم كنت ألعن الاقدار التي خلقتني شريراً فقال لي منقذي: (لا تجدف على الاقدار أيها الفتى التعس،

فالجريمة جريمة أبيك الذي نذرك للجحيم حين دفنك حياً كي تموت خاطئاً، قبل أن يدركك غفران الله)

«ومنذ ذلك اليوم كففت عن التجديف على خالقي، وصرت ألعن أبي!.

ولهذا نطقت الآن بهذه الاقوال التي ملأت قلوبكم اشمئزازاً.. فاذا كنت قد ارتكبت بذلك جريمة اضافية فعاقبوني، واذا شعرتم معي بأني منذ يوم مولدي لاحقتني الاقدار بالأسى والمرارة والبؤس، فارثوا لحالي!»

وسأله الرئيس: «وأمك؟..»

فأجاب: «أمي بريئة!.. فقد حسبتني ميتاً.. لذلك لم أعبأ حتى بأن أعرف اسمها، ولست أعرفه!»

وعندئذ انطلقت من بين صفوف النظارة صرخة ثاقبة صادرة من امرأة كانت تغطي وجهها بنقاب.. فلما أجهشت بالبكاء في نوبات هستيرية سقط النقاب عن وجهها فعرف الجميع فيها «مدام دانجلر»!.. ولم يكد بصر فيلفور يقع عليها حتى هب من مقعده واقفاً دون وعي منه.. وتابع الرئيس أسئلته للمتهم قائلا:

ـ الأدلة.. الأدلة.. تذكر يا هذا أن هذه الاقوال المروعة يجب أن تستند الى أدلة حاسمة!

فأجاب بنديتو ضاحكاً: «تريدون الأدلة؟.. انظروا اذن الى وجه مسيو دي فيلفور ثم طالبوني بالأدلة!»

واتجهت جميع الانظار الى قاضي التحقيق، الذي عجز عن مواجهة آلاف العيون المسلطة عليه.. فنهض من مقعده وسار مترنحاً مشعث الشعر وقد بدت على وجهه خدوش أظافره، فانطلقت من الجميع غمغمة دهشة.. وخاطبه المتهم قائلا:

ـ أبي!. انهم يطالبونني بالأدلة، فهل تريدني أن أقدمها؟

وهنا قال فيلفور: «كلا!.. لا فائدة من ذلك!»

فصاح به الرئيس: «ماذا تعني؟»

فقال: «أعني أنني أشعر باستحالة مقاومتي لليد الجبارة المميتة التي تسحقني.. انني الأن بين يدي اله منتقم جبار، ولستم في حاجة الى أدلة، فان كل ما ذكره هذا الشاب صحيح!.. واني منذ هذه الساعة أضع نفسي تحت تصرف ممثل الاتهام الذي سيخلفني!»

ثم سار نحو الباب كمن يمشي نائماً ومضى الى منزله حيث دخل غرفة زوجته، وصاح بها: «هيلو يز!.. هيلو يز!»

ووجدها واقفة في وسط الغرفة شاحبة الوجه غائرة العينين، فهتف بها: «هيلو يز، ماذا حدث؟»

فأجابت في حشرجة بدت كأنما تمزق حلقها:

ـ لقد تم لك ما أردت.. ماذا تبغي بعد ذلك؟!

ثم سقطت بكل ثقل جسمها على الارض!.. فهرع فيلفور نحوها وأمسك بيدها التي كانت متقلصة على قنينة صغيرة ثم هتف: «رباه!.. لقد ماتت!»

واندفع كالمخبول الى خارج الغرفة وهو يصرخ: «ادوارد.. ادوارد!.. أين ابي؟ يجب ابعاده عن البيت حتى لا يرى!»

فأجابه الخادم: «السيد ادوارد في غرفة والدته.. لقد استدعته منذ نصف ساعة ولم يخرج ثانية!»

وأسرع عائداً الى تلك الغرفة فانطلقت من صدره صرخة مروعة وهو يلمح جثة ابنه في ركن قصي وغمغم: «انها يد الله!».. ولم يستطع البقاء في رفقة جثتين، وكأنما أراد أن يجد شخصاً يقص عليه أحزانه و يبكي الى جواره... فمضى الى غرفة أبيه.

وهناك وجد نوارتييه يصغي بانتباه الى الأب «بوزوني»، الذي كان هادئاً بارداً كعادته!.. فقال له فيلفور: «هل أنت هنا يا سيدي؟..أولا تظهر الا في صحبة الموت؟»

فالتفت الأب بوزوني اليه، واذ رأى هيئة فيلفور أدرك أن الفضيحة التي دبر أمر اثارتها في المحكمة قد تمت طبقاً لخطته المرسومة، فأجاب: «لقد جئت لأصلي على جثمان ابنتك.. ولأقول لك انك قد دفعت دينك بما فيه الكفاية، وانني منذ هذه اللحظة سأصلي الى الله كي يغفر لك، كما أغفر لك أنا أيضاً!»

فهتف فيلفور وهو يتراجع الى الخلف مفزعاً: «يا للسماء!.. ليس هذا صوت الأب بوزوني!»

فابتسم هذا وأومأ موافقاً، ثم خلع عباءته وشعره المستعار، وأسدل شعره الطبيعي على عنقه.. فصاح دي فيلفور مرتاعاً: «الكونت دي مونت كريستو!»

ــ انك لست مصيباً تماماً يا سيدي القاضي.. ينبغي أن ترجع بذاكرتك الى الوراء أكثر من ذلك لكي تعرف مواطنك القديم أدمون دانتيس.

وجن جنون دي فيلفور، وانطلق يعدو حتى بلغ الحديقة، فأخذ يحفر الارض بفأس في يده وهو يصيح:

ــ انه ليس هنا.. ليس هنا! لكنني سوف أجده.. سوف أجده ولو ظللت أحفر الى الأبد!

وكأنما خشي الكونت أن تنطبق عليه جدران البيت المشؤوم فاندفع الى الشارع وهو يسائل نفسه لاول مرة عما اذا كان قد أصاب أم أخطأ فيما فعل!.. «أوه، كفى.. كفى.. فلأنقذ الاخيرة!»

وحين بلغ منزله وجد مكسمليان في انتظاره، فقال له وهو يبتسم: «أعد نفسك للسفر يا مكسمليان.. فسوف نغادر باريس غداً!»

ـ أليس عندك ما تفعله هنا بعد الآن؟

ـ كلا!. فالله يشهد أني فعلت أكثر مما ينبغي!

وفي اليوم التالي رحلا، يرافقهما من الخدم «بابتستان» وحده، فقد أخذت هايدي عليا معها، وبقي «برتوشيو» مع نوارتييه!

دخل البارون دانجلر بعربته مدينة «روما» من طريق بوابة «ديل بوبولو». ثم اتجه بها الى اليسار حتى أمر الحوذي بالوقوف أمام باب «فندق أسبانيا».. وهناك دخل فتناول وجبة شهية وسأل عن عنوان بنك «تومسون وفرنش».

وحين غادر الفندق بصحبة الدليل انسل من جمهرة المتسكعين عند الباب شخص تبع البارون ودليله بخفة رجال البوليس السري وبراعتهم.. ولما دخلا البنك تبعهما الى الردهة الداخلية حيث كلف دانجلر أحد الكتبة بابلاغ المدير نبأ حضوره، ثم أدخل الى حجرة المدير بعد قليل، بينما جلس مراقبه على أحد المقاعد بالردهة أمام الكاتب الذي انصرف عنه نحو خمس دقائق. ثم رفع رأسه عن أوراقه، واذ اطمأن الى أن أحداً لا يسمعه غير ذلك المراقب قال يحدثه: «أهذا أنت يا ببينو؟»

فرد عليه هذا هامساً: «لعلك وجدت في هذا السيد صيداً دسماً؟»

فقال الكاتب: «كيف لا، وقد جاء ليسحب خمسة ملايين من الفرنكات بايصال من الكونت دي مونت كريستو؟»

وسأله المراقب: «كيف عرفت كل ذلك؟»

فأجاب: «لقد أخطرنا به من قبل!»

ثم خرج دانجلر متهلل الوجه، فودعه المدير حتى الباب... ثم تبعه «ببينو» بعد ذلك!

وفي الصباح استيقظ دانجلر متأخراً، فتناول افطاره ثم أمر باعداد العربة للسفر. معتزماً الرحيل الى البندقية، حيث يتسلم جانباً من

ثروته التي بقيت له، ثم يتابع السفر الى فينا، حيث يتسلم بقيتها و يقيم هناك.

على انه لم يكد يقطع بعربته ثلاثة فراسخ بعد روما حتى أوقفت عربته فجأة وفتح بابها، وأطل منه أربعة من رجال العصابات المسلحين، أمره أحدهم بالهبوط، ثم عصبوا عينيه وقادوه الى مغارة في قلب الصخر، حيث أدخلوه زنزانة خالية نظيفة تقع تحت سطح الارض بعشرات الامتار، وفي ركن منها فراش من القش مغطى بجلد الماعز.. ثم أغلقوا الباب!

ومر يوم كامل، ذاق فيه المليونير السجين آلام الجوع، وتنبه أخيراً على حركة بقرب الباب، فاذا «ببينو» يجلس خارج الزنزانة يعد طعاماً شهياً وقد وضع الى جواره زجاجة من النبيذ وسلة من العنب.. فسال لعاب دانجلر، وطرق الباب بخفة، فأقبل عليه اللص يسأله: «هل فخامتك جائع؟»

فقال له: «عجباً!.. كيف لا وأنا لم أتناول طعاماً منذ ٢٤ ساعة؟.. نعم يا سيدي، اني جائع.. جائع جداً!»

فسأله ببينو: «ماذا تحب من ألوان الطعام.. اننا هنا جميعاً رهن اشارة فخامتك!»

ـ أريد دجاجة، وسمكاً... أي شيء.. المهم ان آكل!

وعندئذ نهض اللص وصاح كما يفعل الندل في المطاعم: «دجاجة محمرة لصاحب الفخامة!»

ولم تمض لحظات حتى أقبل شاب نصف عار يحمل على رأسه صينية بها الطبق المطلوب، فوضعه اللص أمام السجين. ولم يكد هذا يتناول السكين والشوكة و يهم بقطع الدجاجة حتى استوقفه «ببينو» قائلا:

ـ العادة هنا أن تدفع قبل الأكل، فقد لا يعجبك الطعام!»

وقال دانجلرانفسه: «لقد سمعت أن الدجاج رخيص هنا في ايطاليا، حتى ان الدجاجة لا يزيد ثمنها على ١٢ سنتيماً، ولم أدعهم يخدعونني!» ثم أخرج من جيبه ليرة قذف بها الى اللص، فتناولها هذا ولكنه استوقف السجين عن الأكل مرة أخرى قائلا في هدوء:

ــ فخامتك مدين لي الآن بمبلغ ٤٩٩٩ ليرة!

ففتح المليونير فاه ذاهلا ثم قال ساخراً: «كم أنت لطيف!.. يا لها من دعابة!.. اليك ليرة أخرى ودعني آكل!»

فأخذ اللص الليرة الجديدة في عدم مبالاة وقال: «يبقى لي في ذمتك الآن ٤٩٩٨ ليرة.. سأحصل عليها في الوقت المناسب»

فقال دانجلر وقد ساءه أن الدعابة طالت: «انك لن تحصل عليها على الاطلاق. اذهب الى الشيطان انت ودجاجتك ما دمت لا تعرف مع من تتعامل!»

وهنا أشار ببينو الى الشاب نصف العاري، فرفع المائدة ورجع من حيث أتى، بينما عاد اللص الى تناول طعامه خارج الباب!

وارتمى دانجلر على جلد الماعز، وانقضت ثلاثون دقيقة بدت له قرناً من الزمان، فلما عجز عن تحمل آلام الجوع، نهض واتجه الى الباب وهتف قائلا: «تعال هنا يا سيدي.. لماذا تدعني أموت جوعاً؟.. قل لي ماذا يطلبون مني؟»

فأجاب: «انك أنت يا سيدي الذي ينبغي أن تطلب.. مر ونحن ننفذ!»

ــ اذن افتح الباب فوراً.. اسمع يا هذا.. أريد شيئاً آكله، أتفهم؟

ــ أي لون من الطعام تفضله؟

ــ قطعة من الخبز الجاف، ما دام الدجاج يباع في هذا المكان اللعين بسعر جنوني!

ـ خبز؟ حسناً! اذن تدفع أربعة آلاف وتسعمائة وثمانية وتسعين ليرة، فقد دفعت فخامتك ليرتين مقدماً!.. ان كل ألوان الطعام هنا سواء في الثمن! وفخامتك تملك خمسة ملايين وخمسين ألف فرنك، أي ثمن خمس دجاجات ونصف دجاجة..!

وهنا ارتعد دانجلر، اذ انكشفت الحقيقة لعينيه، وأدرك مدى الخطر الذي يهدده، فصاح باللص:

ـ انكم تريدون تجريدي من كل شيء.. الأفضل من ذلك أن تنهشوا لحمي وعظامي! أين هو كبيركم؟ أريد أن أراه حالا!

وفي اللحظة التالية ظهر «لو يجي فامبا» أمام الباب فسأله دانجلر «كم تطلب فدية لي؟»

ـ لا شيء غير الملايين الخمسة التي تحملها!

فازدرد دانجلر لعابه وقد شعر برعب لا مثيل له، وقال: «ولكن، هذا المبلغ هو كل ما بقي لي من ثروة ضخمة، فاذا حرمتني منه فالأولى أن تأخذ حياتي أولا!»

ـ نحن ممنوعون من أن نريق دمك! هنا رئيس أعلى مني!

واستمر تصميم دانجلر على عدم الدفع يومين، عرض بعدهما مليون فرنك ثمناً لوجبة طعام.. فأرسلوا اليه عشاء فاخراً وأخذوا منه المليون!.. ومنذ تلك اللحظة اعتزم السجين ألا يضن على نفسه بشيء، وفي نهاية اليوم الثاني عشر تناول عشاءه الشهي ثم حسب حسبته.. فاذا المبلغ الباقي معه لا يجاوز الخمسين ألف فرنك!

وهنا حدث أمر غريب، فان الرجل الذي فرط في الخمسة ملايين لم يتحمل التفريط في الخمسين ألفاً.. بل اعتزم أن يحتفظ بها ولو مات جوعاً!

وانقضت ثلاثة أيام على هذا المنوال، وفي اليوم الرابع كان قد أصبح حطام انسان، هيكلا باليا.. حتى لقد راح يقتات من فتات الجير

والحصير الذي يكسو بلاط الحجرة!.. وأحياناً كان يهذي.. ثم عرض على ببينو ألف فرنك ثمناً للقمة واحدة من الخبز، لكن اللص لم يجب!

وفي اليوم الخامس جر جسمه جراً الى الباب، وركع على ركبتيه مناشداً اللص قائلا: «ألستم مسيحيين؟ أتريدون قتل شخص هو في نظر السماء أخ لكم؟». وهنا سمع دانجلر صوتاً عميقاً رزيناً يسأله: «هل شعرت بحاجتك الى التوبة والتكفير عن ذنبك؟»

فجعل الصوت شعر رأسه يقف!.. وحاولت عيناه الضعيفتان أن تميزا الأشياء، فرأى وراء اللص شخصاً ملتفاً بعباءة، تكاد تحجبه الظلال، فسأله وهو يرتعد فرقاً:

ـ اكفر عن أي ذنب؟.. ماذا تعني يا سيدي؟

ـ عن الشر الذي ارتكبته!

ـ اني أكفر عن كل شروري يا سيدي لعلي أنال الغفران!

ـ اذن فأنا أصفح عنك!

ثم خلع الرجل الغريب عباءته، وتقدم نحو النور.. فهتف دانجلر.

ـ الكونت دي مونت كريستو؟!

فقال له: «انت مخطىء، انني لست الكونت دي مونت كرسيتو؟»

ـ اذن من أنت؟

ـ أنا الرجل الذي بعته وانتزعت منه خطيبته وسحقته، كي تصل على جثمانه الى المجد والثراء!.. أنا الرجل الذي قتلت أباه جوعاً، وعرضته هو للموت جوعاً.. ومع ذلك فهو يغفر لك، لأنه يطمع في أن يغفر الله له!.. أناأدمون دانتيس!

وعندئذ أطلق دانجلر صرخة مروعة وخر على ركبتيه.. فصاح به الكونت: «أنهض.. فحياتك في أمان، الأمر الذي لم يتح لشركائك.. فأحدهم جن، والثاني مات.. احتفظ بالخمسين ألف فرنك لك. اني

أمنحك أياها.. أما الملايين الخمسة التي سرقتها من المستشفيات فقد ردتها اليها يد أمينة!»

ثم التفت الى فامبا قائلا: «حين يفرغ من طعامه.. أطلق سراحه!»

كانت الساعة السادسة مساء، حين انزلق اليخت الفاخر على صفحة البحيرة الكبرى الممتدة بين جبل طارق والدردنيل، وبين تونس والبندقية، حاملا على ظهره مكسمليان موريل، في طريقه الى جزيرة الكونت دي مونت كريستو حيث واعده الكونت على اللقاء هناك.

وحين هبط الشاب وجد الكونت في انتظاره، وأخذه هذا الى كهوفه المفروشة بالدمقس والحرير وأفخر الطنافس والرياش، ثم قال له:

ـ اصغ الي يا صديقي.. أنت تعلم أنه ليس لي أهل، وأنني قد اتخذتك بمثابة ابن لي، وسوف أورثك المائة مليون فرنك التي أملكها.. فاستمتع بها، انها تفتح لك أبواب المجد والسعادة وكل شيء!

فأجابه الشاب في لهجة التصميم: «كلا، لن يعوضني ذلك عن فقد ملاكي الجميل.. أريد أن أموت كي ألحق بفالنتين.. لقد وعدتني بأن تمنحني الموت، بطريقتك السهلة المريحة.. فانجز وعدك!»

واذ رأى الكونت تصميم الشاب، سقاه جرعة من مادة كان يحتفظ بها في زجاجة صغيرة محلاة بالأحجار الكريمة.. فبدأ مكسمليان يفقد حواسه بالتدريج، حتى خيل اليه أنه يرى أبواب السماء تفتح لاستقباله، وفالنتين تخف للقائه.. ثم غاب كل شيء عن ناظريه.. ورقد بلا حراك!

وبعد قليل أحس أنه يفيق، فتململ في رقدته حتى استرد شيئاً من وعيه، ثم هتف: «آه، لقد خدعني الكونت! ما زلت على قيد الحياة!..»

ومد يده ليختطف سكيناً كانت على منضدة قريبة، كي ينهي بها حياته.. واذ ذاك سمع صوت فالنتين يهتف به: «أفق يا حبيبي، وانظر الي!»

كان الكونت دي مونت كريستو قد سقى فالنتين ليلة زارها في مخدعها مخدراً يجعلها تبدو في هيئة الميتة، فلما دفنت وانصرف المشيعون أخرجها من نعشها الذي كان قد ترك به ثقباً يمر فيه الهواء، ثم سقاها سائلا أعادها الى وعيها.. ونقلها الى جزيرته كي يمهد الطريق الى لقائها مع حبيبها مكسمليان.

وأثناء اغفاءة الشاب أدخلها الى حيث يرقد، ولبث الاثنان يرقبان يقظة النائم. وقال الكونت يحدث الفتاة: «فالنتين.. لا شيء سوف يفصلكما على الارض، بعد أن دفع مكسمليان نفسه الى أحضان الموت كي يلقاك!.. يكفيني سعادة أني جمعت بينكما.. فليسعدكما الله!»

وبعد لحظات أفاق الشاب من تأثير المخدر، فلم يكد يصدق عينيه.. وركع جاثياً على ركبتيه أمام حبيبته التي ردت اليه!

وفي الصباح التالي كان الحبيبان يتنزهان على شاطىء البحر، حين اقترب منهما قبطان اليخت وسلم الى الشاب رسالة من الكونت دي مونت كريستو هذا نصها:

«عزيزي مكسمليان.. سوف يحملكما اليخت الى حيث ينتظر نوارتييه حفيدته الغالية، كي يباركها قبل الزواج.. أما كهوفي التي في الجزيرة، وقصري في الشانزليزيه وقصري الآخر في «تريبور» فهي هدايا الزواج التي يهبها أدمون دانتيس لابن سيده القديم موريل، ورجائي أن تشاركك زوجتك اياها.. أما ثروتها التي ورثتها عن أبيها الذي جن، وأخيها الذي مات بين احضان أمه، فاني أطمع في أن تتنازل عنها للفقراء!»

«وقل للملاك التي ستشاركك حياتك أن تصلي بين حين وآخر من أجل رجل حسب نفسه ـ كما فعل ابليس من قبل ـ في مرتبة الله، لكنه يعترف الآن في خشوع ومذلة أن الله وحده هو الذي يملك الارادة العليا والحكمة اللانهائية.. فلعل هذه الصلوات تخفف من وخز الضمير

الذي يشوب حياته!.. أما أنت يا موريل فاليك سر تصرفي معك: ليس في الدنيا سعادة مطلقة وشقاء مطلق، وانما هناك مقارنة بين حالة وأخرى.. ومن ذاق الألم والعذاب كان أقدر الناس على أن يحس السعادة القصوى. و ينبغي أن نعرف الموت كي نقدر متع الحياة..!»

«فلتعش يا عزيزي ولتسعد، مع ابنتي فالنتين.. واياك أن تنسى يوماً أن حكمة البشرية جمعاء تتلخص في هاتين الكلمتين: «انتظر، وتذرع بالأمل!».

صديقك
أدمون دانتيس
أو
الكونت دي مونت كريستو





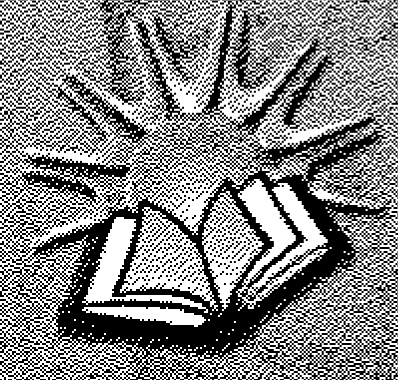
روائع القصص العالمية

صدر منها

الأرض الطيبة
سوف تشرق الشمس
رجال ونساء وحب
عدالة السماء
غادة طيبة
ذهب مع الريح ١/٢
جزيرة الأحلام
عذراء وثلاثة رجال
الشيخ و البحر
جريمة في الريفيرا
السجين الهارب
وادي الرعب
جريمة على الشاطئ
آنا كارنينا
الشاهدة الوحيدة
الشقراء البريئة
قتيل في الميترو
ساعة الصفر
الجريمة الكاملة

غادة الكاميليا
أحدب نوتردام
الفرسان الثلاثة ١/٢
البؤساء
إعلان عن جريمة
الجوهرة الخضراء
الخيط الدموي
الكونت دي مونت كريستو
دافيد كوبرفيلد
آلام فيرتر
الكأس الأخيرة
ايفانهو (الفارس الأسود)
الرجل الغامض
جزيرة الكنز
الجريمة المزدوجة
جزيرة الموت
سر اللؤلؤة
القاتل المخفي
مصرع النور

مرتفعات وذرينغ





Bibliotheca Alexandrina
0597679

بيروت ـ لبنان
تلفاكس : 00961 1 791668
ص.ب : 11/6918 ـ الرمز البريدي 11072230
سوريا ـ حلب
هاتف : 2211620 - 2211621 - 2211622
فاكس : 2211623 21 00963 ص.ب : 415
www.afach.aleppodir.com

9953-61-013-4
90000